



رواية
**مذكراتي
من العالم الآخر**

هدى بکير



النشر والتوزيع

مذكرات من العالم الآخر



الكتاب: مذكراتي من العالم الآخر
المؤلف: هدى بکير
تنسيق داخلي: سمر محمد
تدقيق لغوي: عبدالله أسامة
الطبعة الأولى: يناير 2018
رقم الإيداع: 2017/26946
978-977-6541-39-9: L.S.B.N

مدير النشر: علي حمدي

المدير العام: محمد شوقي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لراسلته الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

مذكرات من العالم الآخر

رواية

هدى بکير



لمزيد من الكتب الحصرية

زوروا موقعنا

موقع عصير الكتب

www.booksjuice.com



هذه الرواية لا تمت للواقع بصلة، ربما في البداية سأخذ أبطالي
من عالمنا، لكنني سأطوف بهم لأزمنة أخرى وأماكن غريبة ليست
واقعية أبداً..

المقدمة

لم أكن أعلم أن ب مجرد استيقاظي بهذا العالم.. أثني سأغيره.. لقد أثرت في كل نفس قابلتها.. لقد أحدثت فارقاً.. ولأجل هذا، قررت كتابة مذكراتي بالعالم الآخر، والتي استعنت بكل نفس قابلتها للتعبير عن ما حدث..

11

ما قد استيقظت الاميرة

هل شعرت في مرّة أنك نمت لسنين؟ أخذتك الموتى الصغرى لدرجة أنك نسيت
ماذا ومن كنت بحياتك؟ لا تذكر إلا أنك كنت بخير قبل تلك الآلام المزمنة في
عظامك، تنفّص عليك بداية يومك غير الظاهر، والذي عليك أن تكتشفه بنفسك
والآن.. هذا ما شعرت به حين نهضت من ذلك الفراش الوثير والذي لم يمنع عنك
كل ما يشعر به جسدي، وكأن شيئاً دهسه عدّة مرات وترك لي فتات جسد.. فتحت
عيني الجديدين وأبعدت عنهما آثار النوم العميق، تنفّست بثاقل وكأن قلبي خلق
للتّو ليدق أولى دقاته، كما شهقت رثائي أول انفاسهما..

نظرت حولي بينما أحاذل القيام ببطء وحذر، لا أعلم أين أنا، ولا أذكر أي مكان مأهول ليكون موطنني.. أردت أن يقع نظري على أي شيء يجلب لي الحياة، يشعرني بانتمائي لمن ينتفخون، و يجعلني أتهجد بارتياح، لكن ما من شيء هنا.. فقط ذلك الفراش وسط تلك الغرفة المظلمة، لا يضيئها سوى بعض الشعارات المنفصلة بجدار خارجي لتلك الخلية الصغيرة التي أقبع بها.. تحركت للأمام ببعض الخطوات ومددت يدي للأمام، حتى لامست بعض القضبان.. وكان أول ما جاء على بالي..

رفعت رأسى بحيرة للحارس الجالس أمام زنزانتي وحاولت نداءه، فأتى صوتي ثقيلاً، غريباً لا يُميّز أبداً.. وكأنى أنا فيه من أعماق البحر كحورية ملعونة، تتحدث من داخل ققاعة مائية سميكه كسمك جلدها.. لم يلتفت لي، فأخرجت كفى الأيمن

من بين تلك القضبان الواسعة ويدى الأخرى تقبض على الحديد كى لا أقع أرضاً، فجسدي بالكاد يحملنى.. ومرة أخرى ناديت.. بشيء لم أستطع فهمه، لكن لحسن الحظ التفت لي أحد الحراسين، الواقفين بثبات عند باب ما على اليمين، تحرّك للحارس الجالس أمامي والذى لم يتمكّن من سمعي، لكرهه في كتفه ليستفيق من غفلته ويلتفت لي.. وحين أصبحت الأربع عيون مصوّبة نحوى، تحرّك جسدي بضياع وحرّكت يدي ملوحة بها أمام عيونهم بحركة رخوة ضعيفة، وما حدث أمامي أذكره حق التذكرة..

عاد الحارس الثاني للباب واقترب الأول من زنزانتي، أخذ يبحث عن مفتاح خلاصي في سلسلة المفاتيح الكبيرة، التي التقطها من سترته من الداخل، وحين وجد ما يبحث عنه اقترب من قفل زنزانتي الانفرادية وأخرجني منها، قابضًا بيديه على مucchم يدي اليسرى فوق اليمنى بغير اكتراث، مثبتاً إياهما خلف ظهري بقسوة، لأهمس أنا حروفي غير المنظمة بتشتت.. لكنّي لم أسمع صوتهم هذه المرة! فبدأت أشك في أنّي قد فقدت النطق، أو حاسة السمع!

أدرت رأسي للجانبين لأنفض تلك الأفكار عنى، فشعرت بسمات هواء قذرة الرائحة تحيط بي، تأثيري من بين خصلات شعري لتصل لأنفني بطريقة مستفرّة، وقبل أن يعود وجهي لموضعه الأول، لاحظت وجود ثلاث زنازين أخرى غير التي كنت أقبع بها، توقفت قدماي الضعيفتان عن السير فدفعني الحارس، فعandته أنا بوقو في وثبتت جسدي على الأرض الحجرية، لأرى بوضوح ما كان قد جذب انتباхи.. زنزانتي.. هي الوحيدة الخالية، والثلاث زنازين الأخرى تحتوي على فتيات غيري، نائمات بعمق، لا تصدر منهن تلك الأنفاس الضعيفة أو الهممات التي صدرت مني حين قاربت على الاستيقاظ، حتى ظننت أنهن.. ليسوا بأحياء من الأساس!

لم يلبث الحارس أن يتركني لدقيقة أخرى، فقبض على مucchمي بقسوة ودفعني للأمام، يحتّي على السير، فيتحرّك جسدي للأمام تقادياً للألم. عبر

بي الباب الحديدي الأسود ذا الشراعـة الصغيرة، والذي يقف على حراسته اثنان،
أدين لأحدهما بالشكر لأنـه لاحظ استيقاضي، وفي نفس الوقت أدين له بكلمة قويةـ
على وجهـهـ، لأنـه تركـني بين يديـ هذا الـهمجيـ القـاسيـ..

لم يكن المرـ أكثر إضاءـةـ منـ الغـرـفةـ ذاتـ الزـنـازـينـ الـأـربعـ،ـ ولمـ تـكـنـ أنـظـفـ
كـذـلـكـ،ـ فـرـائـحةـ الطـيـنـ غـرـزـ أـنـفـيـ بـقـوـةـ،ـ جـعـلـتـيـ أـشـهـقـ أـنـفـاسـاـ مـتـبـاعـدـةـ منـ فـمـيـ؛ـ
محاـولـةـ فيـ تـجـاهـلـ تـلـكـ الرـائـحةـ الـعـفـنةـ..ـ لمـ تـطـلـ حـرـكـتـنـاـ،ـ فـدـقـيـقـةـ وـوـصـلـنـاـ لـبـابـ
حـدـيـديـ آـخـرـ،ـ يـشـعـ مـنـهـ النـورـ..ـ ذـلـكـ النـوـرـ مـنـ النـورـ الـذـيـ يـجـعـلـكـ تـشـعـ بـأـنـ الـبـابـ
الـذـيـ أـمـامـكـ هـوـ بـابـ سـحـرـيـ،ـ وـأـنـ مـاـ يـقـبـعـ خـلـفـهـ هـوـ الـمـسـتـقـبـلـ الـمـشـرـقـ بـكـلـ غـمـوـضـهـ..ـ
أـرـعـشـتـ شـفـتـايـ وـاتـسـعـتـ حـدـقـتـاـ عـيـنـيـ بـحـمـاسـ وـدـهـشـةـ عـظـمـيـ،ـ لـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ
أـغـمـضـتـ عـيـنـيـ وـأـخـفـضـتـ وـجـهـيـ بـسـرـعـةـ حـيـنـ تـقـاجـأـتـ بـأـنـ نـورـ الـمـسـتـقـبـلـ قـوـيـ لـدـرـجـةـ
أـنـ قـادـرـ عـلـىـ سـلـبـ بـصـرـيـ،ـ أـسـبـلـتـ أـهـدـابـيـ عـدـّـةـ مـرـّـاتـ مـتـتـالـيـةـ حـتـىـ سـمـعـتـ صـوـتـ
الـبـابـ مـنـ خـلـفـيـ يـغـلـقـ مـصـدـرـاـ صـرـيرـاـ عـظـيـمـاـ،ـ وـأـيـضـاـ صـوـتـ الـحـارـسـ الـذـيـ يـمـسـكـ
بـيـ يـهـمـسـ فـيـ أـذـنـيـ بـتـشـفـُـ:

ـ أـلـقـيـ نـظـرـةـ عـلـىـ مـاـ حـارـبـتـ لـأـجـلـهـ وـاستـيقـظـتـ..ـ لـنـ تـنـالـيـ أـيـ شـيـءـ صـدـقـيـنـيـ!ـ

ـ حـلـ قـبـضـتـهـ الـقـوـيـةـ الـقـاسـيـةـ عـنـ مـعـصـمـيـ وـضـحـكـ بـصـوـتـ عـالـٍـ وـقـالـ لـأـنـاسـِـ أـنـاـ
ـ غـيـرـ قـادـرـ عـلـىـ رـؤـيـتـهـ بـوـضـوـحـ:

ـ اـسـتـيقـظـتـ الـأـمـيـرـةـ النـائـمـةـ..ـ فـلـيـخـتـرـهـ أـحـدـ وـيـحـرـسـ جـسـدـهـ الـهـشـ..ـ
ـ وـوـجـهـهـ الـقـبـيـحـ!ـ

ـ أـلـقـيـ بـيـ عـلـىـ العـشـبـ الـأـسـوـدـ كـظـلـهـ،ـ وـكـظـلـمـةـ كـلـ شـيـءـ مـنـ حـوـلـيـ،ـ إـلـاـ مـنـ بـعـضـ
ـ الـمـصـابـيـحـ الـتـيـ قـرـبـوـهـاـ مـنـ وـجـهـيـ بـقـسـوـةـ لـيـنـقـدـوـاـ مـاـ قـالـ وـقـتـهـاـ..ـ فـبـاتـ الرـؤـيـةـ
ـ لـيـ وـاـضـحـةـ بـعـضـ الـشـيـءـ،ـ أـدـرـكـتـ أـنـ أـمـامـيـ خـمـسـةـ أـفـرـادـ يـرـتـدـونـ مـلـابـسـ بـسـيـطـةـ،ـ
ـ وـبـجـانـبـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ جـوـادـهـ..ـ رـبـماـ هـمـ فـرـسانـ..ـ وـجـوـهـهـمـ تـبـتـسـمـ بـتـشـفـُـ،ـ إـلـاـ

واحداً منهم.. لم يظهر وجهه لي حتى.. وقبل أن استمر في تحليلي لكل شيء غريب من حولي سمعت واحداً منهم يقول باستهزاء:

- أنا أنسحب يا أصدقائي.. أفضل انتظار الأميرة التالية!.

ضرب كفه في كف الآخر بجانبه والذي قال:

- أعرف من سيختارها!.

وأشار بذقنه إلى ذلك الذي لم يهزا بي معهم، ذلك الصامت، خفي الملامح، وحين لاحظ هو ذلك شدّ يده على لجام جواهه حتى ابيضت مفاصل يده، وكانت ظاهرة لي بسبب حمله لمصباح بيده الأخرى مما زاد من حالة الضوء حوله.. زاد صوت ضحكات هؤلاء الأشخاص المستهزئين، وأنا أراقب الوضع الغريب.. لم أسأل عن ما يحدث لي.. لم أسأل عن ما يتقوهون به هؤلاء الحثالة... أو أين أنا.. ولم أسأله عن من أكون!

سمعت صوت الحراس الذي رماي أرضاً منذ دقائق يتحدد بعصبية قائلاً:

- فليختارها أحد، أريد العودة لباقي الفتيات!.

رددوا عليه بضحكاتهم، فزفر الحراس -على يميني- بملل وقال أحدهم يريد إنهاء هذا الموضوع التافه بالنسبة له:

- هيّا يا ظاهر.. اظفر بها كما تظفر بكل شيء!.

تقدّم المدعوب «ظاهر» إلى وانحني على ركبته، أبعد المصباح عن وجهي القبيح قليلاً حتى لا يؤذيني الضوء، وهمس لي بصوته العميق:

- أستطيعين الوقوف؟.

حاولت أنا الوقوف لكن كان هذا الفعل متّكلاً، فقد استنفدت كل طاقتني بالتفكير ولم أعد قادرة على تحريك أيٍ من عظامي، فهزّت رأسي نفياً.. زفر هو بضيق ونظر حوله قائلاً لهم:

- اخترت تلك الضعيفة لتكون في حمايتي...

هز آخر كتفيه وقال بلا مبالاة:

- بل أجرت أن تحميها.. فهي دمية مثلك! هه! الطيور على أشكالها تقع!

لم تكن لحظة عادمة بالنسبة لي، حين قام الرجل المائل أمامي، وسلّخنجره في وجه من نعتي بالدميمة وقال بهجهة غامضة محدّرة:

- لن أحب روئتك مرّة أخرى.. ولكن ما أبغضه بشدة، هو أن أرى وجهك المزین بسّن خنجر!

ز مجر الحارس من خلفي قائلاً بنفاذ صبر:

- فقط خذها وانصرف من هنا.. هيا!

وتوجّه نحو الباب الحديدي وفتحه بعنف وقال بتهكم:

- أراد أن يحرس أميرة استثنائية..وها هي... مستثنة من قواعد الأنوثة بأكملها!

قالها ليضحك الباقين إلا هو.. أو أنا. وضع خنجره اللامع بجرابه واقترب مني وحملني برفقٍ بعد أن علق المصباح على سرج حصانه، وما هي إلا ثوانٍ حتى أصبحت على الجواد، وانطلق بي بعيداً، والأصوات من خلفه تصيب باستهزاء، وسمعت أحد الحرّاس ذا نفوذ يخرسهم قائلاً:

- كفى... إلى أماكنكم!

سمعت صوت صهيل جواد حارسي.. وقتها حاولت الاعتدال في جلستي، لأجد أنّي أستند على صدره الواسع القوي، مثبتة بذراعيه المفتولتين بينما يمسك بهما سرج الجواد.. رفعت نظري بإعياء للأعلى، لأجد أنه يتحرّك بي نحو قلعة عظيمة.. محاطة بالشعلات لتضيئها من كل الجهات، أعلى ما بها برج عظيم،

وجنودها يقفون حولها بالمرصاد. حين اقتربنا منها جاءت بيالي إحدى الحكايات الأسطورية.. فبذكرهم كلمة «أميرة» ترسخت الفكرة بعقلي أكثر.. أميرة.. وفارس على جواد.. لكن من المفترض أن يأخذني من القلعة، بعيداً عنها.. لا إليها! وجواهده.. ينبغي أن يكون أبيض اللون.. لا أسود، والفارس.. أين وجهه الوسيم.. بل أين وجهه من الأساس؟!

ظلّ عقلي يبعث بالأفكار بداخلني، حتى أدركت أن كل شيء يسير عكس ما تسير الرواية الأصلية، فهنا لا يوجد أميرة لا يوجد إلا فتاة دميمة، قبيحة الوجه مشعثة الشعر.. لا تزيل الجليد بابتسامتها ولا تسحر أئل الفرسان بنظراتها.. فالموجودة الآن هي.. أنا.. فقط أنا! فتاة لا تذكر عن نفسها أي شيء غير قبحها.. وانقباضة قلبها من كل شيء!

الكتاب للنشر والتوزيع

{٢٦}

انعكاسيي الدميج =

لا أدرى لماذا كل هذا الألم، تلك الدقات الغريبة في صدري وطعم المرارة في حلقي.. التقطت أنفاسي بصعوبة حين أنزلني الحارس لاتحامل على نفسي وقت الدخول، متعللاً بأنني يجب أن أبدو قوية للحظات، حتى يتم إدخالي.. لم أسأل عن مصيري إذا كنت طبيعية هكذا بالامي المتفرقة، فبادرني هو بقول:

- لا مكان للضعفاء هنا.. إما أن تكوني قوية فيحترمونك ويعتبرونك من ضمن الموجودين، أو أن تكوني ضعيفة ولا يعترف بك أحد.. وينم نفيك من الوجود.

سرت بجانبه بخطوات قليلة، لا تلقاء مع خطواته الواسعة، فسبقني، لأرى بنيته الشديدة، وطوله الفارع المتشّح بالسوداء؛ فكان يرتدي زياً غريباً عن بعض الحرّاس بالخارج؛ من اللونين الأسود والرمادي الداكن بعباءة سوداء ترفرف خلف بنيته القوية بعد أن غطى الجزء العلوي منها نصف وجهه العلوي، والنصف الآخر استخدم قطعة قماشية أخرى لإخفائه، ليكون وجهه مخفياً بالكامل.. لا أعرف حقيقةً ما طبيعة الناس هنا، لكن ما أراه أنه شخصٌ مريب وغامض.

لم أسمع صوته منذ أن همس لي بأخر ما قال، لكنني أتذكر بحة صوته.. عميقه تسسل للروح دون استئдан، فريدة من نوعها، لم أسمع مثلها قط.. في حياتي.. التي لا أذكرها بتاتاً..

توقف الحارس ونظر إلىّ، عيناه الرماديتان مصوّبتان إلىّ بشكل واضح.. كعيني قابض أرواح حين رؤية صحيّته الأخيرة.. عبست قليلاً بينما أتقدّهما، لكنّه حين لاحظ أنّي أفعل هذا شدّ غطاء رأسه للأسفل أكثر ليحجب عنّي رؤية ما يظهر منه، وقال بصوته العميق:

- قفي بقואمِ ممشوق، ستأتي من تتقّدك...

و قبل أن أسأل أي شيء وجدته ينصرف من أمامي، منسحباً للخلف، مستنداً على الجدار الداكن المرشّق به عدد لا نهائى من اللوحات ملوك وملكات.. جذبت انتباهي هيئة الأشخاص بتلك اللوحات، فهم فائقو الوسامنة والجمال، ملابسهم فخمة للغاية، صدورهم الرجولية الواسعة مرصّعة بالياشين، والإلانت منهم يرتدون أفحى الحلي والزينة. ارتفعت عيناي للسقف لا إرادياً حين تبّهت أن الضوء آتٍ من الأعلى، لأجد الثرياً كبيرة من الكريستال، تتفّرع بحرّية من حول الوسط كفروع الأشجار، ليتدلى منها أكبر قدر ممكّن من ثمار الكريستال وأماكن مخصّصة لوضع الشموع.. شكلها ساحر بشكل مبالغ فيه.. أهذا ما يضعونه في الرواق؟ أتساءل عن أكبر غرفة وما بها!

انتقضت بإجفالي حين سمعت صوت من تتنحّنح بالقرب من أذني، مقتحمة مساحتى الخاصة، ولا إرادياً نظرت إلى مصدر الصوت، لأجد أنها سيدة بدينية بياض البشرة بشكل مبالغ فيه، كبيرة سنّاً، وهذا ما لاحظته بروؤية الزينة كثيفة الطبقات على صفحة وجهها، رمشت عيني دون كلام، و كنت أقصد أن أعلمها بأنّني في كامل تركيزى، منتظرة لسماع أي شيء ليتّشنّنى من ضياعي وعجزى، وأدركت هي رسالتي، فتوقفت عن دورانها من حولي متّحصّنة ونظرت في عيني بقسوة وقالت بصوّتِ رفيع مزعج:

- ما اسمك يا عود الثّقاب أنت؟.

فتحت فمي مندهشة وبلا وعي نظرت للأسفل، أفقد جسدي بعيوني، لأجد
أنتي -كما أشارت هي إلى- نحيلة كمومياء متعففة بأترية من كل الأزمان.. فرفعت
رأسي لها وتلعمت حروفي.. لترى بي هي:

- لا تسمعين؟ سألتك عن اسمك!.

رفعت يدي اليمنى لأمس رأسي المنزعج من صوتها العالي، وقلت بصوتٍ
ضعيف:

- لا أعرف.. من أنا؟.

وبعد أن وجّهت السؤال إليها شهقت بصدمة، واقتربت مني جداً حتى إن أنفي
الحساس اشتم رائحة عطرها، ذي رائحة القرنفل المزعجة جداً، تلك الرائحة
تأفني بحق.. كيف يصنعون من هذا الشيء عطراً.. هل يغوي الرجال؟ عطار
ربما!

اتسعت عيناي بفزع حين وضعت يدها على صدر فستانى الرث ومزقته بقوّة،
ومع صوت تمزق الفستان علا صوتي، بصرخة ضعيفة متقاچة.. رفعت كلتا يديّ
إلى صدرى أخفى ما ظهر منه بذعر، وجسدي يرتعد فزعاً من حركتها المبالغة،
وظللت هي على نفس الوضع، منحنية للأسفل قليلاً تقرب عدسة مستديرة بسلسلة
ذهبية من عينها اليسرى مغلقة اليمنى بقوّة، وكأنها تقرأ!

نظرت على يميني مستفجّة بمن يُدعى حارسي.. لكنه كان فقط واقفاً هناك..
يراقب كل شيء بمنتهى البرود.. لماذا لا يفعل شيئاً لست متأكدة حقاً إن كان رأى
ما حدث وما زال يحدث أم لا، فعيناه محجوبتان عن عيني..

- على ماذا تخشين يا فتاة؟ لم أرأي شيء يستدعي الاختباء!.

قالتها الشمطاء باستهجان وسخرية وتركتي لأقبض أنا على فستانى المتمزق،
وأنظر لقامتها القصيرة مندهشة من ما حدث للتو، وقبل أن أقول أي شيء، اندلع
صوتها مجلجلأ في المكان مرة أخرى قائلة:

- لا تتفى هكذا كالتمثال! اتبعيني!.

أجفلت من صوتها وتحركت على الفور خلفها، متناسية كل آلامي التي بدلتها الصدمة.. وما هي إلا ثوانٍ حتى رأيت حارسي يسير معي جنباً إلى جنب، خلف تلك السيدة المرببة.. بمنتهى الهدوء والريبة!



أصبحت بغرفة أكثر إضاءة، واسعة، بعكس ذلك الرواق الذي كنت به. لم أسمح لنفسي بالشروع بتكوين الغرفة كثيراً، فما لمحته كان كافياً لمعرفة أين أنا..

رأيت تماثيل حجرية متقنة الصُّنْع، بلا رؤوس، أجسادهم مستورّة بملابس من كافة الألوان والأقمشة.. أشك في أن معالم تلك الأجساد منحوتة بشكل ممتاز يخطف الأنظار لذا أخفوهم جميعاً، إلا من صفت أو اثنين على اليمين واليسار، يضعون فيه التماثيل بوجهها إلى الجانب، كأطفال تلقّى عتابها بغرفة المدير. دست على البساط الواسع بلون البحر بجميع درجات انعكاس الشمس عليه وقت الغروب، للاحظ أني حافية القدمين.. بشكل قدر، كالمشردين.. عدت ببصري لتلك السيدة لأجدّها تتحدث لأخرى، أصغر منها سنّاً وأنضر منها وجهها، بينما تنظر لي باحتقار.. من أنت لتحتقريني يا ذات الوجه المجدّد والرئحة المنفرة؟! وقبل أن يحدث شيء جديد التفت لحارسي وهمست له:

- لمَ هذا الإذلال؟ أين نحن ليعاملوني هكذا؟.

وأضفت بتذمر:

- أكانوا يسخرون مني أيضاً.. حين دعوني بالأميرة؟.

لم يرد عليّ، فمدّدت يدي أرفع غطاء رأسه المستقرّ من على عينيه، لكنّه سبقني وأمسك برسفي وأنزله كما كان وقال بهمس:

- لا أحد يراني غيرك.. لذا تصرفي وكأنني غير موجود...

جحظت عيناي بصدمة، لم أفهم ما قال.. هل يقصد أنه شبح؟ ما هذا الهراء؟
ألا يكفيني ما أنا فيه الآن؟!

- أنت.. اقتربِي...

قالتها السيدة ذات الصوت المزعج، لأهـز أنا رأسي وأقترب منها ومن معها بوهـن، محاولة التركيز عليهما فقط، دون النظر لأـي من العيون الجديدة التي تنظر إـلـيـ من عيون تلك التماشـلـ المـيـة.. وـحينـ أصبحـتـ أمـاـمـهـمـ، عـبـسـتـ السـيـدةـ الأخرىـ وقالـتـ بصـوتـ مـعـتـدـلـ:

- أـظـنـهـاـ مـتـعبـةـ.. بـبعـضـ الـاهـتمـامـ وـ....

قاطـعـتـهاـ الأـخـرـىـ بـصـوـنـهـاـ الـذـيـ أـذـنـيـ حـتـاـ هـذـهـ المـرـةـ مـنـ عـلـوـهـ:

- لاـ يـهـمـ.. قـوـمـيـ بـعـمـلـكـ فـقـطـ، فـالـعـبـرـةـ بـالـنـهـاـيـةـ.

وـأـضـافـتـ بـتـهـكـمـ هـامـسـ مـعـ اـبـتـسـامـةـ خـبـيـثـةـ:

- وـقـتـهاـ سـيـكـونـ كـلـ شـيـءـ وـاضـحـاـ كـضـوـءـ الـقـمـرـ!ـ.

قالـتـهاـ وـانـصـرـفـتـ وـنـظـرـتـ أـنـاـ إـلـيـهاـ وـهـيـ تـمـشـيـ بـيـنـ التـمـاـشـلـ الـمـكـسـوـةـ، وـعـدـتـ بـبـصـرـيـ لـتـكـ السـيـدـةـ وـأـرـدـتـ سـؤـالـهـاـ عـنـ مـاـذـاـ سـيـحـلـ بـيـ، لـكـنـيـ تـقـاجـأـتـ بـهـاـ تـقـوـلـ بـمـنـتـهـىـ الـبـسـاطـةـ:

- اـخـلـعـيـ مـلـاـبـسـكـ.

زـدـتـ مـنـ ضـمـ ذـرـاعـيـ إـلـيـ وـعـبـسـتـ بـشـرـاسـةـ، رـافـضـةـ مـاـ تـقـوـلـ، بـرـغـمـ عـدـمـ تـذـكـرـيـ
أـيـ شـيـءـ عـنـ الـعـفـفـ... أـوـ الـعـهـرـ.. لـكـنـيـ فـقـطـ رـفـضـتـ!ـ حـتـىـ أـتـ بـمـرـأـةـ طـوـلـةـ، حـرـكـتـهـاـ
أـمـامـيـ حـتـىـ ظـهـرـتـ بـهـاـ صـورـتـيـ.. وـتـقـاجـأـتـ!

وَقَعَتْ كُلَّتَا ذَرَاعِيْ بِجَانِبِيْ مِنَ الصَّدْمَةِ لِيُنْفَتِحُ الْجَزْءُ الَّذِي حَاوَلَتْ جَاهِدَةً
إِخْفَاءً مِنْ تَمَرُّقِ فَسْتَانِيْ، وَاتَّسَعَتْ عَيْنَاهِيْ وَأَنَا أَقْتَرَبُ بِخَطِيْطَةٍ لِتَلْكَ الْمَرْأَةِ
الَّتِي كَشَفَتْ قَبْحِيْ، الَّذِي زَادَ أَضْعَافًا فَوْقَ الصُّورَةِ الَّتِي رَسَمَتْهَا لِنَفْسِيْ!

رَمَشَتْ بَعْيَنِيْ وَأَنَا أَلْسُنَشِ بَشَرَةَ وَجْهِيِّ الْمُشَبَّعَةِ بِالْبَثُورِ وَبِأَثَارِهَا الْبَنِيَّةِ، أَنْفِيَّ
الْكَبِيرِ، شَفَتِيِّ الْمُتَشَقَّقَتِيْنِ بِلُونِ مَقْرَزٍ وَأَكْتَشَفَتْ أَنْ عَيْنِيِّ لَيْسَتَا وَاسْعَتِيْنِ، بَلَ الْوَاسِعِ
هُوَذَلِكَ السَّوَادُ الْمُظْلَمُ تَحْتَهُمَا!

بَاعْدَتِ الْمَسَافَةَ بَيْنَ شَفَتِيِّ دُونَ لَسْهَمَاهَا لَأَرِيْ أَسْنَانِيِّ.. وَتَنَهَّدَتْ بَارِتِيَاهِ.. لَمْ تَكُنْ
بَهَا مَشَاكِلُ، كُلَّهَا مُوْجُودَةٌ وَفِيْ أَمَاكِنَهَا الصَّحِيْحَةِ.. إِذَا.. هَذَا هُوَ وَجْهِيِّ! كَنْتُ أَعْلَمُ
بِأَنْتِي قَبِيْحَةَ، وَكَانَهُ اعْتِقَادُ رَاسِخٍ بِعَقْلِيِّ مِنْذُ قَدِيمِ الْأَزْلِ، كَانْتِي مُعَتَادَةَ عَلَىِ هَذَا..
لَكِنْ لَيْسَ لِتَلْكَ الْدَرْجَةِ! أَلَهَذَا كَانُوا يُسْخِرُونَ مِنْ وَجْهِيِّ! مَعْهُمْ كُلُّ حَقٍّ!

وَقَبْلَ أَنْ أَبْكِيَ عَلَىِ حَطَّيِّ، تَفَاجَأْتِ بِالسَّيْدَةِ تَقْفِ خَلْفِيِّ فِيِّ الْمَرْأَةِ، رَاقِبَتْ مَا
كَانَتْ تَقْعِلُ، أَزَالَتْ غَطَاءَ رَأْسِيِّ الْمُتَصَلِّ بِالْفَسْتَانِ، لِيُنْكَشِفَ شِعْرِيِّ.. تَنَفَّسَتْ
بِصَعْوَدَةٍ حِينَ اشْتَمَمْتُ رَائِحَتِهِ وَلَاحَظَتْ أَنْ أَطْرَافَهُ قَصِيرَةٌ لِلْغَايَةِ، بِالْكَادِ تَصَلُّ
لِشَحْمِتِيِّ أَذْنِيِّ.. وَكَانُهَا.. مَحْرُوقَةٌ!

- دَعَيْنِي أَكْشَفَ عَلَىِ بَاقِيِّ جَسْدِكِ، لَاْسْتَطِعُ تَقْدِيرُ حَجْمِ الْمُشَكَّلَةِ.

هَزَّزَتْ رَأْسِيِّ بِقَلْقِ، وَعَيْنَاهِيِّ الدَّاَكِنَتَانِ اِنْطَفَأَتَا.. أَكْثَرُ مِنْ ذِي قَبْلِ..

أَدْخَلْتِي السَّيْدَةُ الْهَادِئَةُ إِلَىِ غَرْفَةِ صَغِيرَةٍ مَرْبَعَةٍ مَتَّصَلَةٍ بِالْغَرْفَةِ الْأَمِّ، جَدْرَانُهَا
هِيَ فَقْطُ مَرَايَا... مَرَايَا قَاسِيَّةٍ، تَعَارِيْنِي بِقَبْحِيِّ.. وَبِدُونِ أَيِّ كَلْمَةٍ أُخْرَىٰ مِنَ السَّيْدَةِ
تَلْكَ، خَلَعْتُ عَنِي ذَرَاعِيِّ فَسْتَانِيِّ بِحَذْرِ كِيْ لَاْ أَزِيدُ قَطْعَهُ، بِالْتَّأْكِيدِ سَأَحْتَاجُهُ لِسْتَرِ
جَسْدِيِّ آيَّاً كَانَ نُوْعَهُ؛ جَمِيلًا كَانَ أَمْ بَشَعًا، وَأَصْبَحَتْ بِدُونِ الْفَسْتَانِ، مَلَابِسِيِّ
الْدَّاخِلِيَّةِ بِالْكَادِ تَسْتَرِنِي، وَهَذَا بِالْضَّيْطِ مَا أَرَادَتِهِ السَّيْدَةُ، أَشَارَتْ إِلَيْيِّ بِرَفْعِ ذَرَاعِيِّ
لِلْأَعْلَىِ، وَاسْتَنَدَتْ عَلَىِ الْمَرْأَةِ مِنْ خَلْفِهَا وَنَظَرَتْ عَلَىِ جَمِيعِ المَرَايَا مِنْ خَلْفِيِّ، وَلَمْ

تس النظر لجسدي نفسه.. لم تطلب مني الاستدارة، فكل شيء واضح.. جسدي غير معنني به بالمرة.. ليس قبيحاً، لكنه كما قالت منذ قليل: «يحتاج للاهتمام».. ارتديته مرة أخرى على عجلة لأستطيع التركيز في ما تقول:

- من الواضح أنك نمت كثيراً.. وبالطبع لا تعرفين كم مضى على آخر مرة اعتنيت فيها بجسدي!.

هزّت رأسي نفياً وانطلقت قائلة بذعر:

- أنا لا أتذكر أي شيء.. كما أنتي لا أعرف سبب وجودي هنا!.

هزّت كتفيها بلا مبالاة وقالت وهي تشير إلى إحدى المرايا الأربع:

- الإجابة عن تلك الأسئلة ليست من اختصاصي...

نظرت إلى ما تشير إليه، وإذا بلوحة مُظلمة تظهر بدلاً من تلك المرأة، فاتسعت عيناي بغرابة لأدرك أنه.. باب، أو نافذة بحجم لوح زجاج المرأة التي تبدلت! وقبل أن أسألها.. شعرت بها تدفعني بقوّة.. لأهوي للأسفل! ظلت أصرخ بذعر وقلبي يوشك على التوقف! ولا أتوقف عن السقوط! الهواء البارد يغلبني بسرعة سقوطي، ارتفع ردائِي لأعلى ليحجب عنِي الرؤية قليلاً، فقمashه القديم المتهري قد نال من وجهي معظمِه، ليختفي بعدها في الهواء لأبقى بقطعتين خفيتين من القماش لا أكثر... وفجأة، وجدت حارسي ذا الملابس السوداء يتبعني في سقوطي، لكنه كان هادئاً، وكأنه يحلق بمنتهي البراعة! وإذا بصوته يهمس لي ببرود:

- خذني نفساً عميقاً، وأغلقي منافذ الهواء لديك.

نظرت له بغير فهم وقد توقفت عن صراخي المذعور.. وقبل أن أنطق بالـ «ها»! التي تعبّر عن غبائي.. سقطت.. في ماء!

فتحت عيني ببطء لأرى فواقع الماء الغزيرة حولي أثر سقوطي المفجع، وذراعي مفروسدتان بجانبي، وساقي متعيتان، لا يقدران على السباحة بي للأعلى.. زفرت

آخر أنفاسي من رئتي للخارج لينتشر ثانٍ أكسيد الكربون الخاص بي حولي،
يودعني بمنتهى القسوة.. وقبل أن أدرك أنه فعلًا نفسي الأخير، تقاجأت بحارسي
يسبح إليّ، يمد ذراعه لي من الأعلى.. لا أتذكّر إن كنت قد مددت له ذراعي، أم
التقطها هو.. لكنني أتذكّر جذبه لي للأعلى.. لأصبح خارج الماء.. بطريقة مدهشة
كما دخلت إليه!

- لقد أندرتك.. اعتادي على التصرّف السريع من الآن فصاعداً.

قالها بنفس الهدوء والبرود بصوته الذي يشير بداخله الهواجس، لأنظر أنا له
بينما أشهق أكسجينًا من الهواء حول تلك الـ.. برقة الغريبة.. بركة؟!

- إنه جزء من النهر...

قالها ليخرس تساوّلاتها ونظرت حولي بغرابة بينما أزيل خصلات شعرى
القصيرة المزعجة من على وجهي، لأجد أنتي في مكان أشبه بالكهف.. حوائط
صخرية بعيدة عنى بمساحات كبيرة، كما هي طبيعة الأرض.. إلا من ذلك التجويف
الكبير المليء بالماء الذي أتواجد فيه.. مع ذلك الغريب!

هدأت أنفاسي وتساءلت عن ماذا حدث! وجدت صوت السيدة آتياً من الأعلى،
فقطررت للأعلى لأجدتها تقف في ذلك الباب المضيء، شبحها بالكاد يظهر من ضوء
غرفة المرايا، تنادي عليّ:

- نظّفي نفسك جيدًا، فأنا أنتظرك بالغرفة الأخرى.

- غرفة؟!

صحت بها بسخرية وأنا أرفع يديّ بسخط لتعلق هي الباب وكأنها لم تسمع
تهكمي.. زفرت بضيق، وارتعبت من المكان الذي أنا به. نظرت للأسفل لأجد أنتي
أقف على صخرة لزجة، ترتفعني عن سطح الماء ببعض السنتمترات.. ولصدمتني..
أنا الآن عارية!

كيف حدث ذلك؟ هل ارتطمت بسطح الماء بقوّة فتجردت من قطعه الملابس؟
أم أن قماشها المتواضع قد ذاب بعذوبة ماء النهر معتملاً الحرارة؟

— أنت تهدرین الوقت، هیاً قومی بأخذ حمامک قبل أن تناول علیک.

شهقت وأحاطت نفسی بذراعی ونظرت له شزارا، وصیبت غضبی علیه قائلة:

— أدر وجهك للجهة الأخرى وكف عن التصرف بمنتهى البرود! وفضلاً عن

ذلك، أخبرني بأي شيء يرضي فضولي!.

سمعت ضحكاته، فتجددت في مكاني والتقت له بحذر وترقب، ووجهي أحمر خجلاً من هيئتي المهينة.. لأجده ينظر للجهة الأخرى، يمسح على عباءته الطويلة التي كانت تتطاير خلف ظهره- والتي خلت تماماً من أي أثر للماء! فقررت أن أنهى من هذا سريعاً.. أخذت أدوات الاستحمام من إحدى الزوايا بالبركة وقربتهم إلى، سكبت بعضاً من السائل المنظف على شعري وجسدي بينما أفكر في ذلك المكان الغريب بهؤلاء الناس وعن حالي التي تفاقمت كثيراً عن الصورة التي أرسمها في مخيالي، ورغمماً عنى، كنت أذرف الدموع الخفيفة..



بعد مراقبة رغوة حمامي وهي تطفو بعيداً عنـي - سابحة باتجاه مصرف منحدر، خرجت من الماء ببطء، ونظرت للحارس بحذر، فكان شارداً في شيء ما بعيد عن موقعي. بحثت بعيني عن أي شيء يستر ما يظهر من جسدي التحليل، الذي بالطبع لن يغوي ذكر الخفاسـاء حتى، مما جعلني مرتاحـة بعض الشيء، حتى وجدت بعض المناشف فاتحة اللون موضوعة على أحد الجوانـب من الأرض الصخرية، فأسرعت إليها متـاجـهة ببرودـة الأرض، ارتعـش جـسـدي وأنا أتناول منشفة طـولـية، لفـتها حول جـسـدي، وأخـرى حول رأسـي لـتـمـنـعـ الهـواءـ الـبارـدـ عنـي

الوصول لأذني.. وفجأة وجدت الحارس يقترب مني ويشير إلى أحد تجويفات الصخور كالكهوف ويقول:

- هيّا...

سرت خلفه ببعض التفzer الخفيف، لأنّا جاؤنا وهنّي وضعفي قد ولّيا.. وأنّي صرت شبه طبيعية!

ووجدت أنه يهبط على درج غير مرئي بالنسبة لي، ففعلت مثله بمنتهى الحذر بينما يداعي ممدوتان للأمام، أعتقدت أنّي كنت سأشتبّث بكتفيه إن اخترّ توازني، أصبح الظلام يحيط بنا من كل اتجاه، فهمست له بذعر:

- هل وصلنا؟.

توقف فجأة فاصطدمت بظهره القوي، وفي الثانية الأخرى وجدت نفسي محمولة بخفة بكفيه من ذراعي، فوق مرفقي بقليل -كما تُحمل الدّمّي- ووضعني أمامه على ذلك الدرج الضيق كممّر ثم همس لي:

- قومي بدفع الباب.

لم أرّ أي أبواب، لكنّي بالفطرة دفعت الجدار من أمامي، لأنّا جاؤنا بضوء خفيف يتسّلّل منه، ليكشف لي ما نقف عليه.. درج من الصخور... فارغ من الجانبين.. ومن أسفله فجوة من الظلام.. لا أدرّي عمقها!

شعرت بالذعر فأسرعت بوضع إحدى قدمي على أرض تلك الغرفة الأكثر أماناً، مستندة على جانبي الباب، لأهرب من تلك الكارثة التي أقف فوقها، وسرت قليلاً حتى أصبحت بالداخل وبجانبي الحارس..

أغلقت شابة ما الباب من خلفي وهي ترتدي زيّ الخدم، الفستان القصير الأبيض والأسود والمريل البسيط، المعترف به في كلّ مكان، خصوصاً الحكايات

القديمة.. تقدّمت إلى واحدة ممسكة بيدي، قادتني حتى جلست على مقعد وثير، مريح للغاية ولم أقاوم إغماض عيني لاستسلام لإحساس الراحة هذا، لكن سمعت صوت السيدة الهدائة تقول لي:

- الآن سنبدأ بالاعتناء بجسمك.. حاوي الاسترخاء فقط، لا تتوترى.

نظرت لها بغير فهم وتساءلت:

- هل هناك ما سيؤلم؟.

وها قد جاءت الإجابة على هيئة فعل.. قاسٍ للغاية! وكرد فعل صرخت متألمة.. تذكّرت ألم العملية البسيطة تلك.. واقشعرّ بدني كثيراً، ولم أستطع فتح عينيّ وبتُ أذرف دموع الألم القليلة الثقيلة، حتى جاءني صوت ضحكات رجولية هادئة! ففتحت عينيّ بصعوبة وأنا ألتقط أنفاسي بألم، لأرى حارسي يجلس على المقعد القريب مني، متهالك من كثرة الضحك على هيئتي!

وضعت إحدى الخادمات سائلاً لرّجًا على وجهي ذا رائحة نفاذة، رائحة قهوة ربّما.. فرددت السائل بيديها بحذر وهمست لي:

- هذا لتوحيد لون البشرة.

فتأوهت أنا وسط كل هذا الصخب الذي أشعر به وقلت باستهزاء:

- أي بشرة تلك! أنا مشوّهة.. لن يجدي أيّ من هذا بالنفع!.

وبعد قليل، قرّبت إلى السيدة المرأة الطويلة، فاقتربت أنا منها مبتسمة بغرابة، لأرى أن ما قد فعلوه بي، قد أتى بالنفع!

أصبح جسدي أكثر نضارة من ذي قبل، كل موضع من مواضع الألم سكن بمجرّد رؤيتي النتيجة، وهذا القناع اللزج على وجهي، قد أدى لتفتيح لون بقع البشرور وأثارها.. والأسود تحت عيني، اختفى بطريقة ملحوظة! هو يظل قابعاً تحت عيني

لكن حضوره بسيط.. وشعري.. أطراfe متساوية، لا تشوكي بعد الآن ولا تزعجني، قاما بوضع مستحضر ما ليجعله يطول قليلاً بطريقة فورية لتلقي أطراfe كتفي، هذا ما قالوه حين أزعجتهم شعري القصير هذا، بالمدامة عليه سيعود طوله الأصلي.. أتذكّر صوت السيدة حين قالت بأسف:

- أنت هزيلة، وإمكانيات جسدك معودمة.. بالتدذية السليمة سيتحسن هذا بصورة كبيرة.

نظرت للسيدة بغير تصديق وتساءلت بفضول:

- في نظرك.. هل ما زلت قبيحة؟.

أقسم بأنّي رأيت شبح ابتسامة يرتسم على وجهها.. ولم تجبنّي! هل كانت تسخر مني بعقلها؟

اتّجهت لأحد الفساتين وأشارت لي أن أقترب، تفحصت الفستان وزفرت بإيجاد:

- سنضطر لحياءك ما يناسبك.. لكن ارتدي هذا مؤقتاً.

أخذت فستاناً بسيطاً من خزانة كبيرة بعرض الحائط، باللون الرمادي الباهت وأعطيته لي، قائلة:

- لقد انتهي عملي هنا.

ابتسمت لها وشكرتها.. وقبل أن أتساءل عن أي شيء وأشارت لي على الباب الذي دخلت منه، ففتحنحت وخرجت وهمسـت مـن يـتـبعـنـي:

- والآن ماذا؟.

كـدت أـضع قـدمـي عـلـى أولـى الـدـرـجـات الصـخـرـيـة المـرـيـبـة، إـلا أـنـتـي وجـدتـ المـكـانـ منـ خـلـفـ الـبـابـ قدـ تـبـدـلـ.. إـلـى الرـوـاقـ ذـي لـوـحـاتـ الـمـلـوـكـ فيـ كـلـ مـكـانـ.. عـبـستـ بـغـرـابـةـ، لـأـسـمـعـ صـوـتـ الـحـارـسـ يـقـولـ وـهـوـ يـفـتـحـ بـابـ إـحـدـىـ الـغـرـفـ:

- إِجَابَةٌ عَنْ سُؤَالِكَ الْأَوَّلِ... نَعَمْ؛ مَا زَلْتِ قَبِيحةً.. وَرَدًا عَلَى الثَّانِي،
فَسْتَفْهَمِينَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَالِ رِيَثُمَا تَعْبِرِينَ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

تَجَاهَلْتِ جَمْلَتِهِ الْأَوَّلِ، لَمْ تَصْبِنِي فِي مَقْتَلٍ، فَأَنَا أَدْرِي بِنَفْسِي! لَكِنْ مَا جَذَبَ
إِنْتَبَاهِي كَانَ ثَانِي جَمْلَةً، فَنَظَرْتُ لِلْبَابِ الَّذِي يَمْسِكُ بِمَقْبُضِهِ وَعَبَرْتُ مِنْ خَلَالِهِ..
لَأَجِدَ نَفْسِي فِي غَرْفَةٍ صَغِيرَةٍ؛ إِلَيْهَا خَافِتَة، بِهَا فَرَاشٌ بَسِيْطٌ، وَمَنْضَدَّةٌ
خَشْبِيَّةٌ لِلْطَّعَامِ.. وَمَقْعِدٌ! لَمْ أَفْكُرْ كَثِيرًا، اتَّجَهْتُ لِلشَّرْفَةِ الصَّغِيرَةِ ذَاتِ الْقَضْبَانِ،
وَنَظَرْتُ مِنْهَا عَلَى الْمَظَهَرِ الْخَارِجِيِّ وَأَطْلَقْتُ شَهَقَةً مَكْتُومَةً، لَأَسْمَعَ صَوْتَ الْحَارِسِ
يَتَكَلَّمُ بَعْدَ أَنْ أَغْلِقَ الْبَابَ:

- أَهَلَّا بِكَ فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى...

الْقَتَتْ إِلَيْهِ وَقَدْ لَاحَظَتْ أَنْ نِبْرَتَهُ جَدِيَّةً، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ الْهَمْسَ، هَزَّتْ رَأْسِي
بِغَيْرِ فَهْمٍ فَقَالَ بِغَرَابَةٍ هَادِئَةً:

- الْعَالَمُ الْآخَرُ أَلْمَ تَسْمَعِي عَنْهُ؟ ذَلِكَ الَّذِي يَأْتُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ!..
تَدَلَّى فِيمِي مِنَ الْمَفَاجَأَةِ وَاقْشَعَرَّ بِدِنِي مِنْ قَسْوَةِ مَا قَالَ.. وَمِنْ بِرُودَةِ وَصْفَهِ..
وَتَسَاءَلَتْ بِمَا أَخْشَى:

- إِذَا.. أَنَا مِيَةٌ.

هَزَّ رَأْسَهُ، وَلَكِي يَكُونَ وَاضْعَافًا أَكْثَرَ أَضَافَ بِلَا أَيِّ تَعْبِيرٍ:

- مُؤَكِّدٌ...

وَضَعَتْ كَلْتَا يَدِيَّ عَلَى فَمِي وَجَلَسَتْ أَرْضًا، ضَامِمَةً سَافِيَّ إِلَى صَدْرِي؛ تَلَكَّ
الْجَلْسَةُ الَّتِي تَعْبُرُ عَنِ الْعَجَزِ بِالنَّسْبَةِ لِي.. وَلَا تَسْأَلَنِي كَيْفَ عَرَفْتُ!

اقْتَرَبَ ذَلِكَ الْحَارِسُ مِنِي وَمَدَ كَلْتَا يَدِيهِ لِيَرْبَّتْ عَلَى كَتْفَيِّ قَائِلًا:

- لا داعي للحزن، لقد محو ذاكرتك لهذا السبب أتعلمين؟.

هطلت دمعة من عيني بينما وضعت يدي على موضع قلبي هامسة بغير وعي:

- أنا لا أتذكر أي شيء فعلًا.. فقط ذلك الإحساس اللعين بالألم.. والقهر!.

مد يده إلىّي كي يساعدني على الوقوف، فوقفت بمساعدته واستندت على الجدار من خلفي وقد عاد الوهن إلىّي، وهمست بألم:

- حتى أسمى... نسيته!.

اقرب إلىّي ذلك الحراس -ببطء- ولم يكن بوسعي التراجع، فأنا التصدق بالجدار أصلًا.. شعرت بأنه قريب مني بطريقه مريبة، فرفعت عيني له بذعر وسألته:

- وأنت.. من أنت؟.

رفعت ذراعي تلقائيًا أمام صدري، لاتصالًا به ينزلهما ببطء، ويقرب أنامله لصدر فستاني يريد فتح أزراره.. تسارعت دقات قلبي وأنفاسي في محاولة الابتعاد عنه بينما أكرر سؤالي:

- من أنت!.

وأضفت بدهشة:

- اترك ملابسي وابتعد عنني فورًا!.

فكرة أن لا أحد يراه غيري جعلتني أحبس أنفاسي في اللحظة الأخيرة عن الصراخ والاستجاد بأي أحد.. رغم أنني لا أعرف أحدًا!

ثبّتني برفع ذراعي فوق رأسي بقبضته القوية بينما يده الأخرى ما زالت تقوم بعملها بسرعة وخففة، حتى انتهى من فض الأزرار العلوية، وفجأة باعد بين ضفتي الفستان كالباب المفتوح، وقال بهمّسٍ مندهش:

- مقتولة...

أخيراً استطاعت دفعه بكل قوّتي، ليبتعد عنّي قليلاً، لكن سرعان ما اقترب وثبت ذراعي فوق رأسي مستطرداً بنبرة هامسة.. غير مصدقة:

- لم تموتي.. بل قُلتِ!

نظرت له بغير فهم، فأشار على موضع صدره وقال:

- مكتوبُ هنا...



عصير الكتب للنشر والتوزيع

{٣}

= عاد مشوهاً كما كان!

نظرتُ له بغير فهم، فأشار على موضع صدري وقال:

- مكتوبُ هنا...

نظرت للأسف على ما يشير إليه، تحت رقبتي ببعض السنن المترات، وشهقت حين رأيت شيئاً ما، هو مخطوط بالفعل! وكأنه وشم!

ابعدت عنه وظللت أدور بالغرفة، ذهاباً وإياباً، أبحث عن مرآة.. لكنني لم أجده! فصحت فيه ليبحث معى:

- ألا ترى مرآة؟ أى مرآة؟!

و قبل أن يجيب لاحظت وجود وعاء عميق من الماء و بجانبه كوب حديدي صغير، فاتجهت إليه و جلست على ركبتي المكسوتين بالقليل من اللحم، و اقتربت بوجهه منه، لأرى انعكاسي.. رفعت جسدي قليلاً و فتحت الفستان، ولم أر شيئاً! فالإضاءة بالغرفة سيئة للغاية!

اقترب مني وقال بهدوء:

- اهدأي.. لن تستطعي رؤيته، يمكنني قراءته لكِ.

زادت دقات قلبي و قلت بتعلّم:

- لكن.. لكن تلك السيدة.. القصيرة.. استطاعت قراءته.. لماذا؟ وأنت..
كيف ذلك؟.

اقرب مني وثبتتني من كتفي، لأصبح واقفة باستقامة أمامه وقال بعمق:

- يمكنها ذلك.. و يمكنني.. ليس الجميع يمكنه ذلك.. بما فيهم أنت.

وأضاف بشرود:

- وبالرغم من أنها قرأته، لم تبد تعجبها من الأمر.. غريب حقاً.

نظرت لموضع عينيه وكأني أراهما وهمست برجاء:

- أطلعني على كل شيء! أشعر بأنه يتم قتلي فعلياً بكل هذا الغموض!.

دفعني للخلف قليلاً لأجلس على الفراش من خلفي، فجلست وضمنت ساقّي
إليّ، أحتوي نفسي وأحميّني من الهواجس.. فكلمة «مذعورة» هي أقل كلمة يمكنها
وصف شعوري بعد أن أخبرني عن كوني مقتولة.. موجودة بالعالم الآخر!

جذب المهد الخشبي البسيط ليضعه أمام جلستي على الفراش، جلس بالوضع
المعاكس لطبيعة المهد، ومال بجذعه للأمام مستنداً على الظهر الخشبي بكلتا
يديه وبدأ في الحديث، ليأتيني صوته متنهداً:

- لا تخافي لست الوحيدة.. هناك المئات والمئات أتى من منذ أيام.

قضمت شفتي بتوتر، أعتقد أنها عادة حين أكون مشتّة.. وسألته بينما شفتاي
مضمومتان قليلاً:

- وماذا قرأت.. غير كوني مقتولة.. هل اسمي مذكور أيضاً؟.

سألته وأنا أكاد أجن، أسأله سؤالاً بسيطاً بينما أعيد ترتيب كل ما أردت سؤاله
عنه بعدها، حتى لا تهرب حروفي المرتعشة من بين شفتي المشتّقتين.. ملايين
الأفكار والهواجس قفزت لطبيات عقلي بلا استئذان، لأرتجف قليلاً وأنحرك بلا

وعي للأمام وللخلف، مشارعي منتخبّة، حتى قبل أن يقول أي شيء.. كم أردت أن أصبح كل ما أريد معرفته في سؤال واحد؛ كي أستمع لتفسير عميق يشبع فضولي ويسكن قلبي ولو قليلاً لم أستطع ذلك بالطبع فاثرت الصمت، حتى أتت إجابته:

- أنت مقتولة.. فقط.. لا يوجد أي شيء آخر عنكِ، وأعتقد أنه ليس بالأمر الغريب.. لقد سمعت عن فتيات يأتين بدون أي معلومة!.

أومأت برأسِي وأرْهَفت سمعي لصوته العميق والذي بدأ بالاسترداد:

- نحن هنا في العالم الآخر، نقوم بعمل ما لم نستطع فعله في الحياة... فكلِّ منا هدف من الوجود هنا.. حتى لو أن وجودنا هنا ليس بمحض إرادتنا...

لم يسكن كلامه ذلك التشوّش بعقلي، فسألته:

- وكيف سأعرف هدي في إن كنت أحيل هويتي؟!.

أُقسم أن صوتي كان واضحًا، بالتأكيد سمع كل ما قلته.. لا شيء مضحك في ما أقول! وبرغم هذا.. ضحك..

أرْهَفت سمعي لصوت الرياح القادم من الخارج، وفي نفس اللحظة دخلت بعض الرياح عبر تلك الفتحة السخيفية ذات القطبان بالحائط، لتجعل جسدي يرتجف بوهن، فهممت لإغلاق أزرار فستاني الخفيف والذي لا يوجد أي شيء ليستر عظمي البارز إلا هو، والتي نسيت إغلاقها تماماً بمجرد أن رأيت تلك الكلمات.. شعرت بالاختناق... ومجدداً.. سأله:

- ما المكتوب هنا؟.

وأشرت إلى جسدي بتلقائية، فأجابني:

- مقتولة.. كنت تحاولين إنقاذ أحدهم..

اعتدلت وجلست القرصاء وطالعته بمنتهى الاهتمام، وتساءلت:

- أنا؟ كنت أنقذ أحدهم؟.

هزّ رأسه وقال باستهزاء:

- من الواضح أنكِ مُضحية...

ابسمت بشرود.. بقليل من الفخر وحاولت تخيل نفسي في أيّ من مواضع البطولة والتضحية.. فلم أجد! فعدت إليه وتساءلت:

- وهل لي اسم؟.

تحرّكت أصابعه تداعب خشب المقعد المتهالك وقال بلا أيّ تعبير أو اهتمام:

- مؤكّد كان لديك...

انقبضت معدتي بتوتّر.. أهكذا يشعر الغريب؟!

- إليونورا...

لم أدرك تلك النبرة الغريبة في صوته.. لكنّها أ杰ّلت قلبي الصغير، جعلته يخفق بعنف.. بحماس.. بطريقة رائعة! جعلت لوقع الاسم الذي قاله رنيناً..

- أنا إليونورا؟.

هزّ رأسه وقال بنبرته العادية، وكأنّه لا يهتم:

- هل تمانعين؟!.

ووجدت الابتسامة طريقها إلىّ.. وقلت بلا وعي:

- أحببت الاسم!.

نهض من مقعده، وتركه بجانب الحائط وقال بهدوء:

- يليق بكِ...

وأضاف بعد أن أدرك غرابة ما قال:

- الآن عليك النوم.. فأمامك يومٌ طويل بالغد.

دق قلبي وقلت بطريقة معتوهة للغاية:

- كيف لهذا الاسم الجميل أن يليق بي؟ وأنا دمية هكذا.

خلع عنه عباءته السوداء المثبتة بكتفي ملابسه، مسّدّها باهتمام غريب، وكأنها قطّة سوداء ناعمة.. وناولني إياها، فنظرت له متسائلة.. ليقول:

- لم يؤمّنوا لكِ ما تدثرين به.. والجو بارد الليلة.

وبقوله آخر كلمة دوى صوت الهواء عالياً، فأخذت عباءته ولففتها حول جسدي الضئيل فابتلعتي باحضان، تدثّرت بها جيداً حتى اختفى وجهي أيضاً.. كم هي واسعة.. ودافئة!

تهدت بعد أن عم الدفء جسدي.. ونظرت له لأجده يقف بالقرب من الشرفة، يطالع القمر، مولياً ظهره العريض لي.. فقلت متسائلة:

- هل.. إه.. ألا تشعر بالبرد؟.

لم يجبني، ففتحنحت وناديته بينما استلقيت بجسدي النحيل على الفراش القديم:

- ظافر....

التفت إليّ واقرب مني متسائلاً:

- كيف عرفت اسمي؟.

ضيّقت عينيّ بغموض، وكدت أن أراوغه، إلا أنه قال متذكّراً وقت خروجي من الزنزانة:

- إاه تذكّرت...

وما لبث ليصمت وقال:

- مَاذا ترِيدِين؟

زفرت من قلّة صبره وقلت بسخط مشاعري:

- لا تقسو علىّ هكذا! أنا مقتولة وفاقدة للذاكرة... راعٍ مشاعري إن تكرّمت!.

ضحك باستهزاء فرميته بنظره غاضبة وأردت سؤاله عن شيء، لا أتذكر ما هو.. لا أتذكر إلا أنه اقترب مني ومرر كفه فوق عيني وهمس بشيء لم أفهمه، أঁغلني لأول وهلة، إلا أن عيني فقدتا القدرة على البقاء مفتوحتين لوقت أطول. كل شيء أصبح دامساً بالسوداد حين أسبلت أهدابي واستسلمت للإحساس المفاجئ بالنون. وقتها لم يبق بعقولي أي فكرة إلا أن.. ظافر ألقى علىّ تعويذة ما.. لأنّا!



استيقظت.. لا أستطيع القول إذا كنت قد استيقظت في اليوم التالي.. أم في نفس الليلة الداكنة.. تنهّدت وأبعدت العباءة عنّي وأنزلت قدمي للأرض الصخرية داكنة اللون كالجدران، اكتشفت أنّي نمت بالحذاء الخفيف الذي حصلت عليه البارحة مع الفستان. نظرت حولي، أبحث عن ظافر، لكن الظلام كان أقوى من تلك الرغبة، استندت على الحائط وناديت اسمه بهمس.. لكن لا من مجيب! وضعت أناملِي على عيني وقلت بغير وعي:

- هل أطفئت الشعلة؟.

وأضفت بضيق:

- لمَ هذا الظلام!.

و قبل أن أصل لحرف الميم في آخر ما قلته، سمعت صوت فرقعة أصابع، وفجأة عاد بصرِي!

اتسعت عيناي بغرابة لأجد ظافراً هدا يقف أمامي.. وأصابعه ما زالت بالقرب
من عيني.. فهمست بغير فهم:
- كيف؟.

أنزل أصابعه ببطء وتخطّاني، ليأخذ عباءته من على الفراش.. نقضها، ثبّتها
خلف ظهره كما كانت، عاد إلىّ، وقال بلهجة غريبة:

- اشرب قليلاً من الماء...

لم أفهم سبب ما قال.. لكن لا يهم، فأنا كنتأشعر بالعطش فعلاً فاقربت
ببطء لدلو الماء وأنا أطالع هيئته، إنه يدعو للريبة ولا أعرف إن كان به هو ماء
نظيف أم لا.. ولا يوجد أمامي إلا التجربة لمعرفة ذلك! أمسكت بالكوب الصغير
بالقرب منه وعزمت وضعه داخل الدلو والشرب، إلا أتنى حين اقتربت من الماء
بوجهي.. لاحظت شيئاً ما.. تمنيت أن لا يكون صحيحاً.. لكن.. هو حقيقي!

سقط الكوب مني ليصدر دوىًّا عالياً وصرخت في نفس الوقت! ولم يجفل
ظافر.. فهو بالطبع يعلم بأن وجهي.. عاد دميمًا! عاد مشوّهاً كما كان!



{٤}

الكارثة =

أردت وضع وجهي في كفى لأبكي بحرية.. لكن ملامسة ذلك الوجه هو فعل
مقرر للغاية، حتى ولو كان وجهي أنا!

شعرت بيد حارسي توضع على كتفي، فانتقضت واقفة وابعدت عنه صائحة،
بينما أخي وجهي في الفراش الذي ارتميت به:

- ماذا فعلت بي! أيها المشعوذ! أنت من فعلت بي هذا!..
لم أكن أتوقع منه إجابة.. لكنه أجاب بوضوح:

- لا تلقي باللوم على غيرك.. هذه هي أنت.. ووجهك الهدائى بالأمس كان
 مجرد استثناء...

رفعت وجهي من الفراش وصحت فيه بكل ما فيّ من ذعر:
- لماذا! لماذا!..

بكية بلوعة واهتزّ جسدي بقوّة.. وسمعت صوته يقول بهدوء:

- لا تنهاري من شيء بسيط كهذا.. فلديكِ الكثير لتلقي من أجله.
وفي نفس اللحظة سمعت طرقاً على الباب، فالتفت لأجد الباب يُفتح، لتدخل
السيدة السمينة، ويسبقها عطرها المنفر.. وصوتها المزعج:

- كفى كسلاً، استيقظي هيّا هيّا...

قالتها وهي متوجهة لأخر الغرفة، في الاتجاه المعاكس لي.. وقبل أن اعتدل في جلستي بشكلٍ سليم، تفاجأت بدلوا الماء ينهر على جسدي! فشهقت بذعر وصرخت! ثم اعتدلت بإجمال لأجد السيدة تنظر لي بدهشة وقد تركت الدلو:

— لم تذهبى للماشطة بعد؟

قالتـها مشيرة لوجهـي القبيـح، فـتكـست أنا وجـهـي وـقـلت بـحزـن:

— ذهبت.. وتحسنت هيئتي.. لكن.. عاد وجهي لما كان عليه!.

ضحت مجلة المكان بصوتها المزعج لأنقض أنا مذعورة.. وقالت أخيراً
بمزحة لم أفهمها أنا:

— ااه مؤكّد كنت جميلة في حياتك الأولى !.

أسيلت أهدائي عدّة مرات وهمست به:

— لا أتذكر.. أشعر بأنني كنت دوماً قبيحة.. لكن احساسه هذا...

و قبل أن أوصل لها ما أريد، جذبتي من ذراعي بقسوة ضاغطة بأناملها السميكة على تلك المنطقة أسفل كتفي بقوّة وأخرجتني من الغرفة قائلة:

- لا داعي للثرثرة.. كوني قليلة الكلام، لا وقت لدى لأسمع ثرثرة كل واحدة منكِ!.

انطلق أنيني وتساءلت:

— لكن.. كيف لا أكف عن الشرارة وأنا لا أفهم شيئاً!

أصبحنا بالرواق ذي اللوحات الملكية العظيمة وسرنا تحت الشريّا المترفرعة،
سمعتها تقول بتهكم:

— ومن لديه الوقت ليشرح لك أيتها المعتوهة؟ لا ترين أن جميعنا مشغولون؟.

نظرت حولي بغراة وقلت:

- جمِيعكم؟ لكنني لا أرى أحداً!.

وبنطقي الكلمة الأخيرة تفاجأت بأننا عبرنا بداخل الحائط وكأنه حائط من الهواء فقط! وأصبحنا بداخل مكان حار للغاية، رفعت كفّيَ أمام وجهي أصارع تلك الأبخرة عديدة الروائح حتى اتضحت الرؤية. نحن في مطبخ أقل ما يقال عنه أنه كبير، ولأعود لما قلته منذ ثوانٍ؛ الآن أنا أرى أناساً ينتشرون في كل مكان؛ لينفوا بداخلِي فكرة أن هذه القلعة مهجورة!

دفعتني السيدة لإحدى الفتيات، اللاتي يرتدين قبعة بيضاء تحجب خصلات شعرهن عن وجوههن، يقطّعنون الخضر.. وقالت بقصوّة:

- أعطيها سكيناً...

استقرّت قدميَ المختبطة بجانب تلك الفتاة، كانت طويلة، يفوق طولها الفتيات بالمطبخ، قمحية البشرة، وجهها صافٍ، يعكس ما يبدو وجهي، أنفها طويل قليلاً نهایته مدبة يعطيها مظهراً جذاباً.. لم أر هيئة شعرها، لكن لونه الأسود الفاحم كان ظاهراً لي من تلك الفتاحة المستديرة أعلى القبعة الورقية..

- أدعى ميلدا.. وأنا كبيرة الطهاة هنا...

قالتها بعملية بينما تضع سكيناً كبيراً في يدي، ولم تنظر إليّ، وأشارني هذا بالارتياح قليلاً.. شعرت بشيء بجانب ساقي اليسرى، فنظرت للأرض لأجد أنه شوال كبير من قماش بنى رث للغاية، وضعته فتاة للتّو وانصرفت..

- أريدك أن تقطّعي كل الكمية، لا تتركي أي شيء.. وحين تنتهي تعالي إليّ..

قالتها ميلدا ثم غادرت كما غادرت السيدة القرنفالية -المستديرة- المحسوّة بالقصوّة، وتركوني وحيدة وسط كل هذا الكم من الفتيات.. والطعام... أدرت رأسي لأرى جزءاً من الحائط الرخامي بارزاً للخارج، كما تخرج منه ألسنة اللهب الساخن لشوي اللحم وأكثر من دجاجة مسكينة.. أيضاً العديد من الرفوف وضعت عليهم أدوات الطعام من أواني وملائق خشبية كبيرة، وبعض الأدوات الأخرى معلقة

بالجدار وبالعواميد الفاصلة بين زوايا المطبخ. عدت ببصري للفتيات، بمختلف أشكالهن وألوانهن؛ منهم القصيرة، وأيضاً الطويلة، البدينة والرفيعة، ولكنني لم أجد من تناسقني في كوني مومياء..

— استعیدی ترکیزک وابدای فوراً!

أجفلت من صوت ظافر وهو يهمس بالقرب من أذني، وانتقضت ليسقط السكين من يدي.. وفرت ضيقاً والتقطتها بيدي، وجررت الشوال بيدي الأخرى، لأنذهب بالقرب من منضدة التقطيع.. ليسير هو خلفي بمنتهي الهدوء، يعبر بين أجياد من يتحرّكن، وكأنهم كأبخرة الحساء الذي يفلّي في القدر الكبير..

توقفت بجانب إحدى الفتيات التي بدت منهنكة في تقطيع الجزر إلى حلقات مستديرة، لم تكن تقطعها بشكلٍ سليم، نظرت لما تفعله، واستفزني هدوئها كثيراً! ورغمَّا عني وجدت نفسي أمسك جزرة بيدي التي تركت الشوال وقمت بتنقيعها بطريقة سريعة ومثالية أمامها، حتى ابهرت هى وتساءلت ببعض الغرور:

— ألم تقطعى الجزر من قبل؟

هُنَّتِي الْفَتَاهَ كَتْفَاهَا وَهُمْسَتِ:

— لا.. أخذت الكثير من الوقت حتى أعرف كيف أمسك السكين...

نظرت لها باستكاري، وفجأة سمعت صوت كبيرة الطهاة تسكّناً:

انتقضت الفتاة وتجاهلتني تماماً، وكأنني لست هنا.. وشرعت أنا بعملي، بينما أفكر.. لماذا استيقظت في منتصف الليل لتأتي إلي سيدة مريعة لتأخذني للعمل.. أهي مواعيد العمل هنا؟ ولماذا أعمل بالطبع؟ ألم يقولوا أنتي أميرة؟

— رکزی فقط على هذا الشوال الآن.. وسنرى إن كنت أميرة أم لا...

قالها ظافر وهو يشير للشوال المجهول بجانب ساقى، فنظرت له غير مصدقة
وقلت بهمس:

- أتقرأ الأفكار؟.

أدار وجهي أمامي وقال:

- لا تفضحى أمراك.. ليس مسموح بالحديث مع الحراس الشخصي أثناء
العمل... .

أغلقت شفتيّ وقلت في عقلي بسخط:

- وما هذا العمل؟ تقطيع الـ...

وفتحت الشوال لأجد العديد من البصل الأبيض... فصحت في نفسي بهمس:

- راائع! ستقع عيناي من كثرة البكاء والتواح على هذه الكمية الرهيبة من
البصل!.

سمعته يقهقه بهدوء، فزمجرت بغضب وبدأت في الـ.. عمل!

سحبت نفسي سريعاً من أنفي الذي يسيل، ومسحت عيني الدامعتين الملتهتين
برفعة من عظمة كتفي لهما، فها قد انتهيت أخيراً من الشوال كلها! والجميع
ينظرون لي بغرابة! جمعت بقايا وقشور البصل من على المنضدة لأضعها في
الشوال، كتمامة، ونظفت سكيني.. متဂاھلة نظراتهم، بينما الفتاة بجانبي لم
تكمِل ربع شوال الجزر حتى! تحرّكت بزهورغم ألم ساقّي من كثرة الوقوف، أريد
الذهاب لرئيسة الطهاة «ميلدا» شعرت بظافر يقترب من يميني، فتجاهله وأكملت
السير، ولم أر أنه قد أخذ شريحة جزر غير متساوية التقطيع من الفتاة بجانبي،
وألقاها بطريقي.. لتعتّر بها قدمي!

لا أريد أن أفزّعكم.. لكن ما حدث من وقوعي، أبسط ما يقال عنه أنه كارثي!
فبالحظة إدراكي أن قدمي اليمنى داست على شيء مريض، حاولت تقادى السقوط
بشتى الطرق، مددت كلتا يدي لجانبين، أحاطت التشبث بأي شيء! فالقطعت يدي

اليسرى طرف المنضدة المجاورة.. لا.. ليست المنضدة نفسها.. بل شوال عملاء من حبيبات البازلاء التي أخذن شوطاً كبيراً في تodashيرها، أهدرتها أنا أرضاً، فسقطت كشللاً أحضر مريحاً للرؤبة وغير مريحاً في آنٍ واحدٍ لا أذكر أن مظهره أعجبني، واعتقدت أنتي محظوظة كفاية لأرى هذا المشهد بأولى أيام حياتي الجديدة.. لكن ما أثار فزعي؛ أنتي بيدي الأخرى -اليمني- جذبت ملابس فتاة الجزر المسكينة.. وأعتقد.. أنتي جردتها من نصف ملابسها السفلية!

أتذكر صوت ارتطام أعلى ظهري بالأرض، صوت تاثير البازلاء، صرخة فتاة الجزر وصرخة الآخريات، التفاة ميلدا.. وضحكة مستهزئة من ظافر!

لم أفتح عيني إلا حين سمعت صوت سل سكين تزامناً مع صوت صرخة عالية مفاجئة من على شمالي، وتفاجأت بأنها صرخة الفتاة التي قبضت ساعات في تodashير البازلاء، وأنها بذلك السكين، تريد طعني للتفيس عن غضبها!

وقف ظافر بيدي وبينها بسرعة، وظللت نظراتها معلقة بي أنا، تشحد أنفاسها بغضب كثور هائج، وتمسك سكينها بمنتهى الغل، وقبل أن تقدم على فعل أي حماقات، أتت ميلدا، لتصبح بعمق صوتها:

- من السبب في هذه الفوضى؟.

لم يكن صوتها غاضباً كما هو صوت أنفاس الفتاة على يسارى، بل كان صوتها متماسكاً، يبحث عن الحقيقة..

صمت الجميع بينما أشرن إلى.. تباً! لم أكن أرى تلك الجمرة الحمقاء! ما ذنبي؟

قلت بصوتٍ خفيضٍ، أقرب للهمس، يتناسب مع موقفى:

- لقد دست على شيء ما...

واعتدلت لأجلس على ركبتي ويداي تبحثان عن ما تعترت به.. وووجدت قطعة الجزر عالقة في حذائي، هررعتها في وجه ميلدا بحذر بينما اعتدل بالوقوف مبتعدة

عن بقایا الخضر على الأرض، فالتقت ميلدا لفتاة الجزر والتي أمسكت ببردائها تعيده كما كان وهي تذرف الدموع خزيًا، وقالت بصراحته:

- ليست المرة الأولى التي توقعين فيها البقایا على الأرض، ها قد تسببت بكارثة!.

- لكن، آنسستي!.

قالتها المسكينة برجاء أحمق لتسكتها ميلدا بإشارة من يدها.. وقالت بمنتهى الهدوء:

- تعاون على تنظيف كل هذا! الجميع سينظف الفوضى ومن ثم تعدد لأعمالكن.. لكن بحذر!.

وفي نفس اللحظة أتت خادمة وهمست بشيء ما في أذن «ميلدا»، فزفرت ميلدا بضيق وقالت:

- ممتاز.. ممتاز! كم أنا سعيدة بكنّ!.

وأضافت بغضبٍ مكتوم:

- استيقظ الأمير وما هي إلا دقائق ويطلب تناول الإفطار! ولكن كيف مع هذه الفوضى يا ترى!.

قالتها وهي تشير حولها محاولة التماسك.. وقبل أن تضيف أي شيء آخر همست أنا باستكاري:

- يستيقظ ليتناول الإفطار ليلاً؟ غريب أمره!.

سمعت صوت الضحكات من كل مكان حولي.. يسخن من جهلي! فما قلته كان بصوت مسموع.. وشرع الجميع بالتنظيف.. فتوّجت أنا ميلدا بحذر وقبل أن أشير على كومة البصل التي أنجزتها أمسك ظافر بذراعي وهمس:

- مهلاً...

التفت له بি�لاهة، لأجد صوت ميلدا تصيح في:

- الفتاة الجديدة.. تعالى إلى هنا.

التفت لها وبحدر سرت إليها، فسألتني:

- لا تعتملي بتنظيف الفوضى، فقط قطّعي البصل، أفهمت؟.

هزّت رأسي بفهم وقلت بتأكيد:

- أنا بالفعل انتهيت منه!.

كانت هي قد التفت لخادمة، تذوقّ ما تحمل من طعام، فتركت الملعقة جانبًا

ونظرت لي ضاحكة قائلة بغير تصديق:

- أعطيتك شوالاً.. لا بصلتين!.

ابتسمت بفخر وقلت:

- وقطّعته أنا كلّه! حتى آخر حبة!.

رفعت حاجبيها بغرابة ونظرت خلف كتفي، لتهزّ رأسها بالنفي قائلاً بصبرٍ

عجيب:

- لا أرى ذلك يا صفيرة.. اذهبي وأنجزي الكمّية.. هيّا!.

قالتها بسخرية وهي تدير كتفي، لأسرع أنا إلى كومة البصل خاصتي.. والتي

ذرفت الدموع من أجلها والتهبت عيناي! لقد اختفت الكمّية!

رددت هامسة بذهول:

- أين؟!.



{١٠}

= نَظَرَةً =

رَدَّدْتُ هامسةً بذهول:

- أين؟!.

انتقضت حين خاطبني ظافر بغضب:

- ألم أخبرك بالانتظار؟ لماذا لا تسمعين الكلام؟ أحمقاء أنت؟!.

كانت تلك المرة الأولى التي سمعته فيها يحدثني بغضب، فقطرت له بذهول

وهمست بغير تصديق:

- لا تقل لي أنك السبب في اختفاء نتيجة مجاهودي المميت؟.

- مميت؟.

كررها ظافر باستنكار وأشاح بيديه في الهواء في وجهي قائلاً بدهشة:

- لقد انتهيت في وقتٍ قياسي! وكل قطعة مساوية للأخرى حتى دون أن تنتظري

لما تفعلين! لقد قمت بها بطريقة.. مثالية للغاية!.

زاد ارتفاع حاجبي بدهشة حتى كادا أن يفرا من جبتي وأنا أقول:

- وهذا جزائي؟!.

وصرخت في آخر جملة لأرى الفتيات ينظرن إلي بازدراة.. وقابلتهن أنا بنظرها خاصة، أضافت لقبعي مظهراً لا يحتمل فأشحن ببصري بعيداً.. جذبني ظافر من معصمي لمكان هادئ بالمطبخ... وقال بهدوء:

- لا تظيري قدراتك دفعة واحدة، كوني ذكية.. كالحاوي!.

هززت رأسي بعدم فهم، وقبل أن أقول أي شيء سمعت صوت واحدة من الفتيات تقول:

- الآنسة ميلدا تناذيك...

هززت رأسي ونظرت لظافر شرراً وهمست له:

- للحديث بقية!.

سار بجانبي نحو ميلدا.. مجدداً، والتي نظرت لي قائلة برفق:

- انسى أمر البصل.. أنت لا تصلحين للمطبخ، وجودك سبب ضجة..

وأشارت لخادمة تقف بجوار الباب قائلة:

- اذهب معها، سترشدك لمهمة أخرى.

وبيّنما أستدير ظهرت خادمة أخرى قالت ميلدا:

- سيدتي، الأمير يريدك لطلب الطعام.

تهدت ميلدا وقالت:

- حسناً.. آتية...

تركت المنشفة من يديها وغادرت، متجاهلة وجودي تماماً.. فخادرت أنا المطبخ متوجهة للخادمة، التي انحنى إليّ وهمست بأدب:

- الآن ستذهبين لإحدى الغرف التجريبية للتنظيم.

- تطبيق! الآن؟.

هكذا ردت، بغير تصديق، وهتفت:

- آه يا ظهري! كيف سأبدأ في شيء آخر بعد ما قد قمت به!.

ضحكـت الخادمة وقالـت بـتحفـظـ:

- طـلـما أـنـك آـنـسـتـي لـم تـلـحـي في مـهـامـ المـطـبـخـ، بـالـطـبـعـ سـتـجـحـيـنـ بـمـهـامـ
الـتـنـظـيفـ!.

أـطـلـقـتـ ضـحـكـةـ قـصـيرـةـ مـسـتـنـكـرـةـ.. وـتـأـفـتـ منـ رـائـحةـ الـبـصـلـ الـنـفـاذـ الـمـبـعـثـةـ
مـنـ يـدـيـ وـمـلـابـسـيـ، سـمـعـتـ صـوـتـ ظـاـفـرـ يـهـمـسـ:
ـ سـأـكـونـ مـعـكـ، لـنـ تـنـجـحـ تـلـكـ الـمـهـمـةـ مـهـمـاـ كـلـفـنـاـ الـأـمـرـ.

كـدـتـ أـنـ أـرـدـ عـلـيـهـ إـلـاـ أـنـهـ كـمـمـ فـمـيـ بـيـدـيـهـ، فـالـتـفـتـ لـهـ وـهـمـسـتـ بـيـنـ طـيـاتـ عـقـلـيـ:

- مـاـذـاـ تـقـعـلـ؟ـ اـتـرـكـنـيـ!ـ.

تـرـكـنـيـ بـيـطـءـ وـهـوـ يـقـوـلـ:

- لـاـ تـحـدـثـيـ مـسـتـخـدـمـةـ شـفـقـتـيـكـ.. فـعـقـلـكـ يـكـفـيـ...

تـهـهـدـتـ وـأـنـاـ أـفـكـرـ:

- هـلـ حـتـّـاـ تـقـرـأـ أـفـكـارـيـ؟ـ.

رـأـيـهـ يـهـزـ رـأـسـهـ فـتـسـأـلـتـ مـرـّـةـ أـخـرـيـ:

- وـمـنـ أـيـضـاـ يـمـكـنـهـ ذـلـكـ؟ـ!ـ.

قـالـ مـتـسـلـيـاـ بـبـرـودـ:

- أـنـاـ الضـحـيـةـ الـوـحـيـدـةـ...

لـكـنـيـ نـظـرـتـ لـهـ بـغـضـبـ وـقـلـتـ بـعـقـلـيـ:

- ولم أنت محتمل؟ فقط ابتعد عنِي، واجلب لي حارسًا آخر يرافق بي،
ويخبرني بأي شيء يحثّني على الاستمرار!.

وهمسَت بازدراء:

- متعرِفًا!.

- سمعتَ!.

قالَها.. ورَكَّزتُ أنا على السير في تلك الرَّدَّة التي لا تنتهي.. رَدَّةٌ أخرى مشابهةٌ لِلتي أَعْرَفُها، رَكَّزت بصرِي على الديكورات: تحف، وتماثيلٌ عتيقة. حاولت معرفة مَعْنَاها، إلا أنَّ الْخَادِمَة توقفَت فجأةً أمام أحد الشمعدانات الذهبيَّة، اقتربت من شموعها يشفيها، ومن بين شفتيها نفخت الهواء، لتنطفئ شمعةٌ واحدة، وفي نفس اللحظة اختفت لوحةٌ من على الجدار، كانت لرَجُلٍ قويٍّ، شاربه يحتلُّ معظم وجهِه.. شهقتُ أنا متفاجئَةً من ما حَدَث، فهمستُ الْخَادِمَة:

- الشمعة الأولى تفتح الزنزانة.. تفضلِي آنسِتِي..

تبَعَتُها للداخل، ويجانبي ظاهر، غير متفاجئٍ من أي شيء. ابتعدنا عن بقعة الضوء حتى زاد الظلام من حولنا، أعادت الْخَادِمَة النور للمكان مستخدمةً أعواد الشَّقاب في جيب رداءها، أضاءت الشعلات وحين انتهت قالت بتحفظٍ:

- آنسِتِي يجب أن تنتهي منهم قبل أن يحضر الـ.. الحرَّاس.

ضيَّقت عيني وسألتها ببراءة:

- أي كم ساعة سأبقى هنا؟.

نظرت الفتاة للجانبين بحذر، ثم همسَت:

- سيخبركِ الحارس الشخصي...

وانصرفت مسرعة الخطى، لعل لديها أعمال أخرى! وقتها نظرت لما حولي وهو قلبي في قدمي وأنا أدخل لذلك الممر الصغير، المؤدي لأربع زنازين فارغة، كانتي كنت بواحدة منها! انقبض قلبي بصورة بشعة وأبيت الحركة حتى نظر لي الحارس وقال:

- لماذا تخاف جميع الفتيات من العناير؟ ماذا ترون فيها سوى أنها البوابة لعالمكم الآخر؟!.

قالها ظافر بنبرة عالية مستنكرة، ليجفلني، فهمست أنا بذعر:

- أعتقد أنتي لن أنسى هذا المكان أبداً.. إنه مرrib!.

هز رأسه بلا اهتمام قائلاً:

- نعم نعم أعلم... .

تنهدت وحاولت أن أحافظ على هدوئي.. وتقىدت أدوات النظافة من حولي؛ مِنفحة أنفض بها الفراش، قطعة قماش أزيل بها الغبار من على القصبان وقطعة قماش من الكتان، قديمة ومهترئة.. بجانب دلو مليء بالماء و محلول التنظيف بالطبع هو للأرضية... سأترك المسح آخر شيء.. لكن كيف سيخرج الغبار ولا يوجد أي منفذ للهواء أو الشمس؟!

قاطع تفكيري ظافر يقول متسائلاً بحزم:

- هل انتهيت من التفكير كربة منزل؟.

نظرت له وزفرت بضيق قائلة:

- إذا كنت لا ت يريد الاستماع لما أقول فقط سد أذنيك! أنا أفكر في أسرع طريقة للانهاء من هذا الأمر.. وهذه الغرفة ثقيلة على قلبي.. أبغضها.

وأشترت للمكان من حولي قائلة وكأنني منومة مغناطيسياً أو تحت تأثير الوسوس القهري للنظافة:

- المكان متّسخ للغاية.. يجب أن أتحرّك...

اتجهت للمنفعة، وفتحت أول زنزانة؛ بل الزنزانة الوسطى، تلك كالتي كانت قابعة بها في أولى لحظاتي هنا بتلك الحياة.. بهذا العالم..

أمسكت المنفحة بإحكام بكلتا يديّ، وقبل أن أرفع ذراعي للاعلى لأهوي على هذا الفراش بكل قوّتي، وقعت المنفحة من يدي! فأخذتها من على الأرض ومجدداً، زدت من إحكام يدي عليها، ثم.. وقعت مرّة أخرى!

زفت بضيق ونظرت لظافر، لأجده يلوح بأصابعه في الهواء، قائلاً:

- لن أدعك تفعلين هذا.. تذكري ما قلته منذ قليل...

رميّت المنضدة من يدي واتّجهت له بعدائّية صارخة بوجهه:

- لم لا تركني أعمل !

قرب ظاهر أصبعيه الإيهام والسبابة من جهتي.. وفجأة طرق جهتي بسبابته لأنتفصل أنا أملأ! وتأوهت بغيظ من تلك الكهرباء التي سرت في رأسي لدقائق وجلست أرضاً بضعف بعد أن انتشر تأثيرها في جسدي كله، وتأوهت بوهن:

- ما الذي فعلته؟.

جلس مرّيّعاً قديمه أمامي ببساطة، ورفع رأسى المنكس بأنامله قائلاً:

- أرخيت قولك.. يجب أن تكوني ضعيفة هذا الوقت، حتى يعود المسؤول عن مراقبتك ويعلم بأنك فاشلة في تلك الأعمال.

انتقضت برأسي لأشعر بدواء وقلت بتيه:

- لكنني لست فاشلة... أعلم كيف أقوم بالتنظيف!.

تَهَدَّ ظَافِرٌ بَصَرٌ وَقَالَ:

- إذا قمت بالتنظيف على أكمل وجه سينهكونك في نزازين أخرى، ويعيدون اختبارك لمهارات الطبخ.. وحين تتم ترقيةك، سيكون عليك غسيل الصحون والأطباق الملكية.. أو تنظيف إحدى غرف الوزراء وربما غرفة الأمير نفسه!.

ورفع صوته ليقول باستنكار:

- من أنت يا فتاة! تبدين كربة منزل حية الضمير؛ تتهكين نفسك بأعمال المنزل وكأنك تتظرين زوجك الحبيب!.

اتسعت عيناي وقلت بضيق:

- هل أنا هنا لأكون خادمة؟.

هز رأسه نفياً وقال ببرزانة وحكمة:

- هذا بيديك أنت.. إن أردت الراحة، ابنيي التعب من الآن.. اتركي كل ما هو صعب ليفعله الآخرون.

- وهل هذا ممكن؟.

قلتها بغير تصديق فقال مؤكداً:

- كل شيء ممكن.

وأضاف:

- ما عليك إلا أن تطليعني.. وسأرشدك للصواب.

مالت رأسي بحركة متعبة لأحد الجانبين وقلت بضعف:

- وكيف أثق بك؟ وأنا لم أر وجهك قط!.

وأضافت:

- تبدو كالهاربين وأنت تخفي نفسك هكذا!.

مدت يدي لوجهه بحذر وبطء ناتج عن ضعفي، وقبل أن أقبض على غطاء رأسه وقائعه، قبض هو بكفه البارد على معصمي... فارتجمت من برودته وقلت:

- مادا؟! هل أنت دميم الوجه متى؟.

هز رأسه نفياً وهو يترك معصمي ببطء، فقلت باستنكار:

- لا تقلق وأرني وجهك.. لن أحكم عليك.. واثقة أنك لن تكون أكثر قبحاً مني!.

ضحك باستخفاف لما أقول، وأضاف بلهجة تحذيرية:

- ربما ستحبين إرضاء فضولك بطرق أخرى!.

هززت كتفي بلا مبالاة.. ثم همست:

- كم باقي على وجودي هنا؟.

أخرج شيئاً ما من جيب ردائه ووضعه على الأرض، لأجد أنها ساعة رملية صغيرة، فشهقت وحملتها بين يدي بحذر قائلة بدهشة:

- كم هي غريبة! مثلك!.

رفع يدي بالساعة لتكن أمام عيني وذقته الخفية، وقال بهدوء:

- حين تختفي الرمال من هنا.

وأشار للجزء العلوي للساعة ثم استطرد:

- سنخرج...

قالها ثم أعاد الساعة إلى جيبي فأخفضت أنا يدي الخاوية وتنهدت. أشعر بالضعف في دقات قلبي.. كم هي بطيئة.. كلساني حين أتحدى! نظرت لما حولي وسألته:

- كيف سأتعامل مع الخادمة.. أو مع تلك المرأة السخيفة التي سكبت الماء
بوجهي.. أعني.. كيف سيتصرفون مع عدم تنظيفي للزنارين؟.

استند ظافر على الحائط بجانبه وقال بهدوء:

- سيوّبخونك بمنتهى الروتينية.. ثم ينقلونك لغرفة أخرى، أكثر أدمية..
ويعطونك شيئاً لتأكليه...

رفعت حاجبي بتعجب لما يقول، فأطلقت معدتي صوتاً مألاًوفاً.. أنا جائعة!

ضحك ظافر وقال بصوته العميق:

- لا تقلقي سيحرصون على إيقاثك بكامل صحتك...

ضحكت فجاءت ضحكتي بطيئة.. مضناة للغاية.. وقلت باستهزاء:

- نعم أعلم.. كالفيتات في المطبخ.. يعملن ويعملن بلا توقف!

اختفت بسمة شفاهي واستعدت تركيزي قليلاً وقلت متسائلة:

- كيف أخفيت البصل الذي قمت بقطعيه؟.

رفع كلتا يديه أمام عيني وقال ببرود:

- أعتقد أنك لاحظت أنني... مشعوذ...

وقال آخر كلمة بطريقة ذات مغزى، فضحكـتـ وـحـكـتـ رـأـسـيـ قـائـلـةـ بـغـيـظـ:

- نعم نعم بالطبع! تعبـرـ منـ بـيـنـ الفـيـتـاتـ وـكـأـنـكـ ظـلـ، تـسـبـحـ فيـ الـهـوـاءـ بـبـرـاعـةـ،
تـفـرـقـ إـصـبـعـيـكـ لـتـأـخـذـ بـصـرـيـ وـطـاقـتـيـ.. اـمـمـمـ.. مـاـذـاـ بـعـدـ؟ـ.

سمعت صوت ضحكتـهـ المـتـسـلـيـةـ.. وـفـجـأـةـ نـهـضـ مـنـ مـكـانـهـ، بـمـنـتـهـيـ الـاـتـرـانـ،
وـسـاعـدـنـيـ عـلـىـ الـوـقـوفـ بـيـدـيـهـ الـبـارـدـيـنـ، فـهـمـسـتـ بـرـيـبـةـ:

- ما الأـمـرـ؟ـ.

سمعت صوت جلبة بالخارج، فقال:

- قومي بسكب القليل من الماء على الأرض وعلى ملابسك، ومثلي القيام بعملك.

أومأت برأسِي وبسرعة قمت بتنفيذ ما قال، ليس ثقة به، بل لخوفي من العواقب! وبينما أمسك بقطعة القماش الكتانية المتشبعة من الماء وألوح بها على الأرض بعشوائية أحول الغبار إلى بقع طينية عشوائية، وفجأة، فُتح الباب الخارجي بضجة كبيرة، فانتفضت ونظرت خلف كتفي الأيسر لأجد السيدة القرنفالية قد أتت بصحبة خادمة ما، وحين وقعت عيناهَا على شهقت وصاحت بصوتها المزعج:

- ألم تنتهِ بعد! ما هذا الاستهتار!.

اقتربت مني بفيفظ فأطربت أنا وجهي مرغمة.. وقبل أن أتساءل بداخلِي عن ما يفعله جسدي الخائن، وجدت صوت ظافر يقول:

- تصنعي الضعف أكثر.. كوني واهنة لتلك الدقائق فقط!.

- حسناً.

قلتها بين طيّات عقلي بعد أن أدركت أنه يتحكم بحركات جسدي.. ورفعت صوتي ليصل لتلك السيدة:

- آسفة.. بذلت قصارى جهدي، لكن....

قاطعتني بكلمة واحدة:

- انهضي!.

بذلت المجهود لأقوم، وكان هذا وفقاً لخطط ظافر.. وحين وقفت معتدلة، اقتربت مني وجدت شعراتي القصيرة بيدها للأعلى، فتأوهت ورفعت رأسي.. لأجدها تنظر إلى بغرابة وهمست بـ:

- كيف تكونين هكذا ووجهك...

تركت باقي الجملة دون أن تكملها وأسبلت أهدابي، لقد عرفت معنى ما أرادت قوله. قطعت الخادمة لحظة الصمت قبل أن تبدأ قائمة بقليل من الهمس في أذن المرأة:

- سيدة جليندا يمكنني إصلاح الأمر، لن يأخذ إلا دقائق فقط.

نظرت السيدة جليندا تلك للخادمة وأوامت بصمت، فاقتربت الخادمة وعبرت بجانبي، مخترقه جسد ظافر -غير المرئي بالنسبة لها- حتى وصلت للزنزانة التي كنت سأبدأ بها، أخذت المنفحة وبدأت بالضرب على الفراش بقوّة لا تتناسب وجهها الهادئ وجسدها الضئيل، عدت أنا ببصري لجلinda القرنفلية وابتسمت بضعف.. قالت:

- اتبعيني....

وتحركت للخارج، فتحرّكت خلفها بمنتهى الطاعة.. حتى وصلنا للرواق الذي دخلنا منه، ولاحظت أن بمجرد عودة لوحدة الرجل ذي الشارب للجدار مرّة أخرى، عادت الشمعة الأولى لتشعل نفسها! واحتفى الممرّ الذي عبرنا منه للتو!

- اذهبي للاستحمام ليعود النشاط لجسدي...

وأضافت متذكرة:

- آه قبل أن أنسى.. أخبرتني الماشطة بأن الخياطين انتهوا من فستانك الجديد.. الهزيل مثلك...

هزّت رأسي بحماس لم أظهره.. فأنا حقاً أريد إزالة رائحة البصل هذه عنِي، وارتداء ما يناسبني...

- لكن أسرعِي، ثمّة ضيوف آتوناليوم، لا نريد الاشتباك معهم، أفهمت؟.

- نعم سيدة جليندا.

أتفيرت معاملتها لي قليلاً أم أتمني أتوهم؟ صوتها أصبحت نبرته خفيفة، لا تلك النبرة المزعجة! ونظراتها أيضاً، فلم تنظر لي بعينيها الكحيلتين الجاحظتين بقسوة كما كانت تنظر لي في بادئ الأمر. أظنهما اقتنعت بكوني هزيلة فرأت بحالٍ؟!

انصرفت جليندا للتتركتني أنا وظافر وحدنا في الممر، فنظرت له وقبل أن أطلب طلبي وجدته يطرق جبهتي بإصبعيه الإبهام والسبابة؛ وعادت طاقتى إلى! فنتهدت براحة، وحين وجدته يرفع يده في الهواء استوقفته قائلة:

- ظافر لم لا نذهب سيراً؟ أريد معرفة الطريق، ألن أعيش هنا للأبد؟.

أخفض ظافر يديه وقال بغموض:

- كما تريدين...

تقدمني بخطواته الواسعة، رأيته يعبر منتصف الرواق في خطوات بسيطة! فركضت إليه وصحت بهمس:

- انتظرني! لا أريد أن أضل الطريق في هذا المكان الواسع...

اتسعت خطواتي حتى واءمت خطواته، فابتسمت بفخر، ولم أدرك أنه هو من أبطأ خطواته من أجلي! أشرت إلى قدمي وأنا أمشي وقلت بأنفاسٍ لاهثة من مجده المشي السريع:

- لم لا تلقي على تعويذة لاتحرك بسرعة.. أو ليزيد طول ساقي بعض السنتمترات؟! سيساعدني هذا كثيراً.. سأصبح سريعة الحركة مثلك!.

نظر إلى ثم أعاد بصره للأمام، لينعطف من عند المطبخ لنسير في الرواق العظيم، أول رواق عرفته.. ثم قال بعمق صوته المعهود:

- لن تحبي أن تكسر قواعد القصر باستخدام السحر المبالغ فيه.. العوائق ستكون وخيمة....

ركضت إليه لأنتشبـث في ذراعـه كالـأطفال وقلـت:

- اجعلـني أطـول أربعـة سـنتـيمـترـات فـقطـ من فـضـلـكـ!ـ

توقفـ وـقـالـ وهوـ يـنـفـضـ ذـرـاعـهـ القـوـيـةـ منـ يـدـيـ:

- طـولـكـ منـاسـبـ، كـفـىـ تـذـمـرـاـ.. وـاقـلـقـيـ منـ أـجـلـ وـجـهـكـ فـقطـ!ـ

ضـحـكتـ مـسـتـهـزـئـةـ وـقـلـتـ بـتـهـكـمـ:

- يـبـدوـ أـنـاـ مـتـشـابـهـاـنـ فيـ هـذـاـ الـأـمـرـ، فـكـفـىـ سـخـرـيـةـ عـلـىـ شـيـءـ لـيـسـ لـنـاـ دـخـلـ

.ـبـهـكـمـ.

هـزـ كـتـفـيـهـ بـلـ اـهـتـمـامـ وـسـارـ أـمـامـيـ، لـأـرـىـ أـنـاـ عـرـضـ كـتـفـيـهـ وـبـنـيـتـهـ القـوـيـةـ فـزـفـرـتـ
بـضـيقـ وـتـسـاءـلـتـ.. هـلـ يـمـكـنـيـ تـغـيـرـ حـارـسـيـ؟ـ هـلـ يـمـكـنـيـ أـنـ أـحـصـلـ عـلـىـ شـخـصـ
مـاـ أـرـىـ وـجـهـهـ؟ـ يـحـدـثـيـ وـبـطـمـئـنـيـ حـيـنـ يـخـفـقـ قـلـبـيـ بـإـجـفـالـ..ـ أـوـ يـخـبـرـنـيـ بـأـسـرـارـ
تـلـكـ الـقـلـعـةـ حـيـنـ أـرـيدـ إـرـضـاءـ فـضـلـيـ اللـعـنـ؟ـ

نـكـسـتـ رـأـسـيـ بـضـيقـ، لـكـ سـرـعـانـ مـاـ رـفـعـتـهـ حـيـنـ تـوـقـفـ ظـافـرـ وـاـصـطـدـمـتـ
بـجـسـدـهـ، اـبـتـعـدـتـ عـنـهـ لـأـجـدـهـ يـنـظـرـ لـبـابـ الـقـلـعـةـ..ـ الـذـيـ دـلـفـنـاـ مـنـهـ أـوـلـ مـرـةـ وـأـنـاـ
ضـعـيـفـةـ.ـ أـرـاهـنـ عـلـىـ أـنـ عـيـنـيـهـ الرـمـادـيـتـيـنـ مـتـسـعـتـانـ عـلـىـ آخـرـهـمـاـ، فـمـنـ تـوـقـفـهـ
الـمـفـاجـئـ هـذـاـ عـلـمـتـ بـأـنـهـ مـهـمـ بـمـاـ يـرـىـ!

نـظـرـتـ لـبـابـ الـقـلـعـةـ لـأـجـدـ حـارـسـيـ الـبـابـ يـقـفـانـ عـلـىـ الـيـمـينـ وـعـلـىـ الـيـسـارـ،
مـفـسـحـينـ الـطـرـيـقـ لـمـنـ يـعـرـوـنـ، لـكـ...ـ مـنـ هـمـ؟ـ

هـيـئـتـهـمـ غـرـيـبـةـ..ـ رـأـيـتـ ثـلـاثـةـ مـنـهـمـ، يـغـطـّونـ رـؤـوسـهـمـ وـأـجـسـادـهـمـ الـمـهـبـةـ بـعـبـاءـ
سـوـدـاءـ وـاسـعـةـ لـوـنـهـاـ بـاهـتـ وـضـبـابـيـ.ـ أـخـفـضـتـ بـصـرـيـ لـأـرـىـ أـطـرـافـ الـعـبـاءـ تـرـفـرـفـ
وـهـمـ بـلـأـقـدـامـ!ـ كـالـأـشـبـاحـ!ـ يـطـوـفـونـ فيـ الـهـوـاءـ!ـ يـتـحـرـّكـونـ لـلـأـمـامـ بـمـنـتـهـيـ الـبـطـءـ..ـ
لـاحـظـتـ أـنـ عـبـاءـهـمـ تـلـكـ سـوـدـاءـ شـفـافـةـ قـلـيـلاـ، تـرـيـنـيـ مـنـ خـلـالـهـاـ ضـوءـ مـصـابـحـ

أحد الحرّاس خارج القلعة.. شهقت بمفاجأة حين رأيت ما يمسكون.. كنّ فتيات..
بشعرٍ طويل، يغطيهن قماش رثٌ للغاية يظهر أجسادهن العارية، يغفهن التراب،
ويتساقط منهاهن بقايا الأرض من حصى ورمال... وطين!

وضعت يدي على قلبي الذي تباطأ دقاته بشكلٍ ملحوظ، وبت أشجد الهواء
بصعوبة وعيناي لا تقدّران على النظر لأي شيء غير هؤلاء! اقتربوا ليعبروا
بجانبي، فوجدت ظافرًا يلتفت لهم ويلقي تحية عسكرية شامخة.. لم ألبث أنا حتى
عدت ببصري إليهم، لأرى واحداً منهم يلتفت لي بكمال رأسه كالبومة، يرفع رأسه
للاعلى قليلاً ببطء.. ومدّ يده ليرفع غطاء رأسه، حتى ظهرت عيناه، تلمعان بلونِ
أبيض أخاذ، وكأنه ضوء الشمس الذي افتقده! سرت رعشة غريبة في جسدي
بمجرد تلاقي عيني بعينيه، فشهقت آخر أنفاسي بصعوبة حتى شعرت بالهواء
ينقطع عن رئتي..

أعتقد أن دوي صوت تحشرج أنفاسي قد وصل له، فأعاد غطاء رأسه ونظر
للأمام بانضباط كما كان! مددت يديّ أحاول التمسّك بأي شيء وكان ذراع ظافر،
لكته لم يمنعني من التماسك، ولم يمنع فقدي للوعي!

لم أدرِ ما الذي حدث.. وكيف حدث... لكنّني أدركت لاحقاً أن ما رأيت.. كان
قابض أرواح..

استيقظت في غرفتي المضاء بالشعلة الصفراء الضئيلة، شهقت أنفاسي
بجشع، لأرى جليندا مقتربة مني بوجهها تمسح على شعرِي القصير، تنظر لي
بدهشة، وغير تصديق فسألتها:

- ماذا حدث لي؟

وأضفت بخوف:

— لم تتعلمين إلى هكذا؟.

لم تجب، فهمست اسمها برجاء، دقّات قلبي واهنة للغاية.. لن تحتمل الإلحاد
وقلة الصبر.. فليجنبني أحد!

وبينما صوت أنفاسي اللاهثة هو الصوت الوحيد القاطع للصمت، أخذت
جليندا شيئاً ما على المنضدة، وقربته إلى.. كانت مرأة، لها إطار ومقبض نحاسي
مزخرف بطريقة فريدة من نوعها، أخذتها منها بحذر، ونظرت فيها، وقد ازدادت
دقّات قلبي من حماس ما أقدم عليه..

ضاقت المسافة بين حاجبي اللذين امتد طولهما وكثافتهما بطريقة مثالية؛
نظرت لآثار البثور المقرّزة التي تحولت إلى نمش جميل على أنفي الدقيق وعلى
بشرتي الجديدة الناعمة.. وشفتاي.. أصبحتا ممتلئتين كالكرز، يلمعان من
رقطهما.. أمّا عيناي.. فأصبحا بلون العسل الصافي والأسود هو لون شعري، أصبح
لونه فاحمّا بطريقة مثالية ووصل طوله لبعد كتفي بقليل.. لقد استحال كل شيء..
لقد تبدل هيئتي!

ابتلعت غصّة في حلقي وأسبلت أهدابي الطويلة الكثيفة عند أطراف عيني،
أغلقهما وأفتحهما بغير تصديق لما أرى... فما أرى هي أنا.. إيلونورا.. فتاة رقيقة
وجميلة! ذات جسد أنشوي جميل.. وجديد!

فقدت وعيي كدميّة، وهذا أنا أستيقظ كالجميلة النائمة.. لا.. بل أميرة!
تركت المرأة من يدي بصدمة فتهشمّت لقطع صغيرة.. لم تعبأ جليندا لما
حدث، فقط ضمّت قبضة يدها اليمنى وأسندتها إلى صدرها، واضعة قبضتها
اليسرى خلف ظهرها.. ونهضت من على فراشي.. وانحنت إلى.. مطأطئة رأسها
إلى الأرض الباردة، لتقول بمنتهى الهدوء والريبة:

- هل لي أن أشرف باسم مولاتي؟.

زادت دقات قلبي، ونظرت حولي لأجد ظافراً يقف بآخر الغرفة، ينظر لي بثبات وهدوء، فنظرت أنا لجليندا المنحنية لي بمنتهى الخنوع.. وقلت بصوتي الذي أدركت فقط أن نبرته تذيب القلوب:

- إليونورا.. هو اسمي!.



عصير الكتب للنشر والتوزيع

{٦}

– جَالِيْ فَرَضَ الْمَدْفَعَ =

– إِلِيُونُورَا.. هُو اسْمِي!.

نظرت لِي جَلِينْدَا مِبْتَسِمَة بَارْتِبَاك.. وَقَالَتْ:

– يَا لَهِ مِنْ اسْمٍ جَمِيلٌ! كَيْفَ لَمْ أَسْأَلُكَ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ؟.

أَشْحَتْ أَنَا بِيَصْرِي عَنْهَا.. لَظَافِر.. أَنْظَرَ لَهِ بِتَسْأُلٍ، وَلَمْ تَأْتِي مِنْهُ أَيْ رَدَّةٍ فَعَلَ، فَأَمْسَكَتْ بِمَعْدِتِي الَّتِي حَرَقْتِي فَجَأَةً مِنَ الْجُوعِ، مَصْدِرَةً صَوْتًا سَمِعَهُ رَفِيقِيَّاً بِالْفَرْفَةِ، لَأَجَدْ جَلِينْدَا تَهْتَفُ بِهِمْسٍ:

– يَا إِلَهِي مَاذَا أَفْعَلُ!.

نظرت لَهَا بِتَسْأُلٍ فَقَالَتْ:

– الطَّعَامُ جَاهِزٌ لَكَنِ.. لَكَنِ.. لَا يَلِيقُ بِكِ عَزِيزِتِي!.

– عَزِيزِتِكِ؟.

قَلْتَهَا أَنَا هَمْسًا بِغَيْرِ تَصْدِيقٍ.. وَأَنَا الَّتِي كُنْتُ أَشْكُ فِي تَغْيِيرِ مَعْالَمَةِ جَلِينْدَا لِي! الْآنَ هِيَ غَيْرُ مَعْقُولَةٌ! أَمْنَ تَغْيِيرِ شَكْلِيْ فَقْطَ تَغْيِيرِ مَعْالَمَتِهَا لِي؟ غَرِيبٌ! وَكَيْفَ يَلِيقُ الطَّعَامُ بِمَنْ يَأْكُلُهُ؟.

قَلْتَهَا بِاسْتِكَارٍ، مَعْدِتِي تَؤْلِنِي سَأَكُلُ أَيْ شَيْءٍ! لَا يَهْمِنِي مَاهِيَّةِ الطَّعَامِ..

- فقط هاتيه!.

قلتها بغير تصديق لتصدق هي بكلتا يديها بتوجّس، لتدخل خادمة بعد طرفيتين خفيفتين على الباب، ممسكة بصينية مستديرة بسيطة، لا أرى ما عليها بسبب ذلك الغطاء الداكن عليه.. فاعتدلت في جلستي لتقرّب جليندا المنضدة ببطء إلى، رغم ثقلها.. استقمت بظهرى الرشيق وجلست القرصاء على طرف الفراش واستندت بمرفقى للمنضدة ونظرت للصينية مرة أخرى بترقب، وضعت الخادمة الصينية أمامي وكشفت عن محتواها لتبتسم المشرفة بإحراج؛ فالموضوع أمامي هو رغيف خبز بائت، قطعة صغيرة من الجبن الأبيض داكن اللون بفطاعة، حبات من البازلاء تعد على أصابع يدي ونقطات من سائل لزج.. زيت.. وذرات من الملح؛ لا أتذكر نوع الطعام الذي كنت معتادة على تناوله.. لكن.. من الواضح أن هذا الطعام لم يعجبني.. قط!

امتعن لون وجه جليندا من تعبيرات وجهي الغريبة، وقالت بحرج:

- آسفة آنستي.. كل شيء سيتغير.. سيعتم نقلك لطابق العرائش.. وسيكون لديكِ فراش أكثر راحة، وبالطبع طعامٌ شهيٌ!.

قالتها ثم أمرت الخادمة بإحضار طعام آخر لأكله.. نظرت أنا لها بغرابة وتساءلت:

- أفلتِ عرائش؟.

ابتسمت مشجعة وقالت بدهشة:

- بالطبع! أنتِ منهُنَّ الآن!.

أشرت لهيئتي وقلت مستتركة:

- فقط لأنّي أصبحت جميلة؟ فقط لهذا؟

ضمّت جليندا كلّتا يديها بارتباك وهزّت رأسها قائلة:

- بالإضافة لأشياء أخرى.. ليست بالقدر الكافي كالجمال بالطبع!.

ضممت شفتيّ بغيظ وقبل أن أسأل عن أي شيء آخر استأذنت جليندا، مع إخباري بأن الطعام البديل سيحضر فوراً.. وبالفعل، بمجرد فتحها للباب استقبلت عربة خشبية صغيرة من طلابين، وضع عليهما كافة أنواع الطعام، وهذا ما عرفته دون كشف الغطاء، فهذه المرة مختلفة بالطبع!

ابسم الله الرحمن الرحيم
ابسم الخادمة التي أرها لأول مرة دون أن ترفع وجهها لي وهي تقول أن الطابق العلوي يعد في تلك اللحظة.. وأنه بمجرد تناول الطعام والنوم قليلاً سيكون لي مكان هناك.. وضعت الطعام أمامي على المنضدة بمنتهى الحذر؛ الطعام فاخر بحق! لا يتماشى مع كأبة الغرفة المظلمة الداكنة.. ولا يليق مع كل الهموم التي تسبح بعقولي. يليق بجمال وجهي.. فقط..

أصبحت وحيدة، إلا من ظافر.. فبلغتهم للباب انهمك في كشف باقي الطعام
أمامي، ومع تناولي لأول قضمـة سـكـن كل شيء؛ صـوت مـعـدـتي، طـنين الـهـواـجـسـ
بعـقـليـ، دـقـاتـ قـلـبـيـ.. وصـوتـ الـهـوـاءـ الـبـارـدـ المـزـعـجـ بـالـنـسـبـةـ لـيـ. بـالـقـضـمـةـ الثـانـيـةـ
شـعـرـتـ بـالـأـنـتـشـاءـ وـابـتـسـمـتـ بـيـنـ القـضـمـةـ الـخـامـسـةـ وـالـسـادـسـةـ لـجـمـالـيـ الـذـيـ منـحـنـيـ
اخـتـيـارـاـ أـفـضـلـ، وـالـذـيـ سـيـمـنـحـنـيـ الـكـثـيرـ وـالـكـثـيرـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ بـالـطـبـعـ.. وـبـتـاـولـيـ
الـقـضـمـةـ الـأـخـيـرـةـ تـنـهـيـتـ وـأـمـسـكـتـ بـطـيـقـ الـحـلـوـيـ..

لاحظت أنتي وحيدة.. بالرغم من وجود شخص معي بنفس الغرفة الضيقة..
رفعت وجهي إليه، ذلك الطيف الأسود.. الذي يرتدي ملابس شبيهة بتلك التي
يرتدونها قابضو الأرواح... وقلت رافعة صوتي قليلاً ليسمعني..

- أنت مریب.. تحدّث إلی.. فسّر لی کیف حدث هذا؟!

وأشرت إلى وجهي الجميل ولم أجد أي رد فعل منه! تعجبت وناديته باسمه،
لأقابيل نفس الصمت المطبق.

زفرت بضيق، وتركت طبق الحلوى من يدي، فأنا لا أريده أصلًا لقد امتلأت معدتي! صببت بعضاً من الماء النظيف الذي وضعوه بجانب الطعام وأوصلته لمعدتي سلام، ثم قمت بحذر لذلك المدعو ظافر..

خطوات قليلة وأصبحت بالقرب منه.. لكنه لم يتحرك إنشاً واحداً حتى. تتحنحت وأنا أطالع عتمة غطاء الرأس على وجهه.. وما هي إلا بضع ثوانٍ ولا ماست ذلك الغطاء، بداعف الفضول.. وبداعف آخر، أريده أن يمنعني، لأعرف بأنه هنا!

أصبحت واقفة على أطراف أصابع قدميّ لأناسب طوله الفارع، كما أصبحت كلتا يدي على طرفيّ غطاء رأسه.. وهمست أمام وجهه بمراؤغة:

- هل أكشف حقيقتك أيها الخفي؟!

شعرت وكأنني أتحدث لرداة الفارغ ولأنفاسه الخفيفة التي تخرج ممتزجة بعطره الهدائى. ابتسمت بخبث وأرجعت غطاء رأسه للخلف قليلاً، فأفلتت مني ضحكة متحمّسة بينما ظهر لي لون عينيه، وبت متشوّقة أكثر لرؤيه هذا الوجه المخبأ عن الأعين عمداً! وبينما أركز أنا يديّ المرتعشتين للوصول لطرف القناع الأسود بحركة حذرة وبطيئة، تفاجأت بكلتا يديه يقبضان على معصم يديّ بحركة مباغطة منه! فتأوهت بخفوت وإجفال بينما هبطت من على أصابع قدميّ! اقترب بوجهه مني وأخذ يلهمت بغضب فتقابلت عيناه الرماديّتان بشحوب بعيني الناضرتين مؤخراً، خرجت مني عبارة أسف واحدة -رغم أنني لا أعنّيها- فخرجت كلماته مختربة لخلايا جسدي بقسوة:

- لا شأن لك إلا بوجهك!.

تململت بين يديه فتركتني بإهمال مفاجئ لاقع أنا على الأرض. دقّ قلبي بسرعة واعتدلت لأقف متغاضية عن ألم الصدمة ثم انطلقت صارخة به:

- أتعلم؟ أنت عديم الإحساس!.

جلس على المقعد المستند للحائط متوجهاً ما قلته، فأضفت وكأنني لا أهتم :

- كنت أريد معرفة ما بك ليس أكثر..

ورغم أن ما قلته يسمى «اهتمام».. لكن لا بأس.. هو حارسي واعتدت كلماته الباردة، فلم الصمت؟

- ما يحدث لي الآن بسبب غلطة تافهة...

أزلت المنضدة بعيداً بصعوبة، بينما سأله:

- وما هي؟.

أرجع رأسه لظهر المقعد والحائط الداكن وأطلق نبرة صوت هادئة، تلائم ارتعاش الشعلة بخفة بسبب هبوب الرياح بالخارج:

- كوني لم أمنعك من الحصول على نظرة من قابض الأرواح، جعلهم يسلبوا قوّتي لساعات معدودة لهذا...

رفعت رأسه إليه بغرابة بينما أجلس على الفراش الذي لن يكون لي بعد اليوم وتساءلت بدهشة عظمى:

- تلك النظرة المريمية! والتي جعلتني أفقد وعيي؟!.

هزَ رأسه بصمت فقلت وأنا مشدودة بما حدث:

- إذاً هذا بمثابة عقاب لك.. لكن.. ظافر.. هل كنت نائماً؟ أشاء وقوفك بجانب القضبان الحديدية؟.

- نعم.

قالها لتساءل أنا:

- وهل ينام الحرّاس؟.

رِّبِّ يَدِيهِ وَقَالَ:

- فَقْطَ إِنْ سَلَبُوهُمْ قَوْتَهُمْ كَ.. عَقَابٌ!

قَالَ آخَرْ كَلْمَةً بِسَخْرِيَّةٍ مِّنَ الْحَالِ.. فَزَمِّمَتْ أَنَا شَفْتِيَ الْمَكْتَنْزَتِينَ وَقَلَّتْ بِشَرُودَ:

- لَقَدْ كَانَتْ تَلْكَ النَّظَرَةُ مُخِيفَةٌ فَعَلَّا... .

- لَكِنَّهَا أَنْتَ بِمَفْعُولِهَا الْمَطْلُوبُ...

قَالَهَا ظَافِرُ بِثَقَةٍ، فَسَرَّتْ قَشْعَرِيرَةٌ فِي جَسْدِي وَنَظَرَتْ لِهِ مُشِيرَةً إِلَى وَجْهِي
بِاسْتِفَهَامٍ فَهَرَّ رَأْسَهُ! مَاذَا يَقْصِدُ!

- أَتَعْنِي.. وَجْهِي.. وَجَسْدِي.. هَذَا التَّغْيِيرُ الشَّامِلُ بِسَبِّبِ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ.. نَظَرَةٍ
قَابِضَ الْأَرْوَاحَ؟.

هَرَّ رَأْسَهُ بِفَخْرٍ فَأَطْلَقَتْ ضَحْكَةً غَيْرَ وَاعِيَّةً.. شَارِدَةً.. وَتَسَاءَلَتْ بِشَرُودَ:

- لَكِنْ كَيْفُ.. وَقَابِضُ الْأَرْوَاحِ نَذِيرٌ شَوْئِ؟.

وَقَفَ ظَافِرُ فَارِدًا فَأَمَتْهُ الْمَهِيَّةُ وَقَالَ بِثَقَةٍ:

- نَظَرَةٌ قَابِضَ الْأَرْوَاحِ تَعْكِسُ طَبِيعَةَ الْفَتَاهُ؛ إِنْ كَانَتْ حَيَّةً تَمُوتُ.. وَإِنْ كَانَتْ
مَيَّةً.....

تَابَعَتْهُ يَتَحَرَّكُ فِي الغَرْفَةِ بِشَرُودٍ بَيْنَمَا يَكْمِلُ:

- جَمِيلَةُ كَانَتْ أَوْ قَبِيْحَة.. يَحِيلُ حَالَتِهَا لِلْعَكْسِ تَعَامِلًا.. وَهَذَا مَا حَدَثَ مَعِيِّ..
مَا أَرْدَتْ حَدُوثَهُ بِالضَّبْطِ....

شَهَقَتْ بِصَدْمَةٍ وَقَلَّتْ بِصَدْقَ:

- أَسَامِحُك.. لَكِنْ إِنْ جَعَلْتَهُ يَنْظَرُ إِلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى، سَتَكُونُ الْعَوْاقِبَ وَخِيمَةً!

ضَحَّكَ بِهَدْوَهُ ثُمَّ قَالَ بِثَقَةٍ مُشِيرًا إِلَى عَقْلِهِ:

- كل شيء حسب الخطة، لذا لا تقلي. .
- أي خطّة؟.

قلتها حين عاد إلى المقهى، فأجابني بشروط متطلّع: .
- خطّة الوصول للأمير؛ خطّة الارقاء بكِ من مجرد عروس جميلة لأميرة،
لها مكانة بقلب الأمير.. وأيضاً بالقلعة وبالعالم الآخر أجمع!.

رفعت حاجبي متعجبة.. وقلت بغير تصديق:
- إذاً هذا هو الهدف الذي سأحيى من أجله هنا؟.

نظر لي وقال بتهكم: .
- وهل هناك أسمى من ذلك بالنسبة لفتاة لا يميّزها شيء غير وجهها؟
والذي تغيّرت ملامحه من القبح للجمال دون ثمن؟.
- ثمن؟.

رددتها فتجاهل هو ما قلته وأكمل بغير تصديق:
- يجب أن تكوني ممتنّة لكون تلك الفرصة أتت إليكِ مع حارس بارع مثلي..
فمعي ستكونين المرأة الأعلى شأنًا هنا!.

لم أجبه، بل غرقت في أفكارٍ وبدون إدراك مني اقترب ليقف أمامي، وهمس بتشجيع:

- هل تريدين هذا؟.

رفعت وجهي إليه وهمست ببقياها شرودي:
- هل سأبتعد عن التنظيف والطهي وأفعال الخادمات.. ويأتون لي بما أريد..
هل سأرتاح؟.

ولا أعلم كيف خرجت تلك الكلمات مني، ليس لأنني تذكرت أي شيء عن حياتي السابقة أو لأنني أريد السلطة.. بل لشيء أحجهله!

أتى صوته بنفس الهمس المثير:

- أجل.. سترتاحين للأبد.

أزلت الشroud عنِي بمسحة على وجهي، وهزّزت رأسي له وعيني معلقتان بظلمة وجهه، وقلت بوعي:

- إِذَا أَرِيدُ هَذَا.. فَهُوَ يَسْتَحْقُ!

انحنى ليكون في مستوى رأسي، وسألني بهدوء:

- حتى ولو كان الثمن قلبك؟.

وضعت يدي على قلبي وقلت متقاجئة:

- هل سِيَأْخُذُونِهِ؟.

هزّ رأسه وقال بنبرة صوته العميق:

- سينبض بداخلك.. لكن لن يكون لك...

وأكمل بنفس النبرة:

- سيكون ملك الأمير.. وستكونين أنتِ مجرّد وصي لما يمتلك!

ارتخت يدي على قلبي وهمست بضعف:

- أقصد.. أن أحبه؟.

أومأ ظافر فقلت وأنا لا أعلم ما سيجلب هذا لي من عواقب:

- حسناً! أواقف.. إن كان سيعطيني حياة مثالية...

واستطردت:

- وسأسمع لما تقول.. سأقبل مساعدتك دون عناد.

ربّت على رأسي بهدوء بينما استقام واقفاً وقال:

- اتفقنا.. والآن.. استلقي واحصل على قليل من النوم فأمامك يوم طويل.

استلقيت وأخذت منه عباءته -التي ناولني إياها- لأتدثر بها.. وهمس بغيظ:

- أغمضي جفونك وحدك.. حتى أستعيد أنا طاقتني.

هزّت رأسي بطاعة وأغمضت جفوني ولكن قبل أن أستسلم للنوم سأله

ببراءة:

- متى ستشرق الشمس؟.

سمعت صوته يجيبني بغير تصديق:

- الشمس؟ كيف تذكرين وجودها يا فتاة؟.

فتحت جفوني بغير وعي ونظرت له بتساؤل.. لأجده قد استدار إلى بهدوء..

وقال بعمق:

- الشمس تعني الدفء والضوء، ولا يوجد في قاموس العالم الآخر كلمة

شمس.. لا يوجد إلا ضوء القمر.. ودفء النار.. أتفهمين؟.

أسللت أهدابي وفتحتها أكثر من مرّة بغير تصديق، لأسمعه ينتهد قائلاً:

- لا داعي لذكر تلك الكلمة مرّة أخرى.. فقط تأقلمي.

فتح ذراعيه وكأنه يشير على ما حوله قائلاً بنبرة غريبة:

- وإن كنت تكرهين الظلام رؤضي قلبك ليحبه.. كما ستحبّين الأمير مرغمة!.

لم أفهم قصده في البداية لكنني نويت أن أعتاد على الظلام، فرغم كوني لا

أرتاح إلا لدفء الشمس المعتدلة تساءلت.. هل اختياري صائب؟ وتساءلت مرة

أخرى.. هل هو اختيار من الأساس؟!

بعد وقت أجهله قضيته نائمة، أراد جسدي الحركة في الفراش، فنوبت على تنفيذ رغبته لكنني لاحظت شيئاً يعيق حركتي؛ شيء يجعلني أنام على جزء صغير فقط مما يجعل فرصة وقوعي على الأرض ممكناً. فتحت جفنيّ بانزعاج من هذا الأمر، لأجد جسداً ساكناً بالقرب مني ويقاد يكون ملتصقاً بي؛ هادئ وساكن.. وحين اتضحت الرؤية..

- ظافر!

صرخت بدهشة وتململت أنوي القيام! إلا أن حركتي المباغطة جعلتني أقترب من أن أهوي من فوق الفراش فأغمضت أنا عينيّ باستسلام للوقوع، لكن توقف جسدي في نصف المسافة فقط!

ضيّقت المسافة بين حاجبي بينما أفتح عينيّ ببطء متزّقّب، لأدرك أخيراً أن ظافراً قد مد ذراعه ليلتقطني قبل أن أقع أرضاً.. وتأكدّاً لاستنتاجي جذبني إليه لأرتطم بجذعه القوي.. ضامة كلتا يدي إلى صدري بذعر، بينما عيني معلقتان بضباب عينيه!



{٧}

– مَكَانِي الْجَدِيد –

قبل أن تستظم دقات قلبي اعتدلت في وضع الجلوس، وصحت به:

– كيف تجرؤ؟! كيف تناول على فراشي وتلتصق بي هكذا.

و قبل أن أصل لآخر كلماتي كان هو قد رفع إبهامه إلى فمي ليطبع شيئاً وهمياً جعل شفتي تلتصقان بعضهما البعض؛ غير قادرين على الكلام؛ لأجد ظافراً يعتدل واقتاً يقول بزهو:

– عظيم.. عادت إلى قوّتي!.

صرخت به فملأت صرخاتي الغرفة، ممتزجة بحروف كثيرة كلها من الـ «م»
محاولة مني بالحديث لتوبيخه على فعلته، وبينما هو يضحك كنت أصبح أنا بين طيّات عقله:

– أيها المتعجرف! كفّ عن هذا العبث فوراً!.

سمعنا صوت طرقات خفيفة على الباب، فاعتدلت في جلستي وأشرت على شفتي بعنف بينما أتعلّم إلى ذلك الحارس – المتفاخر بقواه – بنظرات نارية، فاقرب مني ممسكاً بذقني الناعمة مقارنة بملمس أنامله القوية، ومسح على شفتي الكرزيتين بإبهامه، ليزول ما كان يمنعني من الحديث، وقلت بعد أن شهقت أنفاسي براحة:

– تفضل بالدخول.

أبعدت نظراتي عنه وكأني لا أراه، لأنصرف بطبيعة أمام جليندا التي عبرت الباب بمنتهى البساطة ودلفت لغرفتي المتواضعة. انحنت برأسها ثم استقامت ببطء فسمعت صوت طقطقة إحدى فقرات عمودها الفقري بينما تقول:

- مكانك جاهز آنستي.. اتبعيني من فضلك.

ابتسمت مجاملةً وهزرت رأسي وخرجت معها، غير مبالية بملابسي البالية التي تكشف مفاتن جسدي الجديد. سرت خلفها بمنتهى الحماس لرؤيه مكاني الجديد.. و.. لرؤيه مكانتي الجديدة!

أخذتني جليندا للدرج الذي يوصلني للأسفل.. قالت أن علي الاستحمام وارتداء ما يليق بالطابق العلوي.. فسمعت ما قالت، وأخيراً.. عرفت طريق تلك البركة العذبة التي قذفتني بها الماشطة.. لكن لم أقفز بها هذا المرة، بل ذهبت لها مشياً، وكأني أزور البحر..

ردهة فخمة، تؤدي إلى درج مفروش ببساط أحمر كما كل الأرضيات الفخمة حولي؛ هذا هو الطريق للطابق الثاني بدون أي شعوذة أو طرق مختصرة كما حدث أول مرّة. وصلنا بسلام لـ «طابق العرائس» وخطوت أولى خطواتي والعيون تترقبني متفرحة، لشكلي ولما أرتدى، عدا عينين أشاحتا بغرور بعيداً عنّي؛ عينان زرقاءان كموج البحر الثائر في برودة الشتاء، وهمما عينان جذباً ظافراً كثيراً لدرجة أنه تركني واقترب منهما ليراهمما عن قرب!

- هذه هي العروس الجديدة.. إليونورا.. أرجوكن عاملنها كما تستحق، فيبدو أنها ستكون أميرة مثلكن آنساتي.

انحنت للفتيات، ثم لي وانصرفت بهدوء كما دخلت، وكأنها لم تعرف الصوت العالي ولا الصراخ قط. تهّدت بقلق وبحثت عن ظافر بعيني لأجده يراقب تلك الشقراء من على بعد.. فتحدثت إليه بعقلني:

- ماذَا أَفْعَلَ الْآن؟ أَنَا مَرْتَبَكَة!

ابسمت بارتباك وقلت لهنّ: **- أهلاً!**

و قبل أن أرفع يدي لألقى التحية، أشحن ببصرهن بعيداً عنِي و انصرفت كل واحدة منها إلى ما كانت تفعله قبل قدومي!

— تصريح في بطبيعة...

قالها ظافر بينما ينظر للشقراء التي جلست على واحدة من الوسائد الناعمة على الأرض، فهمست باستكبار:

– وأنت أيضًا!

أخذت خطوة جريئة للداخل ورفعت عيني لكل شيء موجود حولي؛ فما أمامي هو طابق كامل؛ ربعة فقط مخصص لكونه مستراحًا، أما الباقي فهو مفروش بأكمله ببساطٍ كبير شاسع الطول ذي لونِ داكن، ليعكس لون البلاط الأبيض والرمادي غير المغطى بالبساط، وهي مساحات ضئيلة فقط.. المساحة واسعة بالمنتصف، بها منضدة أرضية مستديرة، أنيقة الشكل موضوعٌ حولها وسادات رمادية وحمراء ناعمة، بنقوش فضية، والتي تجلس الشقراء على واحدة منها ممسكة بمرأة يد مزخرفة بالنقوش فضية اللون، كلون أعمدة الفُرش العديدة بعده الفتيات هنا.

الفُرش يبدو عليها الرقّي، وساداتان بيضاوينان لكل فتاة كلون الشراشف، وغطاء رمادي ينفّس التقوش الفضيّة.. ما بالهم مع الفضيّ؟! لكن كم هو أنيق!

رفعت رأسي لأجد السقف عاليًا، تدلّى منه ثريّاً عظيمة، أجمل من تلك التي
بالرواق الأول وثمة رائحة مميّزة للمكان؛ عطر خفيف لكنه أنثوي للغاية.. أعجبني،
 فهو يليق بكل الرقة المنشرة.. فهنا، لا مكان للقبح، فقط الجميلات.. وأصبحت أنا
واحدة منها اليوم!

تحنحت حن أتى ظافر ليقف يحاني، وقلت له همساً:

- ما بالها تلك الشقراء؟ يبدو أنها مغرورة!.

و قبل أن تصلني إجابة منه، سمعت صوت فتاة رقيقة تضحك بخفوت، فاستدرت لأجد فتاة قصيرة القامة، لطيفة، تبدو كقطعة سكر ببياض وجهها ونعومة و جنتيها! أمسكت بشعرها البني فاتح اللون المجدول في ضفيرة سميكة - على كتفها - بيدها اليسرى و مدّت يدها اليمنى لي بالسلام، فالقطّتها أنا مبتسمة لابتسامتها و سمعت صوتها الطفولي الناعم يقول:

- أهلاً بك معنا.. أنت جميلة جداً!.

اتسعت ابتسامتني و خفق قلبي.. آه لو تعلم أنها لا تقل جمالاً عنّي!

- شكرًا لك.. وأنت أيضًا جميلة!.

قلتها بتلقائية، فتلك الفتاة عفوية لدرجة يجعل قلبي يستريح بمجرد النظر إليها. ربما ستصبح صديقتي بهذا العالم!

- لا تزعجي بالك يا زالين فهي هكذا دائمًا.. لا ترى غير جمالها.

قالت آخر جملة بهمس ثم ضحكت كالأطفال، فضحكت لعفويتها، لأجدتها ممسكة بيدي فاستسلمت لها حتى وصلت بي أمام فراش ما قائلة بطريقة أوبرالية:

- تفضّل بيبي!.

ضحكت أنا وصعدت الدرجتين من البلاط اللتين تجعلان الفراش أعلى من الأرض، وجلست على طرف سريري بحذر، لأجدها هي تزيل الستار الأبيض بين سريري والسرير المجاور لي جهة اليمين وتجلس هي الأخرى على الفراش.. وقالت:

- هذا مكاني.. أي أنا جارتان!.

ابتسمت ونظرت حولي، للاحظ أن الفُرُش موضوعة في صفين متقابلين، بينهما البساط والمنضدة الأرضية، وتوجد شرفة كبيرة؛ ستائرها الرمادية مفتوحة على مصراعيها، لسمح للظلام الخارجي بأخذ دوره في إزعاجي..

- أتريدين إلقاء نظرة من الشرفة؟ أتريدين الوقوف بها؟.

قالتها فأزعجني تكرار جملتها بصوتها الطفولي، وخففت ابتسامتها قليلاً
لتكون مجاملة، فقلت بهدوء:

- ربما في وقت لاحق...

هزّت رأسها بقوة وسعادة وأشارت لنفسها قائلة:

- أنا إيفي.

أعجبت باسمها وقبل أن أعرف نفسي قالت هي:

- اسمك إليونورا؛ وهو معناه الضوء الجميل والدافئ!.

ابتسمت لغراية المعنى، فنظرت لظافر لأجده قد أشاح ببصره بعيداً عنِّي، يتابع
الفتيات.. فهمست أنا:

- كضوء الشمس.

نظرت لي الفتاة بغير فهم، فأسلبت أهدابي ولم أعد ما قلت ونظرت حولي:
لأجده فتاتين تلعبان الشطرنج، وأخريات يلعبن الورق، واحدة تطالع مجلة وأخريات
يتهامسن أثناء جلوسهن على نفس الفراش، وجميعهن يرتدين فساتين أنيقة.
وقفت أنا بغير وعي وذهبت للمرأة الكبيرة، التي تفصل الغرفة عن المستراح..
ودرت بفستانِي الجديد حول نفسي، لم يتتسّن لي رؤيتها بوضوح من جميع زواياه، ولم
أشبع من رؤية جسدي الجديد والانبهار به! تذكّرت نظرة الخادمة التي أرسلتها
الماشطة إلى صوتها المتجلج:

- هل.. هل هذا الفستان لكِ آستي؟ أقصد.. أقصد.. هو رفيع للغاية
كيف هو لكِ!.

وتذكّرت صوت ظافر وهو يهمس لي:

- اكشفي سرّك لينتهي أمرك.. ستعودين قبيحة.

لامست طرف فستانى الوردى كلون العديد من الفساتين هنا، كان خياراً جيداً بدلاً من الفستان الذى أحضروه لإيليونورا القديمة الدمية! نظرت لخصره الضيق والذى يزيّنه بعض النقوش حتى الصدر لأجد أنتي فعلاً رشيقه.. وجسدي أنثوي للغاية. بينما أنظر بإعجاب بنفسى ظهر انعكاس ظافر بالمرأة من خلفي فنظرت لانعكاسه بغرابة وقلت:

- ظافر، بما أنك هنا.. هل هذا يعني أن باقى الحرّاس هنا أيضاً؟.

لم يرد علىي بالكلمات، لكنه وقف خلفي وأدارنى للفتيات، قام بوضع كلتا يديه أمام عيني على شكل دائرتين كالمظار ليجعلنى أرى من بينهما، فشهقت بتعجب! كم جعلنى هذا المنظر مشدوهه! فيوجد العديد والعديد من الحرّاس هنا! يوجد من يقفون بجانب الشرفة للحديث، ومن يجلسون بجانب الفتىات اللاتى يلعبن الورق، وأيضاً بجانب من تلعب الشطرنج مع الأخرى! كم أصبح الطابق مزدحماً الآن! أمسكت يديّ ظافر وتحركت بهما في الأرجاء، فبدوت أمام الفتىات كحمقاء تضع كلتا يديها بالقرب من وجهها لكن لا يهم، المهم أن أرى بوضوح! سرت معه ورأيت العديد والعديد من الحرّس؛ أحدهم يخرج من المستراح ويتحدّث لآخر قائلاً بين ضحكاته غير المصدقة:

- رؤية الفتىات في المستراح؟! كم هذا مقرّز يا رجل.. يكفي أن نرى وجوههن الجميلة!.

عبست بتعزّز ونظرت لهم، وأنزلت يديّ ظافر والتقت له بقصوة قائلة:

- هل يروننى؟ هل يراني؟.

أشرت لموضع وقوفه بعيني وهو عند باب المستراح فقال ظافر من بين أسنانه:

- تحدي بعقلك فقط يا حمقاء.. ها هو آت...
٧٦

زفرت بضيق وتحرّكت خطوة، لكن سرعان ما غيّرت رأيي فعدت مرّة أخرى
لظافر وقلت بداخلني وأنا أنظر له بغيظ:

- حين أذهب لقضاء حاجتي لا تسمح لهذا الوغد أو أحد أصدقائه النظر
إليّ!.

رأيت ظافراً يرفع يده ويومئ لشخص أنا لا أراه ثم بعدها نظر إلى قائلاً ببرود
عابث:

- حسناً.. سأشاهد الحدث وحدي!.

عبس في وجهه بحق وانصرفت.. أحمق! ماذا يظن نفسه ليمزح مع؟ أهو
يسمعني؟ حسناً! أنت وغد مثله يا ظافر جميك حراس قليلو الحباء!

أرجو أن تمرّ أيامى هنا بسلام فأنا أكره إحساس المراقبة هذا! ترى من ينظر
إليّ منهم؟ سحقاً.. على الاختباء حتى يمكنني التأقلم!

كنت على بعد خطوة من فراشي بمنتصف الغرفة، لكن جذب انتباхи صمت
الفتيات فجأة حين قالت إحداهن:

- هل سمعت؟ لقد أحضر قابضو الأرواح ثلث فتيات بالأمس!.

أصبح صوت الهمسات أعلى من صوت شهقات البعض، وبينما أنا واقفة مرّة
إحدى الفتيات من أمامي وهي تمسك بذراع إحدى الفتيات الآخريات لتمشي
بجانبها متكتئة عليها، فسمعت ما همست به بذعر:

- إنها ليست المرّة الأولى!.

وضعت الأخرى يدها على فمها بدھشة وقالت:

- أعلم عزيزتي.. لا تنسى أنتي جئت قبلك!.

قبل أن تصرفا همست كي لا تلتفت الآخريات لصوتي:

- ما الغريب في ما قالت؟!.

توقف الفتاة وجدبت صديقتها من ذراعها وقالت لي بشيء من التكبر:

- ألم يخبرك أحد؟.

هزرت رأسي نفياً وقلت بغرابة لغبائتها:

- نعم ومن الواضح أنه لم يخبركم أحد أيضاً فالخبر جاء للتو!.

ضحكـتـ الآخرـىـ عـلـىـ غـبـاءـ صـدـيقـتـهاـ .. فـتـهـدـتـ الصـدـيقـةـ قـائـلـةـ:

- أـتـسـخـرـيـنـ مـنـيـ؟ـ إـذـاـ لـنـ نـخـبـرـكـ!ـ.

ونظرـتـ لـلـفـتـاتـةـ الـتـيـ تـضـحـكـ وـقـالـتـ مـبـعـدـةـ بـهـاـ:

- لـاـ تـضـحـكـيـ أـنـتـ أـيـضاـ أـنـتـ صـدـيقـتـيـ!ـ.

ابـتـدـعـ صـوـتـهـمـاـ فـجـاءـتـ آـخـرـ كـلـمـةـ مـشـوـهـةـ فيـ أـذـنـيـ بـسـبـبـ تـهـامـسـ الـبـعـضـ،ـ وـفـيـ نفسـ الـوقـتـ أـتـيـ ظـلـافـرـ إـلـيـ قـائـلـاـ:

- لـاـ تـشـغـلـيـ بـالـكـ بـتـلـكـ التـفـاهـاتـ...ـ.

نظرـتـ لـهـ وـقـلـتـ بـعـقـلـيـ:

- لـكـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـعـرـفـ!ـ.

تـهـدـ ظـلـافـرـ قـائـلـاـ:

- تـلـكـ الـحـكـاـيـاتـ يـتـرـكـنـهاـ لـقـبـلـ النـوـمـ .. سـتـعـرـفـيـنـ كـلـ شـيـءـ لـكـ لـاـ تـشـغـلـيـ بـالـكـ بـهـاـ كـيـ تـسـتـطـيـعـيـ الـرـاحـةـ لـيـلـاـ.

نظرـتـ لـهـ بـغـيـرـ فـهـمـ وـهـزـزـتـ رـأـسـيـ بـبـلاـهـةـ ..ـ ثـمـ قـلـتـ مـتـسـائـلـةـ:

- كـيـفـ تـلـعـمـ كـلـ هـذـاـ؟ـ مـنـذـ مـتـىـ أـتـيـتـ؟ـ.

اقـتـرـبـ مـنـ أـذـنـيـ وـهـمـسـ بـبـرـودـهـ الـمـتـاهـيـ:

- لا شأن لكِ...

نظرت له بغيظ وكدت ألكمه على كتفه بسبب غيظي منه والذي فاق الحد هذه المرة.. إلا أنني سمعت صوت سيدة ما - وهي الماشطة - تقول بعلو صوتها بطريقة هادئة:

- هدوء يا آنساتي من فضلكن.. أريد فتاة بعينها؛ طلبها الأمير للتتوّ...

صمنت جميع الفتيات وأصطفهن أمام الفُرُش، حتى إن الشقراء إزالين قامت من مكانها ووقفت كباقي الفتيات.. لكن مبتسمة بغرور.. تقدمت الماشطة ومررت بين الفتيات، تمشي بهدوء حافية القدمين حتى لا تدوس على البساط الراقي بعذائهما البسيط، واضعة كلتا يديها خلف ظهرها بوقار، ابتسمت في وجه الفتيات.. حتى اقتربت مني.

تلاقت أعيننا للحظة، فتحولت ملامحها للجدية وهدأت ابتسامتها، رفعت يدها إلىّي ووضعت يدها على كتفي قائلة:

- أنتِ....



{٨}

أول كتاب =

- أنتِ...

هوى قلبي يقدمي حين سمعت نبرتها الجادة، سمعت عدّة شهقات والعديد من العبارات اللاذعة مثل:

- من هي ليختارها الأمير؟.

- ماذا رأى فيها؟.

عبارة أخرى جذبتي، لأنني قلتها بداخلي أيضاً بتساؤل!

- كيف ومتى رأها الأمير أصلاً؟.

تهّدت بذعر وتساءلت بينما أنظر للماشطة:

- أنا؟.

مشيرة إلى نفسي مدعية الغباء، فعبّست الماشطة قائلة:

- وجهٌ جديدٌ!.

أومأت قائلة بحذر:

- نعم انتقلتاليوم فقط.

أخذت يدي لتسحبني للأمام فتحرّكت معها خطوتين، ثم أوقفتني لتدور حولي، تفحّصني بعينيها الخبريتين، أعتقد أنها التصقت برأسِي لتفقد شعري، وأمسكت بأذني تعبث بهما. أدركت أنه فحص سريع للنظافة الشخصية. بعد أن انتهت قالت بروتينية:

- أحسنت؛ النظافة الشخصية هي أهم شيء.

ثم عادت ابتسامتها قائلة رافعة صوتها للجميع وقد انتهت مهمتها السريعة والفالجئة معِي..

- الأمير طلب فتاة رآها بحفل الزيارة.. بعينين حضراوين وشفتين رفيعتين، بطول معتدل وزن مثالي...

تهّدت براحة.. إذا لم أكن أنا المطلوبة! شعرت بالاطمئنان لأن لا شيء يحدث أسرع من ما تخيلت، ووُجِدَت ظافرًا يسحبني من كتفي لأقف ضمن الصّفّ، وقال هامسًا:

- تطلعِي لتلك الفتاة، أمام الفراش الأخير بالقرب من الشرفة.. هي المختارة. رفعت عينيًّا لمكان تلك الفتاة، لأجد أن كل العيون عليها.. إذا هذه هي! راقبتها تطرق رأسها خجلًا مبسمة بعياء، تسير بخطى بسيطة خلف الماشطة التي أمسكتها من يدها بألفة.. قائلة:

- هيَا يا عروس الأمير الجميلة.. ليس أمامنا الكثير من الوقت! الزينة والفسستان.. سأقربكِ من الكمال!.

زادت ابتسامة الفتاة حتى شملت جميع وجهها.. فلاحظت أنا عينيها؛ جميلتين حتّى أهدايهما كثيفة ورقية، كرقة لون شعرها المائل لللون البندق المعقود في كعكة كبيرة خلف رأسها. ابتسمت بطلعٍ كباقي الفتيات، لكن سرعان ما خفت ابتسامتِي حين لاحظت وجود يدٍ مرتّشة، تتعصّر منديلاً قماشياً بحركة عصبية متّورة. رفعت عيني لأجد أنها الشقراء المغروبة؛ إزالين.

لاحظت جحوض عينيها بلمعة أخرى غير اللمعة بعيون جميع الفتيات، ليست تلك هي اللمعة الحالمـة المتأملة؛ بل هي أكثر غموضاً، لكن ما استشفـته، أنها مليئة بالغـل.. والحسـد!

- حسـناً آنسـاتـي.. أـشـكـرـكـنـ لـوقـتـكـنـ...

قالـتـهاـ جـلـينـداـ بـوقـارـ ثـمـ أـضـافـتـ:

- يتم وضع اللمسـاتـ الأـخـيـرـةـ عـلـىـ طـعـامـ الـغـدـاءـ...

عادـتـ كـلـ فـتـاةـ لـماـ كـانـتـ تـقـعـلـ وـسـمـعـتـ هـمـسـةـ:

- الـأـمـيـرـ يـرـيـدـهـاـ قـبـلـ الـغـدـاءـ؟ـ غـيرـ مـعـقـولـ!ـ.

وضـحـكـةـ خـيـثـةـ بـعـدـهـاـ،ـ لـأـبـتـسـمـ أـنـاـ قـائـلـةـ بـحـيـرـةـ:

- يـجـبـ أـعـرـفـ أـكـثـرـ عـنـ هـذـاـ الـأـمـيـرـ.



حضرـتـ الـخـادـمـاتـ بـزـيـهـنـ الـأـيـضـ وـالـأـسـوـدـ لـيـكـوـنـ جـيـشـاـ مـنـ حـامـلـاتـ الـوـجـبـاتـ الشـهـيـةـ لـلـعـرـائـسـ.ـ وـضـعـتـ كـلـ خـادـمـةـ صـيـنـيـةـ مـنـ الطـعـامـ عـلـىـ سـرـيرـ كـلـ فـتـاةـ مـنـاـ وـانـصـرـفـتـ بـأـدـبـ بـعـدـ أـنـ تـمـنـتـ لـلـعـرـوـسـ وـجـةـ هـنـيـةـ.ـ بدـأـ الـجـمـيـعـ بـتـنـاـوـلـ الـطـعـامـ بـحـمـاسـ،ـ مـعـ ضـحـكـاتـ أـفـلـتـ مـنـ الـكـثـيرـاتـ بـيـنـمـاـ يـتـحـدـثـنـ عـنـ أـشـيـاءـ عـشـوـائـيـةـ.ـ أـمـاـ أـنـاـ،ـ فـبـدـأـ بـشـرـبـ الـمـاءـ،ـ وـقـبـلـ أـنـ أـمـسـكـ بـأـدـوـاتـ الـطـعـامـ سـمـعـتـ مـنـ تـنـنـحـ،ـ كـانـتـ إـيـفيـ،ـ تـنـطـلـعـ إـلـيـ بـنـظـرـةـ بـرـيـئـةـ كـعـيـونـ الـقـطـطـ الصـغـيـرـةـ قـائـلـةـ:

- هلـ يـمـكـنـنـاـ تـنـاـوـلـ الـطـعـامـ مـعـاـ؟ـ.

لمـ أـجـدـ هـنـاكـ مـاـ يـسـتـدـعـيـ الرـفـضـ،ـ بلـ رـأـيـتـهاـ فـرـصـةـ مـثـالـيـةـ لـتـمـضـيـةـ الـوقـتـ مـعـ أـيـ شـخـصـ يـجـيدـ الـكـلـامـ،ـ لـأـنـيـ اـكـتـفـيـتـ مـنـ صـمـتـ ظـافـرـ أـغـلـبـ الـوقـتـ!ـ أـفـسـحـتـ لـهـاـ

مكاناً بجانبي على الفراش وأخذت صينية طعامي على فخذني فجلست هي وفعلت المثل، وقضممت قصمة من الدجاج ثم قالت بهمّسٍ خجولة:

- أشعر بأنني أريد الحديث مع أي شخص.. وأنت جديدة هنا!.

ابتلعت ما بفمها ثم ملأته بملعقة من الأرض قائلة دون إزالة نظرها عن ما تأكل:

- أحب التحدث للفتيات الجدد....

- ولماذا الجديدات على وجه التحديد؟.

قلتها ثم شرعت بتناول الطعام، فأجبتني بعفوية:

- لأنهن ببساطة لا يعرقون؛ فلن يسخن مني أو يحتقرنني... .

عبس وبطأت حركة فكيّي في مضخ الطعام، واستشعرت بمرارة ما تقول، حتى ابتلعت طعامي ببطء وتساءلت بخفوت:

- هل يسخن منك هنا؟.

هزّت رأسها ونظرت إلى متهدّنة بفمها الممتلئ:

- لأنني قصيرة.. وصغيرة.. لست مثلهنّ أبداً... .

ابتلعت ما مضفته واستطردت:

- ويقلن أنني أقيت هنا بمحض الصدفة لا أكثر!.

هزّت رأسي متفهمة.. وقلت بابتسامة:

- أرى أن هذا يميّزك.. فأنت رقيقة كالدمى!.

استخدمت الفتاة منديلاً قماشياً أبيض بجانب طبق الحلوى لتمسح زاوية فمها الملطخة بالطعام، ضاحكةً، فضحكـت أنا معها.. وسرعان ما سـأـلت بـفـضـولـ:

- هل تلك الفتاة التي ذهبت للأمير.. ستكون عروسـاً حـقـيقـيـةـ؟ أم لـلـلـيلـةـ وـاحـدـةـ؟.

نظرت الفتاة حولها بعد أن احمر وجهها بدرجة كبيرة، فقلت أنا بغرابة: - ماذل

لا أصدق أنها لا تعرف هذه الأمور! يبدو أنها صغيرة السنّ. أشفقت عليها
وابتاع حديث:

حسناً لا عليك.. أنا فقط أريد أن أفهم، لا أحب أن أجلس كالبلهاء والجميع حولي يدركون طبيعة كل شيء!.

نظرت لها مضيق عيني، فتابعت:
- لا يحدث أن يطلب الفتاة أكثر من مرّة.. لكن إن أعجبته عروسٌ؛ استولى
عليها.. يجعلها تسكن معه بالطابق الملكي...

ابتلعت طعامي بصعوبة وبحثت بعيني عن ظافر، لم أجده، فابتسمت لها بحرج
قائمة:

– وماذا أيضاً؟
ابتلعت الفتاة المزيد من الطعام بنهم، ثم مسحت فمها بتلقاءٍ وقالت:

– اختفت العديد من الفتيات بيننا.. أراهن أن الطابق العلوي مليء بهنّ!
هزّت رأسي بفهم، وللحظة تخيلت الطابق العلوي؛ الأمير يجلس على فراشه
ويحتضن العديد من الفتيات.. وعلى موسيقى حالمه ترقص له آخريات وتطعمه
آخر بات!

نفّضت تلك الصورة عن ذهني وتساءلت:

- هل رأيت الأمير من قبل؟ أقصد.. كيف يبدو؟ كم عمره وماذا يحب؟.

وبمجرد قولي هذا انتبهت أن الفتاة قد انتهت من تناول كل شيء أمامها، من خضروات وحساء، أرز ودجاج.. فتحنحت بحرج قائلة:

- هل شبعت؟ يمكنك تناول المزيد من طعامي إن أردت؟.

لمع عينا الفتاة وقالت:

- وهل شبعت أنت؟.

هزّت رأسِي وابتسمت لها مشجّعة فوضعت أطباقِي المليئة بالطعام فوق تلك الأطباق الفارغة التي استقرت محتوياتها بمعدها الصغيرة وقالت هي بغير تصديق:

- أنت طيبة جداً لا يسمحون لنا بملء الأطباق.. فمن تسمن تذهب لقضاء فترة في تنظيف الزنازين.. أو يلقون بها خارجاً للسير لمسافات كبيرة جداً...

استمعت لها بحنان مبتسمة، واستطردت هي:

- أنا معدتي تحتاج للكثير من الطعام ورغم ذلك لا يزيد وزني، هذه طبيعة جسدي! لكن لم يصدقني أحد مهما شකوت...

ابتسمت لي وتابعت بضم ممتلئ:

- أشكرك إيليونورا...

تركت ملعقة الطعام للحظة، وتوجّهت لوسادتها، جذبت شيئاً ما ثم أعطتني إياه قائلة بحدّر:

- هذا الكتاب.. مهم جداً، به معلومات عن تاريخ التصر وتصميمه وموضع السلطة.. من وزراء وشرفات.. حتى إنه يوجد كثير من المعلومات عن الملك الأعظم.. والأمير.. كل شيء ستتجدينه هنا!.

شهقت وفتحت فمي.. تحسست الكتاب بيدي فائلة بذهول:

- هل مسموح هنا بقراءة الكتب؟ كم هذا عظيم!.

لاحظت صمت الجميع ثم إطلاقهن ضحكات ساخرة؛ فأدركت أن نبرة صوتي قد ارتفعت بقول الجملة المتعجبة. أخفضت رأسي ودفتها بين الكتاب أشتم رائحة صفحاته الصفراء العتيقة وقلت بحماس:

- سأقرأ كل ما به! كل سطر... كل كلمة.. هل به بعض الصور التوضيحية؟.

ضحك الفتاة وقالت:

- مهلاً لا تتحمسى! اقرأى قدر ما تفهمين، فيوجد بعض الكلمات بلغات غير معروفة بالنسبة لي... .

ابتسمت وقالت بحماس:

- يبدو أنك تحبين القراءة مثلي!.

حقق قلبي بسرعة وقلت مبسمة:

- لا يمكنني تأكيد ما قلت، لكن القراءة ستتشبع فضولي.. وهذا كل ما أريد للآن!.

ابتسمت الفتاة وتابعت طعامها، تناولت حلوها.. وحلواي.. بينما أنا أتحسس ذلك الكتاب وأفكّر في الوقت المناسب لقراءته.. .



هدأت وسكنت أصوات الفتيات بالطابق.. أصبحن خفيضات الصوت للغاية.. .
قالت لي إيفي أن بعد الطعام يصرن خاملات.. قالتها قبل أن تستسلم للنوم على طرف فراشي فانتهزت أنا الفرصة لفتح الكتاب. اتسعت عيناي واعتدلت

في جلستي، ثبت ركبتي للأعلى وجعلت الكتاب على فخذي، وقبل أن أفتح أولى صفحاته سمعت صوت ظافر يقول بفراية:

— من أين جئت به؟.

نظرت له و هممت:

— أين كنت؟ أخبرتني إيفي ببعض المعلومات...

نظر لفتاة وأصدر صوتاً متشللاً من بين أسنانه، وجلس على طرف سريرها المحاور لي قائلاً بفضول:

— يبدو أنك بدأت بتكوين الصداقات بالفعل!.

زفترت بغير صبر وقت:

نعم نعم ...

و استطاعت سمعة:

– هي من أعطتني هذا الكتاب.. سأقرأه وأرى إن كنت سأفهم تلك اللغة التي
أخبرتني عنها.

فتحت أولى الصفحات وقد نفذ صبري، وقبل أن ترى عيناي أي شيء سحب
ظافر الكتاب وقال ببرود:

– الوقت ثمين هنا.. دعيني أختبر مهاراتك اللغوية أولًا... .

رفعت له الكتاب لكنه لم يأخذه مني، بل أخذ حريته برفع ساقه على فراش تلك الصغيرة والجلوس مولياً ظهره لي. صمت للحظات وصوت حفيظ أوراق الكتاب يشغل بقلبي الحماس أكثر.. وحين التقى إلى رأيته يشير إلى إحدى الكلمات، قائلاً:

أقر أبا.

نظرت أنا للكلمة بغير فهم لأجده يطوي الصفحة، ثم ينتقل إلى صفحة أخرى
ظننتها عشوائية، لكنني انتبهت لكونه يعرف ما يبحث عنه بالضبط. من الواضح
أنه يحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب.. أشار لكلمة أخرى وقال:

- هل هي مألوفة؟.

وضعت يدي على عقلي الذي بدأ بالطنين، وهمست بخيبة أمل:

- لا لا أفهم أي شيء!.

أزلت يده عن باقي الصفحة وقلت بضيق:

- ما هي تلك اللغة أصلاً!.

سحب ظافر الكتاب من يدي بخفة وأغلقه، وضعه بجانبه وقال بغير تصديق:

- كانت تلك الكلمة الثانية من لغة مشهورة..، يعرفها أي طفل بمجرد حصوله
على القليل من الأيام بالتعليم الأساسي!.

نظرت له وهمست بغير تصديق:

- أقصد.. أنتي لم أتلق أي تعليم بحياتي؟.

- سنرى... .

قالها ودَسَّ يده في وسادة الفتاة.. لتفوض بأكملها دون أي أثر لقطعٍ أو شيءٍ من
هذا القبيل.. وفجأة أخرجها وبيده ريشة بيضاء معتدلة الحجم، ووسط نظراتي
الحائرة وجدته يخرج خنجرًا من جراب حزام الوسط خاصته.. فوضعت يدي على
فمي بصدمة أكتم شهقتي من ريبة ما يفعل! بالطبع يعرف خطوته التالية، لكن لن
يكون جيداً إن لاحت إحدى الفتيات ما يحدث أمامي؛ ريشة.. وخنجر يطفوان في
الهواء! ألا يكفي الكتاب؟

نهضت من مكاني منقضة لأغلق الستائر البيضاء حول فراشي وفراش إيفي،
لأكون غرفة بيضاء شفافة يسكنها ثلاشنا، ثم عدت لمكاني لأجد ظافرا قد جرح
إصبعه بسن ختجره الحاد وغمس الجزء المدبب من الريشة في خط دمائه ليبتل
باللون الأحمر الداكن. فتح صفحة بالكتاب وأعطتها لي، كما ناولني الريشة وقال:

- اكتب أي شيء...

أنسندت الكتاب إليّ وبيد مرتعشة أمسكت الريشة، وقبل أخذ قرار بكتابه أي
شيء وجدت ظافرا يحيط يدي بكلتا يديه ليعدل وضع ريشتي بينما ينظر إليّ
منتظراً ما سأكتبه.. وأتت بيالي كلمة ما!

بدأت أخط الورقة بريشتي، وعندما انتهيت نظرت لعيني ظافر الظاهرين
 أمام عيني وقلت بترقب:

- رسمتها من مخيالي...

أخذ مني الكتاب وأمعن النظر به.. ثم رفع عينيه إليّ قائلاً:

- هل قصدت كتابة.. اسمي؟.



{٩١}

= وقت النوح وما قبله =

أخذ مني الكتاب وأمعن النظر به.. ثم رفع عينيه إلى قائلاً:

- هل قصدت كتابة.. اسمي؟.

أرخيت ملامح وجهي العابس لأبتسם بترقب قائلة:

- وهل هو صحيح؟ أعني.. هل هو ما كتبته فعلاً أم أنك قرأت ما بعقلي؟.

أومأ ظافر قائلاً:

- بل هو صحيح!.

صمت ليبحث عن صفحة معينة في الكتاب.. وعندما وجدها أدار الكتاب لي

وقال بهدوء:

- يمكنك قراءة هذه.

لم أدعه يكمل جملته مفهومه المعنى، بل على الفور أخذت منه الكتاب على عجلة من أمري، لأجد عقلي لا يقل صبراً عن حركتي. أخذت عيني تستجيب لما يمليه عليها عقلي من أوامر لأجد نفسي أقرأ بصمت:

- الفصل الرابع: العمال والخدم، العاملات والخدمات.

و قبل أن أتابع القراءة استوقفني ظافر بحركة من إصبعه، ففُكّرت أنا:

- هل كان صحيحًا؟

ومرّة أخرى هزّ رأسه فلمعت عيناي بحماس وقلت:

- كوني لا أجهل القراءة والكتابة شيء أراهنني كثيرًا لم لم يخبروا تلك النقطة قبل دخولي لطابق العرائس؟ ألهذه الدرجة يؤمنون بالظاهر فقط؟.

وضع ظافر يده على الكتاب، أغلق الصفحة ووضعه تحت وسادتي -كما كان- ثم قال بهدوء:

- العروس كي تكون أميرة؛ يجب عليها أن تتقن كل ما يحب الأمير.. كالغناء والرقص، ويمكنها تعلم الحياكة لتمضية وقتها بعيدًا عنه إن كثرت مسؤولياته وأعماله...

ضمت شفتي بأسف وفكرة:

- اعتقدت أن الكتب مفيدة لي كي أبهره بثقافتي.. يبدو أنني سأتقى تلك المعلومات لأعوض قلة معلوماتي لا أكثر!.

- يبدو هذا مناسباً.

ابتسمت وأنا أحاول النظر لعينيه وقلت:

- وأنت ستساعدني على انتقاء اللغة المناسبة أليس كذلك؟ فالحروف متشابهة، لذا سيعصب على تحديد ما سأقرأه بالضبط...

ولم ألقى منه أي رد، فتظرت لما ينظر إليه لأجد الشقراء الجميلة «إزالين» تتمايل أمام المرأة؛ ممسكة بردائها الواسع والذي بالطبع يخفي جسداً ممشوقاً بمثالية، وعاودت النظر لظافر لاكتشف أنه شارد كل الشرود بتلك المغرورة فنتهّدت قائلة:

- ما بالكم مع الشقراوات؟ جميع الفتيات هنا جميلات لكن لم تجدون الشعر
الأشرف والبشرة البيضاء أروع آيات الجمال؟.

تحنح ظافر بهدوء ونهض من فراش إيفي قائلاً بشرودٍ نابع من أعماقه:

- ارتاحي قليلاً قبل أن تأتي معلمة الحياكة...

نظرت له بحيرة لأجده يقترب ببطء للمرأة الفاصلة بين جزءي الطابق غير المتساوين، حتى توقف مستندًا على الجدار من خلفه بظهره القوي، عاقدًا ذراعيه أمام صدره باهتمام، فلاحظت أن تلك المغرورة يخرج من بين شفتيها أحان وكلمات هادئة لا انكر أنها جعلت بدني يرتعش تاملًا.. أصفي لكلماتها مغمضة العينين.. فتبينت كلماتها الغريبة بوضوح..

~~~~~

«استثنيني.. من قواعد العالم..

استثنيني من مظاهر الكون..

أنا لست مثلك، ولا مثلهم سأكون..

أنا شخصٌ غريب.. شخصٌ وحيد..

لنداء الحب.. لا أستجيب.

أنا شخصٌ فريد.. فلا تنتظر مني في يوم.. أن أستجيب.

لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلا لنفسي..

لن يأسري الحب يومًا.. لن أكون إلا لنفسي..

فاستثنيني من ماضٍ كنت فيه أنا ضعيف..

واستثنيني من مستقبل أنا من أحداثه بريء..

استثنيني.. استثنيني.. دومًا وأبدًا استثنيني..»

~~~~~

وبعد آخر كلمة شعرت بكلماتها تعاد وتعاد بصوت أكثر همساً، و كنت أنا قد استسلمت لنوم عميق، غير عابئة بما يفكر فيه ظاهر في تلك اللحظة..

فتحت عيني على صوت إيفي :

- استيقظي رجاء.. لم كل هذا النوم!.

نهضت وفركت عيني لأقابل بعدها ابتسامة بريئة وصوتاً عذباً:

- سنأخذ حصة الحياة والتطريز اليوم، ولناسبة غامضة سمعت أن أفضل عروس استيعاباً للدرس وإنتجأ ستحصل على قماش خاص بها لتصنع ما تريده.

همست أنا بصوتي الناوس:

- ولم لا تطلب من الخدم أن يحken لها ما تريده؟ أليست هذه مكافأة أفضل؟.

اتسعت ابتسامتها والتمعت عينها بحماسة ظهرت في صوتها:

- أن ترتدى العروس ما صنعت بنفسها هو تمييز، وشيء يدعو للفخر.. خصوصاً وإن كانت أنيقة.

واستطردت همساً:

- يقولون أن ذوقك بالعالم الآخر يكشف عن ذوقك السابق في الحياة.

وكانت آخر كلمة بهمسي مبالغ فيه، أصاب فحيخه أذني بالقشعريرة. نهضت من فراشي وقلت بينما أنظر حولي:

- سأذهب للمستراح أولاً.

فردت قامتي الرشيقية لأكتشف أن الخف ما زال بقدمي، اتجهت لخارج صفة المُرُش بينما أطالع الفتيات الجالسات حول المعلمة بأدب، وفي نفس الوقت أبحث عن ظاهر..

وجدته يقف وحده، فاقتربت منه بحذر، لا أعلم إن كان الحرس هنا أم لا،
نظرت له وقلت بعقلني:

- أجعلني أرى الحرّاس، لا أشعر بالطمأنينة بوجودهم الخفي من حولي!.

كاد ظاهر أن يضع يديه حول عيني كالمُنْظَار، لكنني استوقفته قائلة:

- لا لا.. أريد رؤيتهم بنفسي.. وحدّي...

ساد الصمت لثانيتين، فقلت بعقلني همساً، ولا أدرى لماذا همسَت أصلاً:

- أريد دخول المستراح... وأخشى أن يتّجسّس على أحدّهم!.

تنهّد وقرّبني منه لأكون أمامه بالضبط، أمسك برأسِي بين يديه، ونظر لعيني بينما يغلّقهما بإبهاميه.. وحين فتحتهما أُسْبِلت أهدابي أكثر من مرّة بربّية، وهمسَت بعقلني:

- أعتقد أنتي أسمع صوّتهم أيضاً...

التفت بحذر وفكّرت بربّية:

- كم هم كثُر!.



وبيّنما أنا ألبّي نداء الطبيعة الذي لا تُغَيّر طبيعته لأي إنسان.. خادمة أو عروس لا فارق.. الكل يفعل ذلك بلا شك.. سمعت صوت ضحكات رجولية، ثم صوتاً هامساً بربّية:

- رأيت ذلك بأم عيني! مما جعلني أتأكد من فكرة أن جمِيعَهُنَّ عذراوات...

وضعت يدي على فمي بدهشة من معنى كلامه وأنا أتخيل الموقف وراء ذلك الاكتشاف الذي جعله يبدو واثقاً.. وأنصت بتركيز.

- يسمونهن عرائس.. فكروا في الأمر!.

- أجل!.

كان هذا صوتاً آخر.. ثم تحدث صاحب الصوت الأول:

- أعرف فتاتي جيداً.. وأراهن.. على أنها ستحكي عن ما حدث لزميلاتها،

ستحكي كل شيء لدهشتها: لأنها تعلم أنها كانت عاهرة في حياتها الأولى!.

ارتفع صوت الضحك والقهقهة بعد شهقات الإعجاب المقرّبة، ليقول شخص

منهم:

- أقبل رهانك، فإذا حدث ما قلت سأجعلك تحظى بفتاتي للحظة: لتقتنص

قبلة أو شيئاً من هذا القبيل!.

- موافق!.

انتهيت من لملمة ثيابي بحذر، أخشى أن يجذب صوت حفيظ ملابسي آذانهم،

نظرت لضوء الشعلة المرتعش خارج خلوتي المغلقة وناديت بعقلِي:

- ظافر.. أريد الخروج من هنا وهناك بعض الهمج بالخارج!.

لحظة مرت وأنا أتجاهل صوت ضحكاتهم بالخارج لأستطيع التركيز مع صوت

ظافر، وفجأة سمعت أحدهم يتنهنج وقال بخفوت:

- هيّا لنكمل حديثنا في مكان آخر.. فالهواء هنا قد نفد!.

ضحك الآخرون لكن بتردد.. وفجأة وجدت الستار يُفتح بحركة واحدة! لأطلق

أنا صرخة خافته، أشبه بشهقة مذعورة، لكنني وجدت ظافرًا أمامي، مغطى

الملامح كالعادة. هدأت من روعي وهمست ببقياها أعصابي:

- كيف تعيش الفتيات هنا وسط هؤلاء الأوغاد؟ سمعتهم يتحدثون عن أشياء

خادشة للحياء حقاً!.

قال ظافر بهدوء بينما عبرت من جانبه لخارج الخلوة:

- لأنهم خارج نطاق التدريب يتحدون بحرية.. لكن لا تبهرني وتنظري لأنعینهم.. جدياً أعني ما أقول.. لا تدعني هذا يحدث مهما كلفك الأمر.. ستصبحين وقتها صيداً ثميناً لهم...

صبيت الماء على يدي وأنا أفكّر:

- إذاً تلك الفتاة التي تحدثوا عنها.. تم اصطيادها بالفعل!.

صمت عن التفكير بخجل ليدرك ظافر الموقف، وقال بلا مبالاة:

- إذاً علينا -قربياً جداً- توديع عروس وحارس.. لن تمر فعلتهما تلك على خير.

زفر بضيق ثم قال بشرود:

- العرائس ملك للأمير فقط.. ومع ذلك ينسى الأحمق منهم مكانته!.

جفّفت يديّ ووجهي في المنشفة الصغيرة الناعمة ثم رميتها في سلة الغسيل -لتستقر فيه مع باقي المناشف المستعملة- وقلت وأنا أنظر إليه نظرة ذات مغزى:

- يستثنون أنفسهم من القواعد.. مع أنهم سواسية!.

وفكّرت في مراقبته لإزالين لأدعه يقرأ أفكاري وألقيت عليه نظرة أخيرة وخرجت، مغطية جانبي وجهي بخصلات شعرى الأسود الفاحم كي لا يلاحظني أحد المنحرفين منهم. دخلت بهدوء وسط تجمع الفتيات وجلست القرفصاء بجانب إيفي التي كانت مدخرة لي مكاناً، وفي نفس اللحظة وجدت قطعة من القماش -أحادية اللون- تُلقى على فخدي، كذلك خيط وعلبة من الإبر! رفعت بصري للجميع فلاحظت أن المعلمة العجوز هي من وضعتها، هي سيدة مسنة طيبة الملامح.. نظرت لي وقالت بصوتها الهدائى البطيء:

- أريني ماذا يمكنك إنتاجه: إنه اختبار بسيط...

وختمت عبارتها بابتسامة ودودة، فأوّلأت ورددت على ابتسامتها مبسمة بأدب، ونظرت لقطعة القماش الأبيض في يدي بحيرة.. ترى ماذا أفعل بها؟

نظرت للعرائس من حولي، لأجد أن كل واحدة منهن تقوم بشيء مختلف عن الأخرى، مما يكشف تفاوت مستوياتهن.. ابتسمت لي إيفي بتشجيع لتأتيني فكرة.. أستطيع تطبيقها بتلك القماشة الصغيرة، ودون تفكير، أخذت المقص المعدني الكبير من أمام المعلمة لتنظر لي بترقب تجاهلته أنا لاستطيع التركيز في إنتاج ذلك الشيء؛ الذي سيقول الجميع عنه أنه تحفة فنية! فقط إن أسعفتني ذاكرتي بالخطوات السليمة!

بعد لحظات مرّت على سريعاً رفعت -بأطراف أناملي- ما أنتجت في الدقائق السابقة؛ وهو فستان صغير بحجم راحة اليد، بنقشٍ صغير، وبالخيوط الزرقاء والصفراء المائلة للون البرتقالي؛ كانت شمساً دائمة، حولها زرقة السماء الصافية وقت الغروب.. ذلك المشهد الذي يجعلني أتأكد من أنني كنت أحيا بدفء ذات يوم...

قبل أن أستيقظ تماماً من بحر الذكريات المطموسة، أخذت إيفي الفستان من يدي قائلة بإعجاب:

- يبدو فستاناً لدمية جميلة!.

- أو لفارة نتنة!.

قالتها إحدى الفتيات لتضحك الفتيات، وتثير حنقى. أنا لا أحب أن يسخر أحد من ما أصنع!

التقطت عيناي العسليتان الفتيات الضاحكات يضربن كفوف بعضهن البعض، مستمتعات بالزحة غير المقبولة بالنسبة لي، نظرت للمعلمة كرد فعل طبيعي،

أريدها أن تعاقب تلك الفتاة! لكنني وجدتها مستمتعة بحياة ما يبدها بشرود! فأيقتنت أنها كعجوز سمعها لم يسعفها لسماع ما قد قيل للتو. تنهدت ورسمت ابتسامة متسلية على شفتي، لأبدأ اللعب بالكلمات، والذي أعتقد أنتي أجيده قليلا!

رفعت عيني لصاحبة المزحة غير الطريفة وقلت بهدوء:

- وماذا فعلت أنت؟ هل لي بإلقاء نظر؟.

انتقلت عدوى ابتسامتي المتسلية للأخريات، أعجبتهن اللعبة، فنطّوّعت واحدة بخطف قطعة القماش من صاحبة المزحة وألقتها لي، هزّت أنا رأسي لها بهدوء ليصلها امتناني، ثم أعدت رسم تلك الابتسامة المتسلية على زاوية شفتي ورفعت القماشة أمام صدري بكلتا يدي.. أريها للجميع، وقلت ببرود:

- أتررين أي ملامح؟ أي شيء؟ ما هي تلك القطعة يا ترى؟.

وزدت:

- أهومنديل؟ أم قماشة رثة لمسح أرض الزنازين؟.

انفجرت الفتيات بالضحك وكأني للتو قد رميتهن بقنبلة من الغاز المهلوس، ورغم عدم افتتاحي كلياً بما قلت، وعلمي أنها ليست بالمزحة الجيدة، ابتسمت لرؤية تلك الفتاة غارقة خجلاً بين ضحكات العرائس، وفجأة قالت فتاة من على الجانب الآخر:

- ليست أجمل من ما قامت بصنعه إيفي الصغيرة.. لقد صنعت منديلاً آخر، لكن هذا النوع الرديء يمكننا استخدامه مباشرة بعد الخروج من المستراح!.

ارتفع صوت فهقهات أخرى متسلية، فانتبهت المعلمة أخيراً وقالت بعبوس مندهش:

- ماذا هناك؟ لماذا تضحكن؟.

و قبل أن تزيد ، و قبل أن أوقف تلك المعتوهة عند حدّها وأجعلها تعذر لصديقتى الجديدة ، تلاقت عيني بعين معلمة الحياكة ، فأرخت تعبيرات وجهها وأخذت ما أمسكته بيدي؛ الفستان الصغير . رفعته لعينيها ورفعت العدسة المستديرة - أمام عينيها - و شهقت بذهول:

- موهوبة يا عزيزتي! موهوبة!.

تحسست بأناملها تلك الشمس الصغيرة الملونة بدقة بألوان الخيط ، لتنظر لي بعض الفتيات بغيرة و سمعت إيفي تهمس لي:

- كنت أعتقد أنك صديقتي! أي لن تسخرين مني!.

قالتها ونهضت بضيق ، و قبل أن أنهض للحاق بها استوقفتى المعلمة بإمساكها بيدي بيدها المليئة بالتجعيد ، و وضعت فيها كمية أخرى من الخامات قائلة:

- أحسنت صنعا .. أصنعي لنفسك فستانًا! وأريني إيه ريشما تنتهين!.

نظرت بطرف عيني للفتاة الجاية على الفراش الذى بالطبع قد بدأ بالتبلي من دموعها الغزيرة الساذجة ، وعلى عجلة من أمرى لملمت الخامات والفستان الصغير الذى قمت بصنعه وابتسمت للمعلمة أشكرها ، وغادرت الدرس مستذكرة . أسرعت بوضع كل ما أحمل على فراشى وجلست على طرف فراش إيفي وهمست:

- إيفي لم تكوني أنت المقصودة قطًا.

سمعت صوت شهقاتها بالبكاء ، فوضعت يدي على ظهرها أمسح عليه بحنان وهمست كي لا تسمعنا باقى الفتيات:

- كنت فقط أرد اعتباري .. وتحوّل الأمر إليك دون قصد!.

- أنت حتى لم تدافعي عنى! اتركيني وشأنى!.

قالتها لي و قبل أن أرد ظهر لي ظافر من العدم وقال بهدوء:

- تبدين متعددة المواهب.. كما أنتي أرى فيك بذرة لام حنون.

وقالها مشيرًا لما تفعله يدي بلطف لشعر إيفي الناعم فأشحت وجهي عنه بغير اهتمام، لأجده قال ببراءة:

- ربما كما قلت سابقًا.. كنت ربة منزل حية الضمير وأمًا أيضًا في حياتك السابقة!.

تدركت قدرتي على تقطيع البصل والتنظيف وتهدت.. أفكري في ما قال للتو، ودون وعي ابسمت بحنين لشيء ربما يكون صحيحاً.. لكن سرعان من نفضت ذلك التفكير عني وهمست في أذن إيفي القريبة مني:

- آسفة.. أنت أول من استقبلني بهذا الطابق وأول صديقة لي، لن أكون لئيمة معك أبداً.

مسكينة إيفي.. أشعر بالتعاطف تجاهها..

- دعي قلب الأم جانباً وقومي بعمل أي شيء مفيد، كاستكمال ما بدأته في الحياة مثلاً.

تهدت بهدوء لتلمع الفكرة بعقولي، فكرة تجعلني أستعمل خاماتي الخاصة التي حصلت عليها للتو وكسب صداقه إيفي من جديد!

استغرقت دقائق فقط لأجمع أفكاري وأرتب الخامات أمامي ثم بدأت بالتنفيذ. بين الوقت والآخر كنت ألاحظ ظافرًا يرفع عينيه من بين كتاب إيفي ليراقب ما أفعل، وفي مرّة استقرّني بقوله:

- إيفي ضعيفة؛ قليلة الموهبة، مزاحية وعاطفية.. فلا تكتري بكسب ودها بتلك الدمية الصلعاء!.

نظرت للدمية التي أوشكت على الانتهاء منها، بثبيت زرين باللون البني كعينيها وردت على ما قال بصدق وشروع:

- تلك العروس هي إيفي.. لديها ضحكة صافية بريئة...
وفكرت بهدوء بينما عيناي تتجولان على الدمية التي ألبستها الفستان الصغير:

- أريد أن أعطيها إياها، فهي تشبهها كثيراً.. عدا افتقارها للشعر البني
المموج...

هز ظافر كتفيه ليظهر لي اللامبالاة خاصةه وتابع قراءة الكتاب بيده.. مر
وقت إضافي في رحلت فيه المعلمة.. لتصرخ فتاة بحماس:

- هيّا هيّا سأحكي لكن القصة!.

أخفيت الدمية تحت وسادتي بجانب الكتاب الذي وضعه ظافر للتّ، لأجده
يقول وهو ينظر ل ساعته الرملية بينما يخفّيها في عباءته:

- اقترب وقت النوم؛ لا تنغمسي معهن بالحكايات كما قلت لك من قبل.. وإن
شعرت بالخوف انسحبني فوراً...

هزّت رأسي بخفاء وتحرّكت لتجمع الفتيات وفكّرت بفضول:
- ما الذي قد يثير فزعي لمعرفة قصة الثلاث فتيات اللاتي أحضرهن قابضو
الأرواح!.

تعني ظافر فنظرت له بغرابة وسألته بصمت:

- هل ستسمع تلك الحكاية؟ ألم تحدث أمّام عينيك وتعرف ما سببها؟.
أدّرني من كتفي لأكون في مواجهة الفتّيات وهمس في أذني منبّها:
- الفتّيات لا يرّيني، ومن المفترض أنك لا ترين حّراسهن.. لذا تصرّ في على
هذا النحو...
فكّرت بغرابة:

- لماذا؟ ألا يسحر الحارس عين من يحرسها لترى أي شيء؟ كما تفعل أنت لعيني؟.

نهد وقال بصبر:

- أنت عروس في حماية الحارس ظافر.. فلا تعجبني من كونك مميزة عنهن.

التفت له، وأراهن أنه يبسم ابتسامة متسلية، لكن هذا القناع القماشي الأسود المتزوج مع غطاء الرأس المنسدل على وجهه لا يساعدني في التأكد من ظني هذا.. فحرّكت شفتي بما أملية عليه بعقلني:

- مغورو.

اعدل في وقوفه بعد أن كان مائلاً إلىّي، وضع كلتا يديه خلف ظهره وأشرف علينا من علىّ كما فعل أكثر من حارس تزامناً مع بدء العروس بالحديث:

- تعلم أن حارسي قد أمن فتح قبور عدّة مرات ليسهل وظيفة قابضي الأرواح.

قالتها بزهو ولاحظت أنها تتبادل النظرات والابتسامات مع حارسها الذي وقف واثقاً، واستطردت:

- حكى لي عن وصول ثلاث فتيات من مكان بالخارج.

همست بعض الفتيات بكلام به عدم فهم، فأوضحت الفتاة، وقد التف حول فراشها عدد أكبر حتى أصبح شبيهاً بالزحام:

- عرائس.. مهداة للأمير غيث.

- هدايا.

- وماذا عننا؟.

- من أرسلهن؟.

- غيث؟ اسمه غيث؟ من المطر؟.

كلها تساؤلات قيلت على لسان العرائس، وكان آخر تساؤل من الفتاة الأقل خبرة ومعرفة بينهن.. أنا!

- مهداة من أمير بيقعة أخرى لا يهم اسمها.. والفتيات أعيد تأهيلهنّ ودخلن جناح الأمير فوراً!.

قالتها لأغرق أنا في ذكرى رؤية ثلاثة من قابضي الأرواح يحملن ثلاثة فتيات بهيئة مزرية وكأنهنّ أربعين من تحت التراب منذ لحظات... وقبل أن أصل لنقطة تذكرني نظرة قابض الأرواح لي، اختلط ما قالته العروس منذ قليل بما قالته للتو: حارسها يؤمن بفتح القبور.. فهل فعلها حارس هذه المرأة أيضاً؟ أقصد..

«هل أخرجوا الفتيات من القبور، وبدون أي اختبارات دخلن غرفة الأمير؟».

نظرت لي الفتيات باهتمام لسؤالي، والذي أدركت وقتها أنني طرحته بصوتٍ مسموع.. فأحاببني الفتاة:

- نعم هذا لأنهنّ أميرات أصلًا!.

ضحكـت أنا بغير فهم، وضيقـت المسافة بين حاجبي وتساءـلت:

- أميرات؟ كيف وأنا لم أدرك أنـني عروس حتى آخر لحظة؟!.

قلـتها باستـتكـار لتـضـحـكـ الفتـيات وـقـالتـ إـحـدـاهـنـ تـؤـيـدـ ماـ قـلتـ:

- هذا صـحـيـحـ.. الأمـيرـةـ تكونـ عـرـوـسـ أـوـلـاـ، تـجـلـسـ مـعـنـاـ بـالـطـابـيقـ، تـشـارـكـناـ وـجـبـاتـ الطـعـامـ وـالـدـرـوـسـ، وـحـينـ يـأـتـيـ الـوقـتـ الـمـنـاسـبـ لـهـاـ تـقـفـ عـلـىـ بـابـ الـأـمـيرـ بـأـمـرـ مـنـهـ.. ليـجـعـلـهـاـ أـمـيرـةـ!.

تعـالـتـ الـهـمـسـاتـ الـمـشـكـكـةـ فيـ حـدـيـثـ الـعـرـوـسـ الـأـوـلـىـ، فـنـظـرـتـ لـحـارـسـهاـ الـذـيـ انـحـنـىـ عـلـىـ أـذـنـيهـاـ يـخـبـرـهـاـ بـالـمـزـيدـ مـنـ التـفـاصـيلـ، وـفـيـ نـفـسـ الـلـحـظـةـ انـحـنـىـ ظـافـرـ إـلـيـ لـيـقـولـ بـصـوـتـهـ الـعـمـيقـ:

- لا تلفتي النظر لقصة قدومك لهذا الطابق.. لا تكوني مثيرة للشكوك والريبة.

هزّت رأسي بخفة وأهفت سمعي لفتاة التي بدأت بالاسترداد:

- الفتيات لسن عرائس مثلنا.. بل أميرات.. أميرات حقيقيات!.

واستطردت بصدق من يعرف الحقائق كلها:

- كانت كل واحدة منهنّ أميرة في حياتها السابقة؛ لديهنّ كل شيء؛ الجمال، الأنقة والتهذيب، أيضًا الصوت العذب الرقيق والقامة المعتدلة ذات الخصر الرفيع.. ومؤهلات عالية أخرى! كملكات التحل في الخليقة!.

قالتها وانفجرت بالضحك مع الفتيات الآخريات، ثم ختمت الموضوع بـ:

- وهذه صدقة ليست العطايا الأولى للأمير من أمير آخر.. فكما تعلمون، هو يسْتَهْلِكُ الكثير من الأميرات!.

ضحكَت بدلال فاحمر وجهي وفَكَّرت:

- ظافر.. هل لك أن تأخذ الحراس لاستنشاق الهواء خارج الطابق.. أو خارج القلعة؟ يبدو أن الحديث قد أخذ منحني آخر.. ولن أشعر بالراحة بينما أرى النظارات المنحرفة في عيون هؤلاء الذئاب!.

ضحكَ بسخرية وقال:

- ثرثرة الفتيات هذه لا تعنيني في شيء.. أما هم، فلن يفوتوا رؤية تلك الحمرة على خد كل واحدة منكن.. لذا اعتادي الأمر، أو اخليدي للنوم أفضل...!

تنهّدت وفَكَّرت بعناد:

- بل سأبقى!.

واستمعت لما تقول الفتاة:

- حارسي يعرف الكثير من قابضي الأرواح وعندما يكون لديه شيء مهم يخبرني به.

وقالت أخرى:

- وأنت لا تخلين علينا بما يقول!

ابتسمت الفتاة الأولى ولوحت لنا بيديها قائلة:

- يكفي هذا لليوم عزيزاتي.. سأخلد للنوم...

قامت وخلفها حارسها، قامت بتحفيض الإضاءة بسكب القليل من الماء على الشعارات ونفع الشموع.. وابتسمت لفتاة ما قائلة:

- لقد سهّلت عليكِ المهمة.. أشعريهن بالذعر عزيزتي!

نظرت لفتاة بجانبي وتساءلت برببة:

- ماذا الآن؟.

ابتسمت بحماس وقالت:

- وقت حكاية الرعب!

ابتلعت غصّة في حلقي ونظرت حولي لأجد أن عدداً انحسر بشكلٍ ملحوظ، فأصبحنا نجلس في دائرة صغيرة لا يصلها إلا بعض من ضوء القمر، وشبح ضوء قريب من المستراح.. فتنهدت وقلت بعالي بحماس لاكتشاف المزيد عن شخصيّتي:

- الآن سأُعرف إن كنت سآخاف أم لا...

عدت ببصري لتلك الدائرة المهيّبة التي نجلس بها، كل فتاة تجلس القرفصاء ويقف خلف كل واحدة منهن حارسها بثبات وهدوء، إلا من بعض همسات منحرفة يصدرها فتاة قليلة من الحرّاس، لم تخف كلماتهم البذيئة عنّي للأسف مما

أصابني بالتقزّز، لكنني صمدت لأسمع حكاية الفتاة التي بدت واثقة حين بدأت
القول:

- هل تتذَّكر أي منكِّن ماذا حدث لها قبل أن تأتي لسجن القصر؟
وقبل أن ترد أي من الفتيات استطردت:
- ولا أقصد بقولي تلك الذكريات الواهنة التي تأتينا عن حياتنا السابقة، بل
أقصد تلك اللحظات البسيطة بين الحياة والموت والقدوم للعالم الآخر...
عمّ الصمت، فلا أحد يعلم ما تحدّث عنه! ابتسمت الفتاة بانتحسار، وبدأت
بالاسترداد:

- إذا لم تسمعن قط بما تسمّي.. رقصة الوداع!..
ابتسمت أكثر من فتاة بجهل، لتزيد ابتسامة الفتاة بخبث وتسلي، وكأنها
تستمع لإيقاع منظم يصدره كل قلب متربّع هنا، ومن بينهم قلبي.. الذي سيشعر
بالخوف لا محالة.. أشعر بهذا.. سمعنا صوت ضحكة قصيرة متسلية، توّقّعت أن
تكون منبعثة من صاحبة الحكاية، إلا أن العيون كانت كلها مصوّبة نحو إزالين؛ التي
قامت بغرور ليرفرف شعرها الأشقر المموج خلف ظهرها..

لاحظت حركة ظافر بالخلف، اختفى صوت خطواته بالابتعاد بعد أن كان واقفاً
بالقرب مني، ليتبع المغرورة للشرفة المعتمة إلا من ضوء القمر الكبير.. وها هو
مجدداً.. يستنقي نفسه من القواعد التي يتذَّكرها جيداً!

فجأة تذكّرت كلمات أغنية إزالين ذات الكلمات الغريبة واللحن الهادئ المريح
والمربي في آن واحد.. «استثنيني..» اقشعرّ بدني من تلك الكلمة ذات الصيغة
الغريبة، وكأنها لا تغّيّ عن نفسها.. بل عن أحد آخر..



{١٠}

٢- وقت النوح وما قبله

أفقت من شرودي، فلا أريد أن أفوّت تلك القصة ذات العنوان الغريب..
«رقصة الوداع».. والتي بدأت الفتاة بقصّها علينا:

- يُحكى أن فتيات القصر بجميع القابهن؛ أميرة كانت، عروس أو خادمة؛ كانت في يوم من الأيام نائمة في قبرها في سبات عميق، مملوكة لقابض الأرواح الذي قبل روحها من الحياة؛ تكون حبيبته، عروسه وأميرته.. ويكون هو حبيبها وخدمتها. يحيا بالقرب منها، ومن حبيباته الآخريات، وحين ينساها جميع من عرفوها بالحياة، يكون هذا وقت انتقالها للعالم الآخر... يأتي حارس من قصر الأمير ليطلب تحرير الفتيات، يشرف على فتح القبور ليلاقي نظرة على الفتاة، ثم يتركها لحبيبها كي يودّعها؛ بالرقصة الأخيرة.. يُقال إن قابض الأرواح يبكي فراغاً لأميرته؛ يقربها من هيكله ويحتضنها دامع العينين، ليصحو جسدها النائم المبلل بدموعه وتبتسم له بحب، تمسك بيديه أو تطّق خصره لتمايل معه على أنغام صوته الحزين بالغناء والنواح.. وحين تجف دموع عينيه تنتهي الرقصة، كما تنتهي علاقته بها؛ وتصبح مجرد أمانة عليه تسليمها لقصر الأمير. يلقي عليها النظرة الأخيرة في فراشها بإحدى زنازين سجن القصر.. تمر فترة ما، تُمحى فيها جميع ذكرياتها الخاصة بحياتها الأولى، فترة بقائتها بالقبر، وعلاقتها بقابض الأرواح، ثم تستيقظ؛ لتشهق أول أنفاسها بالعالم الآخر، فيكون لها حارس يلزمهها كظلّها أينما ذهبت حتى تقف أمام باب جناح الأمير!.

اقشعرّ بدني وشعرت ببرودة أطراقي حين انتهت الفتاة من السرد، لينتهي معه
خيالي الذي صورّ لي كل شيء وكأنه يحدث لي!

رفعت عيني للفتيات المتوجسات خوفاً من حولي، وفجأة صدرت صرخة
مذعورة! وكانت لعروس ذات شعر أسود طويل يغطي عينيها وناعم بطريقة غريبة.
نظرنا لها بغرابة لنجد أن وجنتيها قد تحولتا للون الأحمر، فضحت صاحبة
القصة بانتصار لتبعها ضحكات أخرى قليلة، لالمح أنا يد حارس الفتاة الصارخة
تتجوّل على عنقها! إذاً هذا ما جعلها تبدو مذعورة فجأة! كانت حركته مباغة، ولم
يلبث ذلك الحارس بأن همس في أذنها بشيءٍ ما، فاستأذنت من الفتيات ونهضت
للنوم، ومن خلفها يسير حارسها. حين ابتعدا عن الفتيات قليلاً أصبح بجانبها،
جذبها من وسطها بذراعيه ليقربها منه بطريقة وقحة للغاية، بينما يهمس المزيد
وال المزيد في أذنها الصغيرة. كم أشعرني هذا بالغرابة! لماذا هي مستسلمة لحارسها
 بهذه الطريقة؟!

باختفاء طيفيهما ظهر لي جسد ظافر، يستند إلى الشرفة بظهره، عاقداً كلتا
ذراعيه أمام صدره.. لا أعلم لم يقف مركزاً حواسه هكذا بالقرب من تلك الفتاة
بالذات.. هل هو منجذب لجمالها الملفت للأنظار؟ هل هو شعرها الأشقر الدافئ
كلون الشمس التي لم تغب عن بالي للحظة؟ لا أعلم.. ولا أهتم.. وما شأنى أنا؟
يكفي أنه لا يصادق باقي الحرس ولا ينطق بالألفاظ التي ينطقون بها هم.. تنهدت
وتذكرت أول ما سمعت عنه.. بين السجن والقصر:

- اظفر بها يا ظافر.. كما تظفر بكل شيء!

توقفت عند هذا القول.. كيف يظفر بكل شيء؟! وما هو يا ترى ما جعلهم
يتحدّثون إليه بتلك الطريقة الحاسدة المغتاظة بينما هنا لا يتحدث إليه أحد؟
قال أنه غير مرأى بالنسبة للفتيات.. فالامر لا يتعلّق بهن.. إذاً فما هو هذا الأمر
الخفي؟!

نظرت لإزالين التي تراقب القمر الكبير بشروود، تضع وجهها الناعم بين كفيها.. تبدو هادئة.. ككلمة «استثنيني» التي غنتها لترسخ في ذهني بغرابة. التفت ظافر إلى، شعرت بنظرته رغم عدم رؤيتي لوجهه، فابتسمت بعد أن أفقت من شروودي وأدرت وجهي للفتيات، والتي بدت كل واحدة منها منصته باهتمام ملئ تحدّث:

- فعلتها مع حارسي.. هو الرجل الأول الذي سكن قلبي بهذا العالم!.

هو قلبي وزادت دقاته وأرهفت سمعي، لأجد فتاة تتساءل باستنكار:

- يا قليلة الحباء! متى وكيف ونحن ننام على فُرُشٍ شبه متلاصقة ببعضها البعض! ولا تفصلنا غير تلك الستائر الشفافة!.

زفرت الفتاة المذنبة ورفعت رأسها بعناد، فلاحظت رسمة عينيها بالكحل الذي أظهر عينيها الرماديتين المخيفتين.. ذكراني بعيني ظافر للحظة.. حين لمحتهما في مرّة انحرس فيها غطاء رأسه للخلف قليلاً..

- لا عيب في أن يمتلكني رجل قبل الأمير.. لن أنتظره أنا وجسدي الجميل للأبد!.

شهقت الفتيات من قول تلك العنيدة، وتابعت الأخرى توبخها قائلة:

- لقد قلتِ أنكِ كنتِ غير عذراء في حياتك الأولى.. لا أدرى كيف عرفتِ لا يهمني، لكن ما يهم أنه بما أنكِ استيقظتِ من بعد موتك عذراء، فهذا لسبب!.

شهقت بعض الهواء وتابعت بتحفّز:

- لأننا عرائس الأمير! وبالطبع الأمير هو من يضع تلك القواعد لرغبته الخاصة!.

احمر وجهي ونظرت لذات العيون الرمادية كما فعلت باقي الفتيات، ننتظر رداً قوياً..

- العقل هو ما يكون بـكرا لا الجسد! وبما أنتي تذكرت - بالطريقة التي لا تهمك - كوني مملوكة لأكثر من رجل في حياتي الأولى، فهذا لا يجعلني بـكرا على أية حال.. فلن الخداع إذا.

قالتها بثقة وغرور، فتشهق الأخرى وتقول بحزم:

- خداع؟ من المخادع هنا! إنها أنت! أنت المخادعة!.

بسخونة الحوار؛ ارتفعت نبرة كحيلة العينين قائلة بخبث جمـد أوصالي:

- إن كنت ترين نفسك بريئة، رغم شـكـي في هذا.. فالكثيرات هنا لسن كذلك! أغلب الفتيات هنا لسن بـعذرـاـت!.

خرست الألسنة بقولها.. حتى إن الصمت المريـب هذا فتح بـاب عـقـل كل وـاحـدة منـا.. وجعلـها تـسـأـل.. منـ أـيـضاـ تـقـعـلـ هـذـاـ؟ إـلاـ أنـ الفتـاةـ اـسـطـرـدـتـ قولـها لـتـخـتـمـ النقـاشـ الجـريـءـ:

- لنـ تـجـدـيـ بـيـنـنـاـ عـرـوـسـاـ عـذـرـاءـ بـجـسـدـهاـ وـعـقـلـهاـ مـعـاـ! فـالـعـهـرـ لـاـ يـسـىـ!.

قالـتهاـ وـقـامـتـ مـنـ مـكـانـهـاـ، وـاتـجـهـتـ لـفـراـشـهـاـ وـلـمـ يـتـبعـهاـ حـارـسـهـاـ، بلـ اـبـتـسـمـ اـبـسـامـةـ صـفـرـاءـ بـيـنـمـاـ اـرـتـقـعـتـ لـهـ عـيـونـ الـحـرـسـ بـدـهـشـةـ وـإـعـجـابـ.. وـقـالـ أحـدـهـمـ بـخـيـبـةـ أـمـلـ:

- رـبـحـ الـرـهـانـ كـكـلـ مـرـةـ.. كـمـ هوـ مـحـظـوظـ!.

أـشـعـتـ عـيـنـيـ بـذـعـرـ وـتـذـكـرـتـ ماـ سـمـعـتـ بـالـسـتـرـاحـ قـبـلـ الـدـرـسـ. تـجـمـدـ قـلـبـيـ للـحظـةـ قـبـلـ أـنـ تـخـرـجـ دـقـاتـهـ بـطـيـئـةـ، لـأـشـعـرـ بـشـقـلـ صـدـريـ وـتـقـفـسـيـ.. إـذـاـ.. هـذـهـ هـيـ فـتـاةـ الـحـارـسـ الـتـيـ تـحـدـثـوـعـنـهـاـ! وـالـحـارـسـ الـآنـ فـخـورـ بـفـعـلـتـهـ الـمـشـيـنـةـ مـعـهـاـ!

يـبـنـمـاـ أـنـاـ غـارـقـةـ فيـ أـفـكـارـيـ الـمـرـتـابـةـ وـهـوـاجـسـيـ بـشـأـنـ تـحـذـيرـاتـ ظـافـرـ، سـمـعـتـ شـهـقـةـ فـتـاةـ، فـقـنـظـرـتـ إـلـىـ مـصـدـرـ الصـوتـ بـيـطـءـ لأـجـدـ الـحـارـسـ ذـاـ الفـعـلـ الـمـشـيـنـ يـعـتـدـلـ بـعـدـ أـنـ قـبـلـ فـتـاةـ ماـ عـلـىـ زـاوـيـةـ شـفـيـتـهـاـ.. تـلـكـ الـمـنـطـقـةـ الـتـيـ وـضـعـتـ الـفـتـاةـ يـدـهـاـ عـلـيـهـاـ بـذـعـرـ.. بـيـنـمـاـ حـارـسـهـاـ يـهـنـيـ الـفـائـزـ بـالـرـهـانـ بـفـتـورـ قـائـلـاـ:

- ألم تأخذ جائزتك؟ هيّا اذهب بعيداً.. يكفي قبلة واحدة!.

ابسم الآخر بخبت وهمس:

- كم أردت أن أتمادي، لكن الصبر.. ليس هذا آخر رهان!.

وضعت يدي على فمي بصدمة وفربت الرحيل.. نعم.. على الانسحاب! خشيت أن تتعلق عيناي بعين أحد منهم، وبينما أنا أنسحب مغادرة إلى فراشي، سمعت هممة خافتة تأتي على بعد قليل من الفُرش من مكانى، فسرت ببطء وبدافع الفضول أقترب من مصدر الصوت.. لأجد شيئاً لم أكن لأتوقعه في تلك اللحظة بالذات.. فعلى شبح الضوء الخافت المنبعث من الشعلة اليتيمة - بالقرب من المستراح - رأيت تلك الفتاة، التي يغطي شعرها الناعم عينيها، تفعل ما حكت عنه ذات العيون الرمادية منذ مجرّد دقيقة ملعونه واحدة، بينما تغمغم بكلمات العشق لحارسها الذي يبدو منجرفاً وراء كل ما تقول.. مجارياً لها في مشاعرها تلك!

زاد انقباض قلبي وتبعته معدتي فوضعت يدي على معدتي المتألمة وفجأة استدار إلى الحارس بعد أن أشارت فتاته إلى وجهي المنقبض! ليتوقف عن ما يفعل ويغلق الستار بقلة حياء.. بعد أن تلاقت عيني بعينه!

قبل أن أدرك مدى الخطر.. شعرت بيدِ توضع على كتفي من الخلف، فانتقضت بذعر واستدرت لأرى من الفاعل.. لأجد أنه فقط ظافر.. يقف بهدوئه المعهود.

لا أدرى إن كان قد رأى ما رأيت أنا، فهو وء يخونني في كل مرّة حاولت فهم ما وراء هذا القناع، لكن ما أنا متأكدة منه أنتي لن أستطيع الصمود، أريد إفراج ما في معدتي التي زادت انقباضاتها. هرولت للمستراح بما تبقى لي من قوّة، أصم أذني عن المزيد من الكلمات البذيئة التي تخرج في مثل هذا الوقت؛ فبرغم عدم تبيّن الأوقات من بعضها بالنسبة لي بسبب هذا الظلام اللعين، فإنني استطعت تميّز هذا الوقت من بين الباقيين.. وهذا الوقت أصبح ثقيلاً على قلبي.. هو وقت النوم..

جثوت على ركبتي المترعشتين وأفرغت ما بمعدي.. غسلت وجهي وأمساني
بضعف وتركت قطرات الماء تنهمر مني لتبرد سخونة جسدي المرتات من كل شيء.
مررت من أمام فراشي بمنتهى الأدب، منعزلة عن ما حولي بشعري الذي أسدلته
على عيني من الجانبين، ارتميت على فراشي وتدثرت جيداً، دون النظر لفراش
إيفي للاطمئنان عليها، وإكمال دميتها.. أو حتى قراءة الكتاب الذي كنت متحمسة
له وقت الغداء.. فقط غطيت وجهي بطرف غطائي وأغمضت عيني، محاولة
الهدوء.. وبث الطمأنينة في نفسي.. إلا أن صوت ظاهر ظهر بجانب أذني بينما
يحكم الغطاء على يدثريني جيداً:

- لقد حرستك لوقت قصير لكنه كافٍ لتدريكي عدم فعلي لأي شيء من هذا
النوع.. بإمكانك الوثوق بي، فأنا هنا من أجلك...

واستطرد بهمس ليطمئنني:

- سأحمسك...

سرى كلامه بجسدي ليسكن موضع الألم به، ويخفض صوت الطنين بعقله،
فكُررت بضعف:

- ليس لي خيار آخر.. أنا أثق بك ظافر.

لم أدرِ ماذا أقول.. لكن كلماته حقاً جعلتني أهداً كما زادت طمأنينتي حين
وضع يديه على جبيني وهمس ببعض الكلمات غير المفهومة بالنسبة لي.. لأغمض
أنا عيني وأذهب في عالم الأحلام.. بينما صوته كان آخر ما سمعته:

- نوماً هنيئاً إليونورا.. ستكونين بخير...

وتبيّن لي صوت غناء إزالين في الخلفية.. وهي تقول:

- استثنيني...



{11}

– رقصة ثنائية.. وسر يجب اكتشافه –

فتحت عيني بيضاء أمامه آملة أن تصدمني أشعة الشمس عبر أي منفذ، أتذكّر
أنتي كنت معتادة على العيش في الضوء، أستيقظ فيه بنشاط وأعمل حتى يخفت
ويذهب؛ ليأتي الضيف التقيّل على قلبي.. القمر!

أراه مغروساً كطاووس نسي أن ليس لريشه معنى بدون ألوانه.. فالقمر ينسى أن
ضوءه من الشمس؛ فأراه متغطّرّاً بما يملك من جمال!

– إيفي.. أيتها الصغيرة الكسولة.. انهضي كي لا تتأخرّ!

انتبهت على صوتِ ذكوري حنون ينادي زميلتي، فاستدرت إليه بحذر كي لا
يدرك أنتي أراه... لأرى إيفي تجذب الغطاء على وجهها أكثر قائلة بضجر:

– أنا لست صغيرة.. بل أنت الصغير!

كتمت ضحكتي لأنظر لحارسها، لأراه قصيراً لكن بيئة معتدلة.. يشبهها
بدرجة كبيرة، نفس لون العينين والشعر ونعومة البشرة؛ وكأنهما شقيقان!

– حسناً أنا صغير لكنكِ أصغر.. كفى كسلاماً.

قالها بتبرُّم واضح.. كتبرم الأطفال، كما فعلت هي! فأفلاتت مني ضحكة رغمّاً
عني.. لينظر لي الحارس شرزاً، فأدرت أنا وجهي للجهة الأخرى أمثل السعال
الخفيف.. لأجد ظافراً الجالس على الجهة الأخرى من فراشي قد أغلق الكتاب
للتتوّرّف رأسه إلى قائلًا:

- استعدِي لاستقبال شيءٍ جديدٍاليوم...

عبست ليزيرني العبوس جمالاً بحاجبي الكثيفين وتساءلت:

- مَاذا تقصِّد؟.

فأشار لي إلى المستراح، لأزحف أنا إلى ركبتي لآخر السرير كي ألقى نظرة على ما يشير إليه، فوجدت صفاً طويلاً من الفتيات.. يقفن في انتظار دورهن بهدوء وكسل ينمّ عن حقيقة استيقاظهن من دقائق فقط.. فشهقت بهمّس وقلت بعقلِي:

- ليس هذا وقتاً للصفوف والنظام! لدى حاجة ملحة في الذهاب للمستراح!.

سمعت ضحكة ظافر وقوله المشاكس:

- لست وحدك.. جميعهن يشعرون بنفس الحاجة الملحّة!.

وأضاف وهو يزيل الغطاء عنِي:

- قفي في الصف قبل أن تسبِّك صديقتك الصغيرة... .

انتبهت لإيفي التي نهضت، فالتفت لها وناديتها.. فنظرت لي بعين يغلب عليها النعاس بينما الأخرى شبه مغلقة.. قلت بابتسامة ودودة:

- لقد صنعت لك هدية صغيرة.. وأعتقد أنك رأيت جزءاً منها بالأمس... .

وأضفت معتذرة:

- لكن تنقصها خامة لم أجدها بتلك الخامات التي أعطيت لي... .

أريد أن أرى ابتسامتها بشدّة، فشيء ما بداخلي يريد استعادة أي بهجة بعد الاستيقاظ، تمويضاً عن ضوء الشمس وصوت العصافير المبهج..

نهضت من فراشي بينما التقطت الدمية القطنية، ناولتها إياها مبتسمة بترقّب، لتأخذها مني بيته.. فركت عينيها كالأطفال وأمعنت النظر في هديتها،

لتتسع ابتسامتها الخجولة.. وقطع هذا الصمت صوت حارسها والذي قال بابتسامة دافئة ولهجة طفولية قليلاً:

- لم تكن الفتاة مذنبة بالأمس.. سامحها إيفي سامحها!.

اتسعت ابتسامة الفتاة ونظرت لي بعينيها البريئتين.. وسرعان ما قفزت فوق سريرها لتخطأه وتقف أمامي، واحتضنتني بعفوية! ضحكت أنا وربت على كتفيها وهمست:

- تشبهك كثيراً حين تبسمين!.

- أشكرك إيليونورا.. هذا لطفٌ منك حقاً!

قطع الصمت صوت نحنحة الحارسين.. وأشارتهما على الصفة في نفس الوقت.. لترتبك كل واحدة منا.. فقلت:

- هيّا للصف...

هزّت رأسها بصمتٍ وتحرّكنا...



بعد انتهاء المهمة المستحيلة بدأت أستوعب أن هناك مكاناً يجب الذهاب إليه بسبب رؤية الطابق شبه هادئ، التقت إيفي قائلة:

- أين ذهبت باقي العرائس؟.

تركت فرشاة شعرها وقالت بينما تربّت على صفيرتها على كتفها:

- ذهبن لدرس الرقص.. نذهب إليه كل يوم بعد أن نستيقظ في نفس الميعاد...

خرجت معها فأمسكت يدي لتريني الطريق، حارسي على يميني وحارسها على شماليها، نهبط الدرج الواسع للطابق الآخر.. فكّرت في شيء وسألتها بينما نحن في طريقنا للدرس:

- من يوقف العرائس؟.

نظرت لي وردت سؤالاً بسؤال لكن بحذر:

- من أيقظك أنت؟.

لم أفهم ما ترمي إليه فأجبت بصدق:

- استيقظت وحدي.. حين اكتفيت من النوم فتحت عيني.

ضمت شفتيها ونظرت للخلف وللجانبين، تأكّد من أن لا أحد يسمعنا.. ثم

قالت بهمس:

- إن لم تستيقظي في الوقت المناسب يوقفك الحراس الشخصي.. كي لا

تفوتين الدرس وينخفض مستوىك.

- أي مستوى؟.

تساءلت بغير فهم، فتغاضت عن الهمس في صوتها وقالت بلهجة عادّة:

- لكل عروس مستوى، إن كان عالياً يتم ترشيحها للأمير...

أخبرتني بما يحدث عادة؛ فتدريب الرقص وركوب الخيل، بالإضافة للحياكة والتطريز والغناء لبعض الفتيات يجعل منها عروسّاً عالية المستوى، فتتشاروّر المشرفة مع مساعد الأمير في أمر عرضها عليه، إن لم يكن رأها من قبل في حفل من الحفلات التي غالباً ما تقام سواء بداخل القصر أو خارجه..

صمتت بعد أن أخبرتني بهذه المعلومات.. وصمت أنا أفكّر في ما قالت، ثم

عددت على أصابعِي الأنشطة اليومية للعروس وقلت في نفسي بضيق:

- العروس لديها وقتٌ ضئيل رغم عدم أهمية ما تفعله لنفسها.. فأين سأجد

وقتاً لقراءة ذلك الكتاب، وغيره من الكتب؟.

دلفنا من بابِ كبير واتسعت عيناي دهشة من ما رأيت، فالغرفة كبيرة الحجم،
جدرانها مرايا فقط، كذلك الغرفة التي خلعت فيها ملابسي لأعرضها على المشاهدة
وأحاطني إحساس بالذنب لفعلي هذا بالماضي القريب.. وما هي إلا ثوانٍ وشردت
في انعكاس العديد من العرائس الواقعات حول المرايا، أو الجالسات أرضاً ينتظرن
إشارة للوقوف... على أقصى اليمين وجدت العديد من الآلات الموسيقية.. مختلفة
الأصل، تعرّفت على معظمها بفضل ما تبّقى من ذاكرتي.. سمعت صوتاً رقيقاً لكن
رجولي يقول:

- واحد.. اثنان.. واحد اثنان ثلاثة أربعة.

رفعت رأسي لصاحب الصوت، لأجد أنه مدرب الرقص، يقف برشاقة مريبة
رافعاً كلتا يديه في الهواء بطريقة غريبة، كما يرفع إحدى ساقيه قليلاً عن الأرض،
وبكلماته التي يعيدها، يلمس الأرض بقدمه المروفة ثم يعود ليرفعها من جديد،
ليشكل إحدى الحركات الاستعراضية متزامنة مع حركة يديه.. وما هي إلا ثانيةان
وسمعت صوت همسات.. وكانت للفتيات يشنن إلينا بالاقتراب.. فتحركت بجانب
إيفي وجلسنا أرضاً بجانب إحدى الفتيات.. التي قالت بهمس:

- مزاجه معكَّر اليوم فكونا حذرتين.

هزّت إيفي رأسها بتوّجّس وأشحت أنا وجهي بغير اهتمام، أطالع هيئتي بالمرأة،
وأشاهد ذلك المدرب الذي يقف وسط دائرة من الفتيات اللاتي يقلدن حركاته،
بمزيج من المهارة والترقب.. وما هي إلا لحظات حتى اقترب ظافر وجلس بجانبي،
فهمست بعملي بدهشة عُظمى وأنا ما زلت أطالع المرأة:

- ظافر انظر! أنت بلا انعكاس بالمرأة!.

لم يعلق ظافر على ما قلته، واكتفى بأن أدار وجهي بكفّيه حتى أنظر للمدرب،
فكترت بضمير:

- كنت أنظر للدرس عبر المرأة!.

تجاهل ظافر ما قلته وقال منبئاً:

- لن يكون من الجيد أن يرى عدم ملاحظتك له.

زفرت بضيق.. وأنا التفت.. وفجأة صدح صوت المدرب الغاضب حول كل الأركان:

- من تلك التي زفرت؟ من التي ترى أنها ممتازة ولا تحتاج لتدريب؟!.

أشارت أصابع كثيرة إلى، فتوعدهن أنا بنظراتي حتى التفت لي المدرب.. لاحظت ما يرتدي، كانت قطعة من الملابس واحدة - باللون الفضي هادئ اللمعان- تجسّم جذعه وساقيه بشكل ملحوظ، فبدا غريباً بمظهره غير الرجل بالمرة.. رفعت عيني لعينيه الغاضبتين وقلت كاذبة:

- كنت أنفخ خصلة من شعري عن عيني لا أكثر!.

نظر على شعري المعقود خلف رأسي بطريقة لا تدع أيّاً من خصلاته تقرّ وابتسم بطريقة مستقرّة قائلاً:

- لا أظن أنك تقولين الحقيقة عزيزتي...

و قبل أن أبّرر الكذبة بأخرى، أشار لي بالوقوف، فوقفت ولا أدرى ماذا سيحلّ بي.. سألهني:

- من أين أنتِ؟.

أدرت عيني حول الغرفة وحاوت التذّكر، فقال ظافر منبئاً:

- ليس من المفترض أن تتذكري أي شيء.. هو يعبث بعقلك لا أكثر... .

فهمت مقصد ظافر وقلت ببراءة بصوت مسموع:

- لا أعرف!.

هزّ رأسه وقال وكأنه يصحح كلماته السابقة:

- أرى أنكِ مستجدة.

هزرت رأسي بهدوء وقلت بعقولي:

- وكم أكره أن أكون هكذا! كوني لا أعرف ما سيحدث يُنْتَجْ طنيباً بعقولي!.

- فقط تمالكِي أعصابك.. لن يجرؤ على أن يؤذيكِ.

قالها ظافر فابتسمت أنا بوداعة.. لأمتص غضب ذلك الشخص غريب الهيئة.. وفجأة قال من العدم:

- أرقسي.. أريني ما لديك...

لاحظت أنه يتفقد جسدي بطريقة مكشوفة للغاية.. فرغماً عن رفعت ذراعي لأخبي بهما مفاتن جسدي العلوي الظاهرة تضاريسها في ردائي غير الفاضاض.. وبإشارة منه بدأت عازفستان بأخذ آلتين والعزف عليهما، لحناً متاغماً بموسيقى سريعة.. لم تتحرك شعرة من جسدي، فصاح بصوت مرتفع في سكتة اللحن:

- بدأت الموسيقى! فماذا تنتظرين!.

لم تسعفني ذاكرتي لتذكر أي نوع من أنواع الرقص على تلك الموسيقى، فبرغم معرفتي للآلات إلا أن الأصوات المنبعثة منها لا تشجعني على إبداء أي حركة.. وللحظة تذكّرت حركات المدرب بينما يعدّ حركاته:

- واحد.. اثنان.. واحد اثنان...

قلّدت حركاته وأنا أعد حركاتي بعقولي، وتجاهله لأنظر في المرأة لأراقب انعاكسي، لعلي أصحح ما أفعل.. لكن ما نتج عن حركتي: أقل ما يقال عنه أنه بلاهة.. أو شلل!

ضحكـت الفتيات على مظهـري وأنا أحـاول جـاهـدة رفع قـدمـي والـطـرقـ بها على الأرض الناعمة مع تحـريك يـدي ورأـسي مع اللـحنـ.. كـنتـ كـارـثـيةـ.. لـهـمـ كلـ الحقـ بالـسـخـرـيةـ!

- كفى كفى!.

قالها المدرب بحدّة وغضب ممتزجين بعد أن سئم سريعاً من النظر إلى جسدي غير المتناغم مع الموسيقى، ليُسكت بها العازفتين اللتين أشاحتا بيصرهما بعيداً كي لا تنتقل عدوى الضحك إليهما..

- كارثة: قطعة من الكوارث المتكللة في عروس واحدة بشكل لا يُعقل!.

قالها تعليقاً على أدائي.. ورأيت بما قال بعض المحاملة، ورغم ضحك الفتيات من حولي لم أبسم حتى، بل زادت انقباضات قلبي وتصلب عضلاتي.. حتى قال:

- اتركي الموسيقى واتبعي حركة خصري...

وبانتهائه من آخر كلمة أشار إلى خصره الذي بدأ في الاهتزاز، ليذهب ويأتي للليمين واليسار بحركات صغيرة، سريعة ومرتعشة ففُغرت أنا فاهي بغير استيعاب ولم أحاول حتى تجربة ما قال.. ليزيد صوت القهقةة على مظهرى! سمعت صوت ظافر يتهدّد ويقول بخفوت:

- هل يظنّ أنه رجل؟ هذا المتحول...

صممت أذني عن تلك السبّة التي أطلقها ظافر على المدرب لتصبح ضحكات الحرس الرجالية مع بعض التتحنج -لفصاحة ظافر- بعد أن كانوا صامتين إلا من الهمز واللمز.. كان ينقصني صوتهم في أذني أيضاً!

- حسناً.. قفي في تلك الزاوية على أطراف أصابعك وارفعي ذراعيك للأعلى.. هذا التمرين سيساعدك على تذكّر نوع الرقص الذي تجيدين...

وختم عبارته بـ:

- لا توجد فتاة لا تجيد الرقص!.

- ولا يوجد رجل يجيد الرقص!.

قالها أحد الحرس مقلداً أسلوب ظافر الساخر ليضحك الباقيين بجنون، وأنا
أقف حائرة.. هل يريد تذنيبي؟ حقاً؟

كتمت تهيدتي كي لا يسمعها هذا الأحمق، واتجهت للركن الذي أشار إليه،
لتبتعد الفتيات مفسحات لي الطريق وكأني ملكة متوجة، لكنني فقط فتاة على
وشك الفتك بعظامها الرقيقة من أجل تذنيب.. هه.. مدرب أحمق!

- كم سيطول التمرين؟.

هكذا تسأله بعقولي بينما رفعت نفسي على أصابع قدمي برشاقة ملوجة
بذراعي أعلى رأسي حتى استقرّتا وسكنتا بجوار بعضهما البعض، فأخرج ظافر
ساعته الرملية، نظر بها ولم يرني ما بها، وقال بصوته العميق بهدوء:

- لن تريدين معرفة الصدق، لن يعجبك في هذا الموقف... .

زفرت بخفوتٍ وحذر، لن أستطيع كبت رغبتي بالتنفيذ عن غضبي.. فتململت
في وقتي بطريقةٍ خفيةٍ وقلت بسأّم:

- وهل سأظل واقفة بهذه الوضعية كل وقت التدريب؟.

هزّ ظافر كفيه بلا مبالغة، فنظرت له شرزاً قائلة بداخلِي بغضبٍ مكتوم:

- افعل شيئاً.

هزّ ظافر رأسه نفياً، لأقول أنا بغير تصديق:

- ماذا لا تعرف كيف تسحر قدمي؟ أو تسكن تلك الآلام التي ستنتج عن
وقفتي هذه؟.

ضحك ظافر وجلس متربعاً ليغطيطني، رفع رأسه إلىٌ وقال بمكر:

- بلى.. لكنني أريد نفس النتيجة التي يسعى إليها المدرب... .

عاد بنظره للأمام يراقب الفتيات حول المدرب، وأضاف بخفوت:

- تفاجئيني كلّ مرة بمهارة جديدة.. وهذه المرة سأتقا جأً أيضًا.. لدى إحساس قوي بهذا...

- وأنا لدي إحساس قوي ورغبة في صفع هذا الكائن -لزج الجسد- على وجهه الملطخ بملامح الرجلة! كم يبدو أحمق في هذا الزي!

ضحك ظافر ولم يعلق.. فصمت أنا أحاوِل الترکيز.. وساعدني ظافر قبل أن يصمت تماماً:

- ركّزي على الموسيقى.. وحدها سترشدك.

هرزت رأسي وأغمضت عيني لاستسلم لحاسّة السمع.. دقائق مرت بلا جدوى.. أستمع لمختلف أنواع الموسيقى لترقص عليها فتيات مختلفات -لتثبت حقيقة أن العرائس آتيا من بقاع مختلفة من بلدان الحياة- لكن لم أجد ضالتي بعد.. فتحت عيني بسأم، وقبل أن أحاوِل الهبوط على قدمي لأريهمما قليلاً انتبهت لصمت الجميع مع مناداة المدرب على فتاة ما:

- إزالين.. أمعينا بقليل من الإبداع...

أدرت عيني بسأم من رؤية تلك النظارات الحاقدة على أعين الفتيات.. لم ينظرن إليها هكذا؟ ولم هي هكذا من الأساس! أشعر بأنها قريبة من الكمال.. بطريقة لا توصف!

قبل أن أنغمس في أفكارِي، لاحظت أنها تقترب من الزاوية التي تمكث بها العازفتان، همسَت لواحدة منها بشيء ما وعادت لتصف الدائرة التي زاد اتساعها، لتراجع الجميع لمشاهدتها بصورة أوضح.. أمسكت العازفتان بالتين شكلهما مأْلوف بالنسبة لي.. واحدة ذات أوتار هادئة الصوت والأخرى يتم التفخ في عودها الرفيع مع سدّ بعض الفتحات المستديرة بها.. أسلبت أهدابي أكثر من مرّة بتحفّز ودقّات قلب سريعة، أحاوِل تخمين اللحن الذي سينطلق بعد ثوانٍ فقط، بل أحاوِل التأكّد منه.. أشعر بأنني أعرف ما سيحدث الآن.. لكن كيف أشعر بهذه؟!

وفجأة انطلقت موسيقى هادئة، حاملةً جعلتني أرفع عيني بدهشة لإزالين التي بدأ بحركات الرقص الخفيفة.. تستند على أصابع قدمها اليمنى بينما ترثاح قدمها اليسرى على الأرض، لم تكن ترتدي حذاء.. هذا ما ظهر حين رفعت فستانها بيديها، كما ظهرت قطعة من الزينة على قدميها.. خلخال.. لونه ذهبي، يتدلّى منه قطع آخر بطريقة عشوائية، فتهتزّ مع حركة قدميها ورديفها، لتصدر رنينا خافتًا يليق بصوت الموسيقى.. ويليق بها.. حركة رأسها بتناغم لتسقّر عيناهما على يدها اليمنى، يداها تحرّكان بتمايل كتمايل الأفعى، وصرت أنا مندهشة من حركاتها؛ قلبي يهوي بإيقاع منظم وهادئ الآن.. وكأنه سكن ليراقب تلك الحسناة كما أراقبها أنا!

الجميع مندهش من تمايلها مع موسيقى بطريقة مثالية؛ فلم تقتصر حركاتها على تحريك يديها وقدميها ورأسها فقط.. بل كل جزء في جسدها آخذ دوراً ممتنعاً على أنفاس الآلتين.. وقبل أن تنتهي الموسيقى أنزلت ذراعي من موضعهما وبت أفلد حركاتها.. مغمضة العينين.. وحين فتحتهما فجأة وجدت ظافراً يقف أمامي.. رأيت عينيه مندهشتين من ما أقوم به.. أعتقد أنها كانت تلك النظرة التي كان يطالع بها إزالين بالأمس أمام المرأة، والتي بالطبع كان يراقبها بها منذ ثوانٍ فقط...

مد يده إلى فوضعت يدي اليمنى في يده واليسرى ما زالت تقوم بحركات مائعة.. وقبل أن أدرك ما يجري سرت خلفه، لأراه يعبر من بين جسد الفتيات والحارس كالدخان، ليتركني وسط الدائرة بالقرب من إزالين.. انتبه الموجودون لي.. فأغمضت عيني وركّزت على استكمال حركاتي، بينما أتصور شكلي في تلك الرقصة الشائبة ذات الحركات المتزامنة المتشابهة.. ثوانٍ مرّت على هذا الحال.. لا أرى أي شيء غير ما أصوّره لنفسي.. حتى انتهت الموسيقى.. لأجد تصفيقاً حاراً من مصادر كثيرة.. ففتحت عيني للتلاقي عيني بعيني إزالين المندهشة من فعلتي.. تطالعني بعينيها الزرقاوين بنظرة أخطأت في فهمها.. ظننتها تكبر.. لكنها تحتوي

على معنى آخر لم أعرفه وقتها.. أدرت عيني بين الجموع لأرى تصفيقاً من بعض العرائس من بينهن إيفي المبتسمة بدهشة، أيضاً الحرّاس، المدرب.. وظافرا!

- لا أصدق! لا أستطيع إيقاف تلك القشعريرة التي انتابتني!.

قالها المدرب بلهجة متاثرة، لأنّا لاحظت لمعة عينيه بدموعة يتيمة فرّت على وجنتيه بخيانة، فرسمت ابتسامة شاحبة على طرف شفتيّ بغير فهم، لأجد أنه اقترب من كلينا، أخذ يدي في يده ووضعها في يد إزالين ثم ابتعد ناظراً إلينا، كنت أقف أنا بهدوء التقط أنفاسي، بينما أسمع صوت أنفاس إزالين الرقيقة التي أصقت نصف ظهرها بظهرري بعد أن قربنا المدرب..

- لوحة فنية! إزالين و...

أشار إلىّ وتساءل بإعجاب متجمس:

- ما اسمك؟.

فقلت بهدوءٍ واثق:

- إليونورا.

رفع كفيه مضمومين أمام وجهه بامتنان، قائلاً بنفس التأثير السابق:

- إزالين وإليونورا.. لوحة من الجمال.. آية عظيمة وهبة من القدر!.

رفع كفيه أكثر ونظر لسقف الغرفة قائلاً بخشوعٍ صادق:

- شكرًا للقدر.. أشكرك على ما منحته لنا!.

أنزل يديه ووضعهما في وسطه، بدا الارتياح عليه حين قال:

- أستطيع النوم براحة الآن.. فما أراه أمامي أكثر من كافٍ لحفل عيد مولد الأمير!.

- عيد مولد الأمير؟.

قلتها أنا وإزالين في نفس الوقت مع شهقات الفتيات غير المصدقة.. ليقول المدرب بثقة اكتسبها منا:

- نعم! وسترقصين أنت وهي في هذا الحفل بلا شك!.

زفر بارتياح ومسح على شعره الناعم ثم قال بفبطة:

- الجميع انصراف.. عدا هاتين الجميلتين!.

قامت إيفي من مكانها وأشارت إلى بأنها ستذهب، فهزّت رأسها.. والتفت لإزالين لأجدها قد حصلت على أنفاس منتظمة هادئة، ابتعدت عني حين تلقت عيوننا.. وأشاحت بوجهها للجهة الأخرى حين اقترب ظافر مني..

نظرت لظافر بتساؤل أحمق، لأجده يرفع يده في تساؤل هو الآخر، وقال:

- هل رأيت نفسك؟ كنت تحلىين!.

ابتسمت بغرابة وتساءلت بشك:

- حقاً؟.

هزَ رأسه وقال بصدق وبنبرة دافئة طمأنني:

- كنت أكثر من رائعة!.

كادت وجنتي أن تتلّوّنا باللون الأحمر، تقاجأت بأن نظراته معلقة على إزالين التي انصرفت تقف أمام المرأة، تعدل من وضع شعرها.. فأدركت أنه كان يتحدث عنها هي.. لا أنا!

وقف المدرب بفخر أمامي أنا وإزالين، وحارسانا يقفان بالقرب من ذلك التجمّع الصغير الذي صنعناه.. حارسها هادئ الملامح، أدركت خبيثه من تلك النظرة التي ينظر بها إليها لتقابله هي بلا مبالاة، وكان هو حارس من الذين أسمعهم يتحدثون ببذاءة مع بعضهم البعض أثناء تمضية الوقت بعيداً عنها؛ هي التي من المفترض أن تكون في حمايته..

- اقترب الحفل و كنت أخشى من ندرة المواهب في مجموعتكن.. لكن.. هنا هي موهبة فريدة! تبدوان كالتوأمين.. نسختين متطابقتين الحركات دون أي تدريب حتى! أعجزتني لسانني عن التعبير حقاً..
ابتسمت.. ولم تغير ملامح إزالين.. ولم يزل ظافر عينيه عنها فقط..

تحدى المدرب عن ضرورة التقرب من بعضنا البعض ومشاركة الوقت كي تزيد الثقة بيننا.. وقال أنتا موهوبتان بالفطرة ولكن تحتاج لبعض تمرينات لحفظ على اللياقة وزيادتها.. وصرفتا.. على موعد للغد لبدء تلك التمرينات.. فانصرفت بجانب ظافر الذي بالكاد رفع عينيه عنها.. احترت لأمره ولم يعلق هو على أفكاري.. حتى سمعت إزالين تقول بربية:

- أين أنت ذاهبة؟.

فتوقفت، قلت أنا بغرابة:

- لطابق العرائس.. أ-أليس هذا هو الاتجاه؟.

هز رأسها بالنفي وقالت بتأفف:

- هذا أول يوم كامل لك.. نحن نذهب للاستحمام بعد تمرين الرقص وقبل الإفطار...

وأشارت لي على الجهة التي سنسير منها، فأومنت وقلت بيلاهة:

- آه.. حسناً...

سرنا بالقرب من بعضنا البعض بهدوء.. لا تنطق أي منّا بأي شيء في الظاهر، لكن أنا كنت في هذه اللحظة أتحدى ظافر بعملي، ألغت نظره لشروعه المتكرر في حضور تلك الشقراء:

- لم تتبهني بعدم الذهاب للدرج المؤدي لطابق العرائس؟ في ماذا كنت تفكّر؟ أكنت شارد الذهن؟.

هـ رأسه نفياً ولم يجبني.. بالطبع.. فهذه هي فرصته الذهبية للبقاء بالقرب منها! بدأ الأمر يستقرّني حقاً.. لا أحب فكرة الغموض المتبادل في شخصيته وشخصيّتها -دون أي مبرّر- وهما لا يعرفان بعضهما بعضاً.. أم يعرفان بعضهما بعضاً قبلًا؟!

توقفت إزالين حين تبدّلت الجدران بالصخور على الجانبين، وهمست بشيء لم أسمعه، لأجد أنها تتحرّك بعيداً وحارسها ففر في الماء برشاقة.. لاكتشف أنها نفس بركة الماء العميقه التي سقطت بها حين كنت خادمة دميمه.. دق قلبي بتوجّس.. ورفعت عيني بينما تحرك للأمام قليلاً لتتبّين أمامي صورة شرّكت في وجودها.. العرائس جميعهن عاريات.. يتحسّن جسدهن لتتنظيفه بتمعّن، منهن من تتجاهل أصوات الحرس من حولها ومنهن من تفاعلت مع تعليقاتهم القدرة.. هزّت رأسي للجانبين لأنقض ما رأيت، وفكّرت بضيق:

- لن أقف بين هؤلاء! لن يحدث!

تحركت بتوجّس، لا أريد لأحدhem أن يلحق بي لي راني أخلع ملابسي.. فأين أذهب؟

البركة واسعة، فأخذت طريقاً بعيداً لأصل لآخرها؛ حيث يوجد كهف صغير مظلم، فكّرت في خلع ملابسي هناك ثم النزول للماء النائي بمنتهي الهدوء لأنظر جسدي بأسرع ما لدى من سرعة، وحين اقتربت من الكهف اصطدمت بإزالين التي بمجرد أن رأته رفعت ذراعيها تخفي جسدها عنّ عيني.. وعيّني ظافر.. فانقضت أنا مبتعدة عنها متأسفة.. بينما احتلّ تفكيري شيء واحد فقط.. هل ظهر لي للتو أنها رأت ظافرًا الواقف بجانبي؟

- هل لك أن تمنع أي أحد من القدوم لهنا؟

هـ رأسه وأدار ظهره لي، ليسـ هذا الكهف الذي دخلت إليه.. أو لي راقب الشقراء التي لا تضع على جسدها إلا ذلك الخلخال الذهبي.. أطلقت ضحكة ساخرة من بين شفتي بينما أخلع ملابسي عنـي.. وقلـت بتسليـ:

- تعجبه الفتاة ذات الخلخال.. هاه! الطيور على أشكالها تقع...

وأضفت بعقلِ تائه:

- رغم أنني لا أعلم أي شكل هو.. ولا أتأكد يقينًا أي شكل هي!.

انتهيت من خلع ملابسي ولففت الفستان إلى جسدي حتى أعبر للماء، عبرت بجانب ظافر وتركت الفستان أرضاً وبيطء وحذر مددت قدمي اليسرى للماء لأتفقد حرارته.. فبالمرة الأولى كان دافئاً.. أردت التأكد فقط من أنه كذلك الآن.. لكنني الآن صدمت ببرودته! فارتعد جسدي، ولوسوا حظي تعثرت في فستاني وسقطت بالماء البارد، والذي شعرت بأنني أتجمد من برودته المفاجئة! والأدهى من ذلك، أنني قد أصدرت صوتاً مسموماً التفت له الجميع، ليرونني أنا وإزالين.. عاريتين في زاوية نائية.. وقد كانت هذه فرصة ذهبية للعديد من الحراس الذين فضحتهم نظرات عيونهم الخبيثة!

مسحت إزالين على وجهها بخيبة أمل.. بالطبع كانت تأمل أن تبقى وحدها دون أن يكشف مخبأها المرئي أي أحد.. كما كنت أتمنى أنا..

و قبل أن يقترب أي من الحراس شعرت بظافر خلفي -بالماء- يجذبني من ذراعي، ورأيته يجذب ذراع إزالين أيضًا وخبأنا خلف ظهره.. ثم ترك يدينا للتصبح يداه حرّتين، رسم شيئاً على الماء، ثم أخذه بين يديه وقدفه بالهواء أمامه، ليكون جسدان عاريان بالضبط كجسدي أنا وإزالين.. لا.. بل هما مجسّدان لجسدينا نحن! تحرك الجسدان للجهة الأخرى من الماء، صعدت نسخة إزالين من الماء ومددت يدها لننسخة جسدي، فالتقطتها وخرجتا من الماء، لتبعهما كل العيون.. وكأنهما نحن! وفي نفس اللحظة رفع ظافر ذراعيه للأعلى وهبط بهما بصورة تدريجية، لنرى ستاراً شفافاً من الماء يُعلق الجزء الذي نحن فيه، لتصبح خلوة بسيطة نستطيع فيها الاحتماء من أعين الجميع..

- شكرًا لك...

قالتها إزالين بهدوء هامس وسبحت للجهة البعيدة تحضر أدوات الاستحمام.. فهزّ ظافر رأسه وكأنه يرد عليها.. وأنا؟ فاغرفة فاهي بمنتهى البلاهة.. أسترجع بعلمي ما فعله ظافر للتّو.. لقد خدع الحرّس والعرائس.. أكاد أرى حارسين يتبعان بعينهما - نسختينا المتحرّكتين للدرج! لا أصدق! كم هو بارع في تلك الخدع الغريبة!

قذفني ظافر ببعض الماء برفق أستقيق، وقال مشيرًا لأدوات الاستحمام:

- أسرعِي.. لن ينخدعوا بصورتيكما طويلاً.

هزّت رأسي بسرعة وانصرفت عن عينيه.. فبالرغم من أنه لا ينظر لجسدي فإنّي محرجة من وجوده.. راقيته بطرف عيني يسترخي في إحدى الزوايا، يلعب باللّاء بإصبعه، يرسم أشياء غير مرئية بالنسبة لي.. حتى لاحظت سخونة الماء قليلاً ليصبح دافئاً، بالطبع هو من فعل هذا بتعويذة أخرى غريبة.. وسمعت صوت تهيدة مرتاحه.. كانت لإزالين..

سبحت ببطء وحدّر إلى إزالين وهمست لها متسائلة بغيظ:

- كيف ترين حارسي؟.

نظرت هي إلى بعروف، ثم أشاحت ببصرها بعيداً، مولية ظهرها لي، بينما تنظّف شعرها الذي أصبح لونه داكنًا من أثر الماء عليه..

- أجيبي عن سؤالي!.

قلتها بنبرة غير مصدقة لما فعلته الآن.. المفروحة تتجاهلي! فالتفتت بعد أن سمعت نبرة صوتي لتنظر لي وقالت ببطء:

- لا شأن لكِ...

ضررت الماء بيدي بغضب فالتفتت لي هي مذعورة وهمست بحذر:

- لا تصدري الأصوات! لا نريد أن يكشف مكاننا مرّة أخرى بفضلك!.

مسحت على وجهي الجميل بغضب وقلت بتماسك:
- أنتما.. تثيران غضبي!.

سمعت ضحكة ظافر الهاشة.. فالتفت له وتساءلت بنفاذ صبر:
- ما الأمر ظافر؟ أخبرني!.

تحرّكت إزالين بالقرب مني، وضعت في يدي أدوات الاستحمام وقالت ببرود:
- من الأفضل أن تبدأي قبل أن تأتي المشرفة.. ستدلينا لتناول الإفطار.

لم آخذ منها الأدوات فسقطت من يدها لتطفو على الماء، والذي لاحظت أنه يجري ببطء ويتحرّك نحو أحد الأركان.. ليسقط ويصرف بعيداً.. ربما خارج القصر.. فمدت يدي لألقط الأدوات بملل قبل أن تذهب بعيداً، وأفرغت قليلاً من سائل الاستحمام على يدي وبدأت في الاندماج، مركزة تفكيري على نظافتي الشخصية مؤقتاً، متجاهلة فكرة نظر ظافر وإزالين على جسدي، أو نظرهما لبعضهما البعض.. لا أعلم حقاً.. ومؤقتاً شغلت بالي بالمشطة حين فحصت نظافتي، وقررت أن لا أتازل عن كوني فتاة نظيفة، فبالطبع هذا يكون ضمن المستوى الذي تحدثت عنه إيفي..

مرّ وقت؛ فتحت عيني بعد أن صعدت من تحت الماء الذي أعجبتني حرارته، وصعدت بحذر لألف جسيدي بمنشفة.. وتقاجأت من ما رأيت.. فكان ظافر يجلس مسترخيّاً في الماء، وإزالين جالسة وساقها يتحرّكان بالقرب من رأسه في الماء، جسدها ملفوف بمنشفة وردية، تنظر له بود.. كما يبادلها هونظراتها.. بأخرى.. غير مرئية لعيني بسبب غطاء رأسه اللعين!

- هل لي بتفسير؟.

قلتها وأنا ألف منشفة أخرى على رأسي، بينما أقترب منهما بغيظ، فتظرا إلى باستههام، لأقول أنا بنفاذ صبر:

- أنتما عاشقان أليس كذلك؟ نظراتكم فاضحة لأبعد حد!.

وأضفت بلهجة تهديد:

- إن لم تخبراني بما أرى سأفضحكم أمام المشرفة!.

زفرت إزالين بقلق ونظرت لظافر وقالت بضعف:

- إلى متى سيظلّ الأمر سرّاً؟.

وأضافت بلهجة أشبه بالاستجداء:

- لقد سئمت بعديك ظافر!.

عصير الكتب للنشر والتوزيع

{١٢}

– يوم من الجلبة والفرج –

زفرت إزالين بقلق ونظرت لظافر وقالت بضعف:

– إلى متى سيظلّ الأمر سرّاً؟.

وأضافت بلهجة أشبه بالاستجداة:

– لقد سئمت بعُدك ظافر!.

شهقت أنا لقلة حيائها وقلت بغير وعي:

– حتى أنتِ! حتى أنتِ يا مغرورة! يبدو أن العرائس متماثلات في نقطة الحياة هذه!.

أطلق ظافر ضحكته المتسللية، فتظرت إليه قائلة بسخط:

– وأنتِ أيضًا! لم تستثنِ نفسك من القواعد؟ لم تحب عروسًا من الممكن أن تكون أميرة؟ هي ملكُ الأمير فما شأنك أنتِ؟!

– وما شأنك أنتِ؟.

قالها ببرود فتجمدت من نبرته، وسمعت صوت ضحكة إزالين المتسللية الممتزجة ببعض الخجل والقلق.. آه ما العمل الآن! كلاهما يسخر مني رغم غضبي من أمرهما!

– وماذا سيفيدك إن عرفت الحقيقة؟.

قالتـها إـزالـين بـمراـرـة بـعـد أـن عـادـت مـلامـحـها لـلـأـسـى مـرـة أـخـرى.. فـعـمـ الصـمتـ للـلحـظـة.. وـفـكـرـتـ فـيـ ماـ قـالـتـ. لـمـ تـسـقـنـيـ روـيـتـيـ لـلـخـطـأـ لـمـ يـنـشـغـلـ عـقـلـيـ بـكـلـ تـلـكـ التـفـاهـاتـ التـيـ لـا تـعـنـيـ فـيـ شـيـءـ ؟ـ تـهـدـتـ وـقـد سـئـمـتـ مـؤـامـرـاتـ عـقـلـيـ ضـدـيـ، فـتـارـةـ يـشـورـ لـيـعـرـفـ، وـتـارـةـ أـخـرىـ يـطـأـطـيـ مـتـرـاجـعاـ..

- فقط ابتعدا عن وجهي.. يكفى ما رأيته بالأمس...

قالتها بخيبة أمل.. ربما في ظافر نفسه.. أعتقد أنه ليس كباقي الحرمس؛ لكن عندما دققت في الأمر وجدت أنتي أظن أنه لا يراقب الفتيات، لكنه راقب إزالين.. وكانت أظنه لا يشتم ببداية، لكن ذلك اللفظ الذي خرج من بين شفتيه في لحظة غيظ من المدرب أثبتت أنتي كنت مخطئة.. فبالرغم من أنه وصف المدرب بـزوجته في كلمة واحدة مشينة لا يعني أنه على حق.. لا أدرى ما بي. للحظة تمنيت أن أعرف من أنا.. هل كنت خلوفة؟ أم فاجرة؟

رنّ صوت العروس ذات العينين الرماديتين الكحيلتين: «العُهر لا يُنسى!»

أفقت من شرودي على صوت ظاهر وهو يقول مقتحماً جميع خلايا عقله
بصوته العميق:

- إزالين لن تكون للأمير ما حبيت...

تنهدت وقبل أن يستطرد لاحظت ابتسامة إزلين الحنونة والمجاهدة لى..

- لأنها أختى.

قالها لأرفع حاجبي ليلامسا خصلة شعري المتسللة من المنشفة.. ضرب قلبي
صدرى بعنف وشهقت بدھشة عظمى:
- مازا قلت؟.

- متأكد من أنك سمعت.. فلا داعي للتكرار.

تهّد بحرارة وأضاف:

- ولا نريد لأي أحد أن يعرف...

أشارت إزالين لي وقالت بتوعّد:

- إن أفشيت السرّ فسأقتلك!.

لمست وترًا حساسًا بكلمتهما فقلت أنا بصعوبة:

- مجددًا؟.

ضحك ظافر بتسلّي قائلاً:

- حسناً لا بأس.. نحن أموات على أية حال.. وأنا واثق من أن إليونورا لن تخبر أحداً...

رفع غطاء رأسه قليلاً لأتبيّن عينيه المهدّتين وصوبهما إلى قائلاً بغموض:

- أليس كذلك؟.

ابتلعت غصّة في حلقي أثر نظرته الرمادية العاصفة تلك.. وقلت بتوجّس:

- أجل.. كأنّي لم أسمع شيئاً أصلًا!.

أعاد غطاء الرأس كما كان، وخرج من الماء، ورفع كفيه أعلى رأسه بقليل وأمسك باللاشيء، ومررّه على ما يرتدي، لتجفّ ملابسه كما كانت.. وبكشفه لقدرته في التحكّم في عنصر آخر من عناصر الطبيعة أفقت من شرودي على صوت إزالين الذي بدا حنوناً مّرة أخرى:

- يمكنني فعل هذا الآن.. اشتقت له جدًا.

اقترن من ظافر واحتضنته بعفوية لتسع عيناي رغمًا عنى لتكون أمامي صورة عاطفية للغاية.. خفق قلبي وتساءلت بطيبة:

- هل هو شقيقك حقاً؟

وتدخل عقلى المعاد على تلك الكذبة فاستطرد:

- ألم هو مجرد سبب لتفعلا ما تريدان؟.

ربّ ظاهر على ظهرها فلم أتمالك نفسي من الابتسام بغرابة.. لم أتوقع منه أن يلعب دور الأخ بينما هو ببساطة.. ظاهر! الفامض قليل الكلام، الذي لا يضحك إلا ليسخر من الواقع من حوله.. ولا يبتسם إلا لنفسه.. هل يبتسם الآن يا ترى؟ سئمت من غطاء الرأس هذا.. أريد رؤيته الآن أكثر من أي وقت مضى.. لدي فضول كبير لهذا!

- ماذا عن غطاء الرأس.. هل لأنكم تؤمنون؟.

ابتسمت إزالين وأشارت إلى عقلها قائلة:

- عزيزتي لا تتعبي نفسك بالتفكير!.

- عزيزتك؟.

قلتها باستنكار وراقبتها تبتعد عن صدره مبتسمة.. وسرعان ما خفت

ابتسامتها حين سمعت صوت جليندا الممّيز:

- وقت الطعاماً!

ابتعدت عن ظاهر وعادت متحفّظة كما كانت، وأشارت لي على مكان النطاق الشفاف الذي أحاطنا ظاهر به، لأجده قد بدأ بالتللاشي.. ففهمت قصدها.. يجب علينا الإسراع لنكون أول الموجودات بالطابق.



أخرجت إزالين صندوقاً خشبياً كبيراً من تحت فراشها، أراها من على بعد.. ففطرت أنا الأخرى تحت فراشي لأجد صندوقاً مماثلاً، وأخر تحت سرير إيفي؛ يبدو أن لكل عروس صندوقاً خاصاً بها. أخرجت الصندوق وفتحته لأجد العديد من الملابس الجديدة وأدوات التجميل، مرأة أنيقة كذلك.. ابتسمت وقامت بتبديل ملابسي بسرعة مغلقة ستار الفراش من حولي، كي يبقى جسدي سراً لن يكتشفه إلا شخص واحد فقط.. وأتمنى من كل قلبي أن يكون الأمير..

وضعت الخادمات طعام الإفطار بأدب على المائدة المستديرة بوسط الغرفة، لتأخذ كل واحدة فطورها للسرير، أو تأخذ وسادة تفترش بها الأرض جالسة.. كل الأماكن متاحة، فالطابق ملك للجميع..

ابتسمت لإيفي التي أتت لجلس بجانبي، فلاحظت أنها تشير لي بعينها على من تجلس بجانبي.. فقلت بلهجة عادّة:

- أحتاج لتمضية الكثير من الوقت مع إزالين.. لحفل الأمير كما تعلمين!.

خرجت منها ضحكة محرجة وهمست في أذني:

- إنها مغرورة!.

لم تكن اللهجة هامسة كما ينبغي، فوصل صوتها لسامع إزالين التي ابتسمت بغرور فجحظت عيناً إيفي وكأنها تقول لي: «أرأيت؟»

جذبها من ذراعها لجلس بجانبي، ففعلت مرغمة، نظرت لإزالين بينما وضعت قطعة من الخبز في فمي لأجدها مطرقة الرأس بفزع، وظافر ناظر إليها.. فهمست له بعقولي:

- هل تتحدث معها الآن؟ لم هي مفروعة هكذا؟.

رفع ظافر عينه عنها ونهض قائلاً:

- هناك حالة طارئة.. ومن المتوقع أن تحدث جلبة.. لذا تمسكي.

واستطرد:

- هذا ما كنت أقول...

وفي نفس اللحظة حضرت المشرفة جليندا رغم انصرافها منذ قليل مع
الخدمات، تتحنّثت وقالت بصوتٍ عالٍ كاد أن يصم أذني:

- هناك ما يستدعي انتباهكَنْ يا جميلات.

وقفت العرائس بتأفف واضح، لكنّه سرعان ما تحول رد فعلهنَّ لغرابة والتساؤل
حين ظهر جسدان متناقضان من نفس الجنس؛ رجلان. الأول بهيئة عظيمة من
الوقار والهيبة، يغزو اللون الأبيض شعره ولحيته الطويلة كما هو لون جلبابه الذي
استتر تحت وشاح باللون الأزرق المطعم بالذهبي، الأزرق والأحمر، أما الثاني
 فهو رجل في سن الأربعين، يحتفظ بقوّة بنائه فبدرا رياضيًّا ذا طول فارع وعرضٍ
 مخيف، بملامح جامدة ووجه شبه مربع زينه شعره الكثيف الأشقر الممتزج ببعض
 الشعرات الفضيّة. رأيته يتحنّح فاقتربت منه جليندا بأدب وتقدير، ليهمس هو في
 أذنها بشيء ما.. فهزّت رأسها بترحيب، ثم قالت:

- نريدكَنْ في صفين.

تركت كل عروس منّا ما يبدها ومسحت يدها، وبسرعة كنا في صفين متقابلين،
 كل عروس منّا تنظر للعروس المقابلة لها بتوجّس وقلق، عبرت جليندا بين الصفين
 وهي تنظر في وجوهنا بغموض، لم أتبين أي شيء من ما ترنو إليه، فتنفست بهدوء
 وتمالكت أعصابي التي اتّضح أنها ليست كقوّة ملاحظتي، رأيت الرجل العجوز
 يتحرّك بخطوات متّزنة خلف جليندا، وتبعد الرجل الآخر، حتى توقفت جليندا
 أمام فتاة ما.. وبمجرّد أن وقفت أمامها ونظرت في عينيها أدركت أنا ما يحدث
 من حولي.

أشاحت العروس بعينها بعيداً، وبالرغم من أن عينيها يغطيهما شعرها الأسود
 بخصلاته - الفاحمة الطويلة - بدت مرتبكة للغاية، وهذا ما حاولت إخفاءه حين
 نطقت جليندا باسمها بغموض، فرددت عليها ببراءة مصطنعة:

- هل هناك خطبٌ ما سيدة جليندا؟.

أحسست بظافر قد أتى ليقف خلفي، كما فعل كل الحراس مع باقي العرائس حين رفع العجوز عصاه الخشبية العتيقة - التي يستند عليها - للأعلى.. لم أنتقد لظافر، بل أمعنت النظر في الحرس أمامي، خاسعين، مطأطئي بصرهم للأسفل في هدوء، يبدو الارتكاب على معظمهم، لأستشفّ أنا أن ذلك الرجل ذو شأن عظيم بالنسبة لهم.

انتبهت وأفقت من شرودي حين شهقت عدّة فتيات بتوجس، وقالت إحداهنّ

بريبة:

- لماذا كل هذا العدد من الرجال فجأة؟.

وأشارت حولها بخوف، وأعتقد أنتي رأيت الفتاة التي تقف أمامي تكتم صرختها حين رأت ظافراً.. بالطبع أخافها بهيئه العظيمة والثقافة بالسود عكس باقي الحرس، وقبل أن تعم الجلبة من أي عروس أخرى، طرق العجوز ذو الهيبة بعصاه أرضاً لتصمت كل الأصوات، حتى إنني حاولت الحديث فوجدت أن صوتي قد اختفى تماماً.. رفعت حاجبي بدھشة حين التفت الرجل لي وهزّ رأسه، وقبل أن أفعل أي شيء وجدت ظافراً ينحني قليلاً وهذا ما عرفته من ملامسة غطاء رأسه لرأسني وأتى صوته العميق خافتاً يقول بأدب:

- سيدّي...

ابتسم الرجل لكن سرعان ما اختفت ابتسامته ليقترب من جليندا التي تقف أمام تلك العروس التي كادت أن تؤرق ليتلي بالأمس هي وحارسها لولا تصرف ظافر.. همس الساحر بشيء ما في أذن الرجل الأربعيني، فهزّ رأسه بعد أن أخذ الأوامر، وعبر بين العرائس بحذر ليمسك بحارس الفتاة بقوّة جعلت الحارس يصرخ معتراضاً، فالتفت أنا لظافر بذعر لأجده يهز رأسه نفياً وكأنه يرفض أن يخبرني بأي شيء، فعدت لأنتاب الموقف، جذبت جليندا العروس لتقف بجانب حارسها أمام العجوز وقالت بقسوة:

- لقد وشت بكم إحدى العرائس، رأتكما في موقفٍ مشين.

حاولت العروس التحدث فخرجت منها كلماتها بعيدة بعضها عن بعض، وظهر الاختناق عليها حين حاولت الصراخ.. فاقترب منها حارسها مبعداً عنه قبضتي الرجل الأربعيني القوي وقال مدافعاً عنها:

- ليس صحيحاً! ليس هذا الكلام إلا مجرد حسد وبغض من زميلاتها!.

دمعت عين العروس وهزّت رأسها بقوّة لينقاض شعرها عن عينيها، لينكشف ابتلالهما للعيان..

- الواشية لا مصلحة لها في الكذب، فاختيارات الأمير تخص الأمير فقط، لا تتلاعب بها مجرد فتاة!.

قالتها جليندا رداً على الحارس الثائر، ثم أدركت ما قالته، وبه استخفاف بالأمير.. فاعذررت بخفوت وأطربت برأسها ضامةً كفيها تخفي ارتعاشهما، ليقول الرجل الأربعيني:

- كلمات كبير الحرس أوامر تنفذ.

قالها بهجة رسمية قوية بينما ينحني برأسه أمام كبير الحرس العجوز.. والذي بدأ بالكلام لأول مرة بكلماتٍ بسيطة بطيئة: إقصاء من خدمة ومنصب.. وتأديب.

لم أتقهم أنا والعرائس معنى كلماته المترفة بالضبط، وكتمت جليندا شهقتها بيديها المكتنزنتين المرتعشتين، وهزّ الرجل القوي رأسه قائلاً برسمية:

- علم...

وحلّ قبضة يده من معصمي الحارس، وقبل أن يتحرّك أدار جسمه إليه، وفي حركة مبالغة أمسك بمؤخرة عنقه وضغط عليها للأسفل، متممّاً ببعض الكلمات

الغريبة كالتي يقولها ظاهر، ليصرخ الحراس بقوّة وغيظ، لكن سرعان ما خفت صرخته المفتاظة لتسكن تدريجياً بوهـن، حتى إنـه سقط على ركبـتيه غير القادرـتين على حملـه أكثرـ من هـذا.. وقبلـ أنـ أدرـكـ ماـ حدـثـ صـدـحـ صـوـتـ الرـجـلـ القـوـيـ ليـهـزـ الطـابـيقـ كـلـهـ بـقـولـهـ:

- تمـ إـقصـاءـ هـذـاـ الحـارـسـ مـنـ خـدـمـةـ العـرـوـسـ المـذـنـبـةـ.. وـسـيـحـالـ لـلـتـأـدـيـبـ.

تحـنـجـتـ جـلـينـداـ وـاقـرـبـتـ مـنـهـمـ بـحـذـرـ، وـقـالـتـ هـيـ بـدـورـهـاـ، وـبـدـتـ مـرـتـبـكـةـ قـلـيلاـ:

- وـتـمـ إـقصـاءـ العـرـوـسـ المـذـنـبـةـ مـنـ مـنـصـبـهـاـ.. لـتـعـمـلـ وـفـقـاـ لـأـوـامـرـ الـأـمـيـرـ بـعـدـ تـلـقـيـهـاـ نـصـيـبـاـ مـنـ التـأـدـيـبـ.

سـقطـتـ الفتـاةـ مـغـشـيـاـ عـلـيـهـاـ، فـحـمـلـهـاـ الرـجـلـ القـوـيـ عـلـىـ ظـهـرـهـ بـحـرـكـةـ وـاحـدةـ، بـيـنـماـ دـفـعـ الـحـارـسـ، أـوـ مـاـ كـانـ كـذـلـكـ، بـذـلـلـ لـيـتـقـدـمـهـ، فـقـعـ الـضـعـيفـ مـرـغـماـ.. تـقـدـمـتـهـمـ جـلـينـداـ لـتـفـسـحـ الـطـرـيـقـ، وـتـبـقـيـ العـجـوزـ.. لـوـحـ بـعـصـاهـ لـتـعـودـ أـصـواتـاـ مـرـةـ أـخـرـىـ.. فـهـذـاـ الرـجـلـ هـوـ سـاحـرـ.. سـاحـرـ كـهـلـ وـكـبـيرـ كـفـاـيـةـ لـيـعـرـفـ مـتـىـ يـسـتـخـدـمـ سـحـرـهـ!

- بـالـحـكـمـةـ وـالـذـكـاءـ تـأـتـيـ السـلـطـةـ.. لـاـ بـالـفـسـقـ!

قـالـهـاـ العـجـوزـ مـتـمـالـكـاـ أـعـصـابـهـ، وـأـوـلـىـ ظـهـرـهـ لـنـاـ لـتـظـهـرـ عـصـاهـ التـيـ يـمـسـكـهـاـ بـكـلـتـاـ يـدـيـهـ خـفـ ظـهـرـهـ، وـقـالـ قـبـلـ أـنـ يـصـلـ لـلـدـرـجـ:

- رـاقـبـواـ أـنـفـسـكـمـ.. أـفـكـارـكـمـ فـقـطـ هـيـ التـيـ سـتـظـلـ مـحـجـوـبـةـ؛ فـهـيـ لـكـمـ...

شـهـقـتـ عـدـةـ فـتـيـاتـ وـجـلـسـنـ أـرـضاـ بـوـهـنـ.. وـجـلـسـتـ أـنـاـ بـذـهـولـ مـنـ مـاـ رـأـيـتـ.. لـقـدـ سـلـبـواـ قـوـةـ الـحـارـسـ.. وـأـخـذـوـاـ عـرـوـسـاـ مـنـ بـيـنـنـاـ بـتـلـكـ السـهـولـةـ!

أـفـقـتـ عـلـىـ صـوـتـ أـنـيـنـ، لـأـجـدـ فـتـاةـ كـفـهاـ قـرـيبـ جـدـاـ مـنـ وجـهـيـ، وـمـاـ يـصـدـهـ شـيـءـ مـنـ صـفـعـيـ إـلـاـ قـبـضـةـ يـدـ ظـاـفـرـ القـوـيـةـ عـلـىـ مـعـصـمـهـاـ، وـصـوـتـهـ يـقـولـ بـهـدـوـءـ مـاـ قـبـلـ العـاـصـفـةـ:

- تراجع فوراً.

مدّ يده لي لأضع يدي بها، فخبأني خلف ظهره وقال بشراسة لتلك الثائرة
غضباً:

- ما تفكرين به الآن ليس صحيحاً يا صاحبة الهوا جس!

رفعت عيني لأرى من يحدثها ظافر بتلك الشراسة، لأجد أنها الفتاة ذات
العينين الرماديّتين برسمة الكحل الغريبة. أصدرت زمرة غاضبة قائلة:

- ابتعد عنّي! هي الواشية! هي من وشت بها!

تقدّم حارس الفتاة ليجذبها من ذراعيها للخلف، وظلّت تضرب الأرض بقدميها
فائلة وهي تنظر لحارسها بغضب:

- لا تمنعني! أنت من لفت انتباхи إلى ما فعلت بالأمس! لقد رأتهما بالفعل!

وصرخت بجنون وكادت أن تصمّ كلماتها أذني:
- أيتها الحقيرة!

استقامت واقفةً بعد أن كنت منبطحة أرضاً خلف ظافر، لأجد أن إيفي قد
اقربت مني هي وإزالين، تنظران لي بتساؤل.. فقلت أنا دفاعاً عن نفسي:

- لقد رأيتهما بالفعل.. لكن لم أش بهما! أنا لست واشية!

جذب كالليب إيفي بعيداً كي لا تتأذى، فتركّتني مرغمة وعيناها متعلقتان بي..
وهي لحظة ملعونة أخرجت العروس المخيفة سبّة لي، شهقت لها العديد من الفتيات،
وأضافت بغضب:

- لقد فعلت السيئ.. فانتظرني الأسوأ يا فتاة!

رفع ظافر رأسه لحارسها فائلاً:

- أرى مستقبلاً أسود يحيط بفتاتك بكل وضوح إن استمرت في هذا الهراء..
أصلاح سوء الفهم هذا قبل أن أجعلك تلحق بهم وهي معك.. الآن!.
وقال آخر كلمة بشراسة.. لتفطئ العديد من العرائس آذانهن من صوته
المرعب، ليقول الآخر ببرود:

- اطلب ذلك من تلك العروس المختبئة خلف عباءتك! هي الفاعلة ولا شأن
لي أنا!.

وترک يد فتاته وقال:

- نفثي عن غضبك عزيزتي!.

صرخت الفتاة بجنون واقتربت مني مجدداً لأخرج أنا وجهي من عباءة ظافر
فائلة بحزم:

- إن اقتربتِ مني فسوف أقتلك!.

لم أدرك تقاهة ما قلت إلا حين ضحكت الفتيات.. ما بال هذا التهديد؟ لا
يوجد ما هو أفعع من الموت لنهدد به بعضنا بعضاً؟

لم الحظ بالطبع تلك الابتسامة الخبيثة على وجه إحداهن.. وقبل أن تتخذ
الفتاة أي فعل تقدم عليه دلفت جليدنا للغرفة مهرولة بجسدها الممتئ بصعوبة
فائلة بحزم:

- ماذا حدث لكل هذه الضوابط؟ الخادمات يشكون من أن صوتكم عالٍ
للغاية!.

صرخت الفتاة بغضب:

- تباً لهنّ ولها! فتلك الواشية تستحق الإقصاء!.

نظرت جليندا لوجهي المرتعب الذي أشارت عليه صاحبة مقوله «العُهر لا يُنسى» فقالت بغير تصديق:

- أتهمين إليونورا؟ تلك المستجدة الرقيقة؟ لا بالطبع ليست هي!.

شعرت بيد ظافر ترثّت على ظهري فاستقمت وقلت متحدثة لجلinda:

- تلك العروس المجنونة ستحاول إيذائي! أخبريها من الواشية إن كنت تعلمين!.

- لن يؤذيك أحد!.

قالها ظافر بحزم لتضحك جليندا بتوّر بعد أن خافت من نبرة ظافر قائلة: - لا بأس أيها الشاب لن يؤذيها أحد فعلًا.. فالواشية ليست فتاة مستجدة.. بل هي من أوائل العرائس بالطابق.

اختفت ابتسامة فتاة ما.. وكانت الابتسامة الخبيثة، لتقول جليندا بعد صمت الجميع:

- لن أشي بها.. لكن بالطبع ليست إليونورا.

قالتها مشيرة إلى فتنهدت وابتسمت لها بامتنان، وما زاد هذا الكلام الفتاة الغاضبة إلا جنونًا، لتقفر أمام جليندا تمسكها من تلابيبها قائلة:

- قولى لي من هي!.

عم الصمت لحظة، وترددت جليندا من تعبيرات وجه الفتاة الغاضبة وقالت بتردد:

- لقد طلبت حمايتي لهذا ليس بيدي شيء!.

و قبل أن تثور العروس مجددًا أتى صوتٌ ما مألفٌ بالنسبة لي، قائلة بالهجة ثائرة:

- الرخيصات مصيرهن الإقصاء، التأديب والتعذيب وأيضا الدفن أحياء حتى يتوقف قلبهن رعباً.

التفت جميع العيون إلى الفتاة المتحدثة، لأجد أنها نفس الفتاة التي كانت تتناقش بحدة بالأمس.. كيف لم تشک بها!

- أنت مجدداً واضح أن كلامي معك بالبارحة لم يأت بنتيجة!

تقدّمت الفتاة التائرة أمام جليندا وأشارت على الفتاة ذات العيون الرمادية وقالت:

- تلك الفتاة تستحق الإقصاء.. وكيف لا أكون متشددة أو منحازة لعروس دون الأخرى؛ أطّالب بكشف عذرية لكل الفتيات، كما يحدث مع تلك الفتاة بالأصل الآن، وستكون أنا أول من ستخضع لهذا الكشف!

نظرت الفتيات بعضهن البعض بخوف، فصاحت فيها الأخرى بصوت مرتعش:

- كيف تجرؤين! أنت تهينين عرائس الأمير! و.. وستتحقّق العقاب!

تهّدت جليندا وقالت بنفاذ صبر:

- بل أنا التي تستحق كل هذا.. أنا من أصررت على أن أكون مشرفة عليكـن.. كم هذا متعب!

التفت لها بترقب فصمت تفكـر.. بالطبع ما حدث منذ قليل ليس سهلاً.. لقد أمسكوا بفتاة واحدة وأقصوها مع حارسها، فلم لا نكشف باقي المصائب دفعة واحدة؟ تهـدت وقالت بهدوء:

- قفن بنظام أرجوكن.. سـأـتـيـ بالـحـكـيـمـةـ وـبـنـدـأـ بـالـفـحـصـ...

ونظرت للفتاتين في عينيهما وقالت بأسف:

- قـفـيـ أـنـتـ وـهـيـ فيـ أـوـلـ الصـفـ.. وـتـحـمـلـ الـمـسـؤـلـيـةـ.

خرجت جليندا لتشهد عدّة فتيات في ذعر، بكين وانتحبن بحسرة؛ سينتهي أمرهنّ قريباً! والفتاة ذات العيون الرمادية اسودّ وجهها وسقطت في مكانها، دار الحرس المذنبون في كل مكان، فاقربت من ظافر، أمسكت بذراعه وقلت بقلق:

- لمْ هن خائفات هكذا؟.

وصرخت بذعر:

- هل هذا طبيعي؟.

نظر هو حوله بغرابة وقال بشرود:

- الأمر أسوأ من ما توقّعت.. هذه المجموعة أسوأ من باقي المجموعات السابقة.. جيل العرائس هذا يضم العديد من الفتيات الحمقاءات!.

جلست أرضاً بقلق، ليس لأنّي مذنبة، بل لهذا الخوف الفطري الذي انتقل لي من الباقيات، فاقربت مني إيفي تبكي بينما تخبّي وجهها في ذراعي، وإزالين تجلس ملتحقة بي، كي تستمد الطمأنينة مني ومن ظافر، بدلاً من حارسها عديم النفع.. ففهمست أنا لإيفي:

- لا تخافي.. أنتِ لست منهنّ أنا واثقة...

رفعت عينيها البريئتين لي وقالت بخوف:

- أشعر بأنّ هذا لن يمرّ على خير.. هذا اليوم سيئٌ!.

التفت ظافر للمسكينة الباكية بشرود.. وردد ببطء:

- يراودني نفس الشعور..

انقبض قلبي وقلب إزالين من ما قال.. وصمتنا وبقينا جالسات في مكاننا، نحاول قدر الإمكان عدم إفساد ذلك النظام غير الموجود، وعدم إضافة أي شيء لتلك الجلبة السائدة من حولنا..

أَتَتِ الْحَكِيمَةَ بِأَدْوَاتِهَا الطَّبِيَّةِ، أَغْلَقَ بَابَ الدَّرَجِ الْمُؤْدِي لِلْطَّابِقِ وَأَيْضًا النَّوَافِذِ، لِيَصْبِحَ الْجَوَّ حَارًّا مَوْتَرًا رَغْمَ الصَّقِيعِ بِالْخَارِجِ؛ اسْتَخَدَمَتِ الْحَكِيمَةَ أَقْرَبَ سَرِيرِ الْمَسْتَرَاحِ لِلْكَشْفِ، وَطَلَبَتِ مَنًا الْوَقْفَ فِي صَفِّ وَاحِدٍ، فَطَالَ الصَّفُّ وَطَالَتْ وَقْتَنَا وَرَعْبَنَا وَهُوَاجْسَنَا.. الْجَمِيعُ يَقْفَ بِصَمْتٍ، وَأَقْفَ أَنَا مَسْتَنَدًا عَلَى قَدْمِيْ بِصَعْوَدَةِ، وَيَقْفَ ظَافِرُ بِجَانِبِيْ بِثَبَاتٍ، مَدِيرًا وَجْهَهُ لِلْجَهَةِ الْأُخْرَى تَنْفِيَدًا لِمَا طَلَبَتِ جَلِينَدَا مِنِ الْحَرَسِ، وَأَصْبَحَ الْحَرَسُ فِي مَنْتَهِيِ الْأَدْبِ.. فَالْكُلُّ يَخَافُ مِنِ الْإِقْصَاءِ وَالْتَّعْذِيبِ.. لَمْ يَذْكُرْ لِي ظَافِرُ أَيَّاً مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْذِيبِ التَّأَدِيَّيَّةِ تَلْكَ فَتَقَنَّى عَقْلِيُّ الْأَمْرِ بِمَهَارَةِ، وَبِدَأَ يَصْوِرُ لِي كُلَّ الْأَسَالِيبِ مِنِ الْحَيَاةِ، لِيَضَاعِفَ رَعْبِيِّ أَضْعَافًا.

وَقَعَتِ الْعَدِيدُ مِنِ الْعَرَائِسِ، مِنْهُنَّ مَنْ تَدَعَّى وَمِنْهُنَّ مَنْ خَارَتْ قَوَاهَا بِصَدْقِ.. أَسْرَعَتِ الْحَكِيمَةَ بِالْكَشْفِ وَصَنَّفَتِ الْفَتَيَّاتِ.. الْعَفِيفَةَ عَلَى يَمِينِهَا وَالْفَاسِقَةَ عَلَى يَسِيرِهَا.. وَقَبْلَ أَنْ يَأْتِي دُورِيُّ فِي الْكَشْفِ، سَمِعْنَا صَوْتَ فَتَاهَ تَشَهَّقُ الْهَوَاءُ بِمَنْتَهِي الْعَصْفِ، مِنِ الْلَّاتِي يَقْفَنُ عَلَى الْيَسَارِ، فَتَوَجَّهَتِ خَلِيلَاتِهَا يَسَاعِدُنَّهَا عَلَى الْوَقْفِ وَتَمْرِيرِ الْهَوَاءِ إِلَيْهَا، حَتَّى حَارَسَهَا أَسْوَدُ الْوَجْهِ حَاوَلَ مَسَاعِدَتِهَا.. لَكِن.. دُونَ جَدْوِي.. وَسَمِعْتُ مِنِ الْحَكِيمَةِ أَثْنَاءَ كَشْفِهَا عَلَيْهَا أَنَّهَا «اَنْتَهَتِ».. لِيَفْسِرُ لِي ظَافِرُ بِمَنْتَهِي الْهَدَوَءِ كَيْ لَا يَفْزَعْنِي:

- تَوَقَّفَ قَلْبِهَا.. هِيَ الْآنَ مُجَرَّدَ جَسَدٌ فَارِغٌ، سَتَذُوبُ أَعْضَاؤُهُ الدَّاخِلِيَّةُ قَرِيبًا
بعدَ أَنْ تَتَبَخَّرَ دَمَاؤُهُ...

شَهَقَتْ بِفَزْعٍ وَتَابَعَهُ مَا يَقُولُ كَيْ لَا يَتَحَدَّثَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَرَّةً أُخْرَى:

- مِنْ يَتَوَقَّفُ قَلْبَهَا تَصْبِحُ مِنْ عَرَائِسِ الْبَرْجِ الْعَالِي.. الْمُوْجُودُ بِالْقَلْعَةِ...

لَاحَظَتِ الْمَرَأَةُ فِي نِبْرَتِهِ وَهُوَ يَسْتَطِرُدُ:

- يَوْجُدُ الْعَدِيدُ مِنِ الْفَتَيَّاتِ وَالسَّيِّدَاتِ هُنَّا.. وَتَخْتَلِفُ حَالَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ.. وَهُنَّ الْأَقْلَ حَظًّا.. فَلَقِدْ تَمْ نَفِيَهُنَّ مِنِ الْحَيَاةِ وَلَفْظُهُمُ الْمَوْتُ.. لِيَبْقَوْا هَكَذَا.. كَالْتَمَاثِيلِ الصَّمَّاءِ.

تحيّلت ما يقول عليه.. فتذكّرت غرفة الحياة ذات التماشيل متقنة الصنع
- التي لا رؤوس لها - حين قابلت الماشطة أول مرة.. ولا إرادياً استبدلهم عقلي
بتماثيل ذات رؤوس فتیات.. عرائس أعرفهم، كتلك العروس التي توقف قلبها للتوّ..
ودقّ قلبي بقوّة حين استرجعت نبرة ظافر حين قال:
- عرائس البرج العالى.

فتحرّكت خارج الصفّ بسرعة وتوجّهت للشرفة، فتحتها على مصراعيها
ونظرت للأعلى، لأقصى اليمين وأقصى اليسار حتى تبيّن لي شيء ما من بعيد..
برج عظيم، كالسهم المشير للسماء الداكنة ذات القمر المنغطرس.. ففرّت دمعة
من عيني شفقة على من به.. وضررت قلبي بيدي اليمنى كي يكف عن الدقّ بعنف،
وهمست له:

- اصمد معى أرجوك؛ لكن دون أن تخيفنى بدقّاتك!..
وحين التفت وجدت ظافراً يهمس لي بشفقة:
- حان دورك...

هزّت رأسي بتردد وتحركت ببطء نحو الحكمة التي استقبلتني بنظرة
متفحّصة ملامحي، حاولت أنا أن أكون هادئاً قدر المستطاع، لكن الجوّ العام
كان مريئاً.. تصيبت عرقاً بفعل التوتر الذي غزا جسدي بمنتهى الوحشية، وحين
اقربت مني مساعدات الحكمة ليخففن ملابسي ويمسken بي سرت قشعريرة في
جسدي.. فأغمضت عيني.. وأنا أحاول صرف ذهني عن أي شيء سينمك أن
يحدث.. تنهّدت وشهقت أنفاساً مرتعدة غير منتظمة.. وقلت في عقلي:

- كوني شجاعة.. من أجل إيفي الصغيرة.. ومن أجل باقي العفيفات.. أنت
منهم فلا داعي للقلق...

وهي لحظة سمعت صوت ظافر يغزو تفكيري، ليقول بصوته العميق:

- أتعرفين معنى اسمك؟.

صمت مشدوهة من ما قال.. هل حقاً يسألني في تلك اللحظة بالذات؟ ألم ير وقتاً أنسَب من هذا؟ لكن سؤاله ذكرني بما قاله إيفي بصوتها الناعم:

- إلينورا... معناه الضوء الجميل والدافئ.

ليضيف هو بصوته الذي تخلل كل خلايا جسدي بعذوبته:

- معناه ضوء الشمس...

هدأت أنفاسي وقد اقتحمت عقلي صورة الشمس وقت الشروق، وهي تفرد أشعتها على صفة البحر الزرقاء لتصبغها بلونها الخجول في بداية النهار، فارتسمت ابتسامة مسترخية على شفتي وسقطت من عيني دمعة حنين.. كم أشتاق لهذا المنظر.. كيف تذكرته يا ترى؟

رأيت نفسي في هذا المشهد، أغرس قدمي الحافيتين في الرمال الناعمة لتفوض بمنتهي الحنان والدفء.. وسمعت صوت بعض العصافير ترقص.. كما سمعت صوت موسيقى.. وقتها تدخل صوت ظافر مع الذكرى ليقول:

- هذا ما أتى بيالي حين رأيت جمالك لأول مرة.. فهذا الاسم يليق بك حقاً.

فتحت عيني بغير فهم، لأقابل نظرة ظافر المطمئنة، وقد أزال غطاء رأسه قليلاً ليكشف عينيه التي بدا لونهما دافئاً للغاية بطريقة غريبة.. فهمست بداخله بغير فهم:

- حين رأيت جمالي؟.

لحوته يومئ بهدوء وقال وصوته يدور في رأسي ليسبب لي خدراً مميّزاً:

- كنت أنتظرك.. أنتظرك الفتاة الاستثنائية التي تختلف عن الباقيات.. فوُهبت لك حارساً من قبل أن أراك.

تهـدت بـراحة وقد سـرت بـجسدي أـثر كـلماته المـهـدائـة لـلـأـعـصـاب.. حتى سـمعـت صـوتـ الحـكـيـمـةـ تـقـولـ:

ـ أـنتـ بـرـيـءـ يـاـ اـبـنـيـ،ـ يـمـكـنـكـ النـهـوـضـ الـآنـ.

ـ قـالـتـهـا لـتـجـذـبـنـيـ فـتـاتـانـ مـنـ ذـرـاعـيـ وـتـسـاعـدـانـيـ عـلـىـ اـرـتـدـاءـ مـلـابـسـيـ،ـ وـقـتـهـاـ تـعـلـقـ بـصـرـيـ بـظـافـرـ وـهـمـسـتـ لـهـ بـغـيـرـ فـهـمـ:

ـ أـنـتـ مـنـ ذـكـرـنـيـ بـالـبـحـرـ..ـ وـمـشـهـدـ شـرـوـقـ الـشـمـسـ؟ـ

ـ خـيـلـ لـيـ أـنـنـيـ رـأـيـتـ إـيمـاءـتـهـ..ـ فـابـتـسـمـتـ وـهـمـسـتـ بـاـمـتـانـ حـقـيـقـيـ:

ـ أـشـكـرـكـ!ـ

ـ اـنـتـهـىـ الـكـشـفـ عـلـىـ إـرـاـلـيـنـ وـإـيـفـيـ بـسـلـامـ،ـ كـمـاـ اـنـتـهـىـ الـكـشـفـ عـلـىـ باـقـيـ الـفـتـيـاتـ،ـ لـيـنـتـهـىـ الـأـمـرـ بـجـوـدـيـ مـعـ رـفـيـقـتـيـ وـحـرـاسـنـاـ،ـ الـفـتـاتـاـ ذاتـ قـصـةـ «ـالـرـقـصـةـ الـأـخـيـرـةـ»ـ،ـ وـالـأـخـرـىـ التـائـرـةـ لـلـعـفـةـ التـيـ تـعـذـبـنـاـ بـسـبـبـ اـنـدـفـاعـهـاـ الـأـهـوـجـ،ـ بـالـإـضـافـةـ لـعـدـدـ قـلـيلـ مـنـ الـفـتـيـاتـ الـأـخـرـيـاتـ..ـ فـقـطـ!



ـ لـمـ نـأـخـذـ دـرـسـ الـفـرـوـسـيـةـ كـمـاـ لـمـ نـكـمـلـ إـفـطـارـنـاـ،ـ بـلـ اـرـتـدـيـنـاـ مـلـابـسـ ثـقـيلـةـ لـنـشـاهـدـ مـاـ يـحـدـثـ بـالـأـسـفـلـ كـمـاـ أـخـبـرـتـنـاـ جـلـينـدـاـ.

ـ اـرـتـدـيـتـ الـعـدـيدـ مـنـ الـمـلـابـسـ بـعـضـهـاـ فـوـقـ بـعـضـ وـخـتـمـتـ مـظـهـرـيـ بـعـبـاءـ سـوـدـاءـ كـبـيرـةـ وـثـقـيـلـةـ،ـ تـشـبـهـ مـاـ يـرـتـدـيـ ظـافـرـ..ـ تـمـمـتـ عـلـىـ مـظـهـرـيـ كـمـاـ فـعـلـتـ العـرـائـسـ الـمـتـبـقـيـاتـ بـهـدـوـءـ..ـ وـوـقـفـتـ خـارـجـ الـقـلـعـةـ؛ـ الـهـوـاءـ يـضـرـبـ وـجـهـيـ بـعـنـفـ فـرـفـعـتـ غـطـاءـ الرـأـسـ الـأـسـوـدـ إـلـيـ وـنـظـرـتـ لـظـافـرـ قـائـلـةـ بـضـيقـ:

ـ كـيـفـ تـسـيـطـرـ عـلـىـ مـاـ تـرـتـدـيـ وـسـطـ هـذـهـ الـرـيـاحـ الـهـوـجـاءـ؟ـ أـلـاـ تـسـأـمـ مـنـ ضـبـطـ هـيـئـةـ مـاـ تـرـتـدـيـ كـلـ ثـانـيـةـ أـوـ اـشـتـيـنـ؟ـ

ضحك بهدوء وأحكم إغلاق عباءتي على لتكف عن الرفرفة بشكل ملحوظ، لأدرك أنه قد سحرها بفعل من أفعاله الغامضة، فتنهدت وأمسكت بيدي إيفي الباردة للغاية.. فاحتضنتها لأمدّها بالدفء ولأستمد منها القليل من أفكارها البريئة، لتبدل هواجسي ولتهدي الطنين بعقولي، وفجأة سمعت صوت بوق عالياً، فانتبهت لأجد رجلاً ينفع في البوق ثم يبسط رسالة في يده، يقرأ منها قرار الأمير الذي اتخذ سريعاً.. ابتلت غصة في حلقى حين جاء التأكيد على تعذيب كل العرائس المذبنات وحرّاسهن.. فتظرت حولي أفقد كل جزء من المكان الذي نقف به.. فتحن نفف بحديقة القلعة، لكن هي أشبه بغاية.. مخيفة بظلمتها التي لا ينيرها إلا طاووس مستدير مستثير في السماء ومحاصيغ يدوية بالأرض، القلعة سوداء من عتمة الليل.. والقلوب واجلة؛ الوجوه المذنبة سوداء، والأخرى بيضاء شاحبة بشحوب الموت، تخشى ما سوف يحدث بعد دقائق.. معظم العاملين بالقصر أتوا ليشهدوا هذا القرار، الماشطة، المشرفة جليندا، كبيرة الطهاة ميلدا والحكيمة كذلك، وعلى رأسهم كبير الحرس العجوز ومساعده القوي، أيضاً تقف الخادمات في صف واحد بزيّهن ذي اللونين، ويقف الخدم ذو الملابس الباهة في صف آخر، يشهدون الحديث ليعتبروا رغم أن الخدم لا يلقون الخادمات إلا نادراً، لكن إن وصل أحدهم لمكانة أعلى ذات يوم يجب أن تكون تلك الذكرى راسخة بعقله.. ذكرى رؤية العرائس والحرّاس السابقين، معلقين من أيديهم وأجسادهم تذهب وتتأتي كورقة في مهبّ الريح، سيبقون هكذا لل يوم التالي، بوجوههم المغطّاة، فإنما أن تأكلهم الوحش المفترسة ليلاً، وإنما أن يفتك بهم البرد، أو يتوقف قلبهم أشلاء تخيل أي شيء من ما سوف يحدث في ما بعد..

سمعت أن من ينجو منهم من الحرس السابقين سوف يعمل بمدبة الجلود.. وأن من ستتجو من العرائس السابقات ستعمل في تنظيف الحظائر القدرة، مع كنياتهم الجديدة.. كونهم عبيداً... لا يحق لهم تناول الطعام إلا في أوقات قليلة حين يتبقى أي فضلات من الخدم، لا راحة لهم، يفعلون أي شيء يُطلب منهم..

حتى ولو كان بلا نفع ومقرّراً فقط لإنهاكهم عقلياً وجسدياً.. سمعت صوت فتاة تصيح باستجداه، لكن كبير الحرس أخرس صوتها.. واتسعت عيناي حين اقترب رجلُ قوي الهيئة منهم، حاملاً سوطاً أسود شديد الهيئة، جلد كلّ منهم على جسده عدّة جلدات، فاهتزّت أجسادهم ألمًا بدون أي صوت من أفواههم.. فدقّ قلبي بعفف، وشهقت الهواء بصعوبة ومعدتي تؤلمي من مظهرهم البائس في ملابسهم المهرئة الذي يزيده الظلام بؤساً.. وقلت لظافر باستجداه:

- اسلب مني حاستي السمع والبصر حتى ينتهي الأمر.. لن أستطيع الاحتمال أكثر!.

ربّت على كتفي وهمس بالقرب من أذني:

- تماسكي.. دقائق وينتهي كل شيء.

ضغطت على يده الموضوعة على كتفي وهبيط على ركبتيّ بضعف بعد أن خذلتني ساقاي وقلت باستجداه:

- ظافر أرجوك!.

انحنى ليجلس على ركبتيه بالقرب مني لتشاهدنا إزالين بغرابة من تحت عباءتها الزرقاء كلون عينيها، وسمعته يقول لي مشجّعاً:

- إن شاهدت هذا العذاب سيهون كل ما هو آت.. أريدك قوية إيونورا.. كوني قوية.. واصمدي وتعلّعي للأعلى.. دوماً.

نظرت له بتيه، فأشار برقبته للأعلى جهة اليسار، فنظرت لما يشير إليه، لأجد شخصاً يقف بأعلى طابق - وهو أسفل برج العرائس بقليل فقط - ينشر الضوء على ملابسه الفخمة وعلى تاجه المرصّع، لكن وجهه خفي عن العيان بسبب سقوط ظل التاج عليه، يقف بعظامته ليشاهد الحدث، يرى من خانوه قبل أن يلتقي بهم.. يشهد الحدث ولا يغفر لهم أبداً..

- الخيانة داء لا دواء له إلا البتر، والإقصاء بتر...

قالها ظافر فتلاعه قوله مع أفكاري، فقلت مشدوهة بهمس:

- هل هذا هو؟ هل هذا هو سمو الأمير؟.

رفع ظافر رأسه إليه وقال ليصب أفكاري بعقله العميق التي شابها
بعض من الغموض:

- الخيانة داء.. والانتقام هو البتر...

اتسعت عيناي بذعر لأثر كلماته بينما يساعدني هو على النهوض، ورددت بغير

فهم:

- انتقام.

فهـمـكـبـرـ الـكـبـ لـلـنـشـرـ وـالـتـوزـعـ

{١٣١}

١٣١ = ما بين اليقظة والنوع =

بعد مرور الوقت الذي بدا من أكثر الأوقات صعوبة علينا جميعاً، جلسنا صامتين حول المنضدة الأرضية، نظرت حولي أحاول تذكر أي وجه مألوف لي بعد أن رحلت أغلب المذنبات، لأجد أنتي مع إيفي، وإزالين، والفتاة صاحبة الحكاية المرعبة عن قابضي الأرواح وبعض الوجوه الأخرى المألوفة.. تنهدت ضيقاً وذهبت لفراسي.. لا أريد الجلوس معهم.. أكاد أجن! أشعر بأن شخصاً ما سيصرخ من ما به من فزع.. فما حدث هذا هو مسّ كبير لكرامتنا، ولن أنساه أبداً.. مهما حدث! أوقفني ظافر وأشار على زاوية بعيدة نسبياً من الطابق - وهي بالقرب من النافذة - قائلاً:

- لمَ لا تأخذين فراشاً آخر بجانب إزالين؟ فالعديد من الفتيات بالقرب منها قد رحلن...

فهمت من اقتراحه أنه يريد توفير الوقت في حراستنا معًا، فوافقت، ليس لأنني فقط أريد التقرب منها من أجل رقصة عيد مولد الأمير، بل لأن مكاني بات يبعث لي ذكريات الفحص والفتيات اللاتي توقف قلبهن.. لن أستطيع النوم في هذا الفراش مرة أخرى.

أخذت أغراضي واتجهت للفراش لأضعها هناك، ولاحظت أن ظافرًا قد جعله وكأنه جديد، كنت ممتنة له، فلن أكون لأنام على فراش استخدمته فتاة غريبة من قبل..

سمعت صوت خادمتين تقولان بأدب:

- السيدة جليندا أخبرتنا بإحضار الغداء بدلاً من الطعام الذي لم تكملنه
آنستي...

لم يقل أحد شيئاً، فأنا بالكاد فكّرت في الطعام بعد ما حصل. أحضرتا الطعام
وتاولناه بدون شهية حقيقة، فأنا عن نفسي تناولت ما يجعلني قادرة على المتابعة،
وتركت أكثر من نصف طعامي لإيفي، والتي -على غير العادة- رأيتها لا تأكل بشهية
مفتوحة أبداً.. وبينما أنا خارجة من المستراح وبجانبي ظافر، رأيت عروسًا تقف
عند الدرج، وليس أي عروس.. بل هي العروس الآتية من غرفة الأميرا

اندهشت أنا كثيراً لعودتها وقبل أن أسأّلها أي شيء وجدتها هي تسأّلني عن
تغّير حال الطابق:

- لمْ هناك القليل من الفتيات؟ أين ذهبت الباقيات؟ ولمْ هؤلاء الرجال هنا!
كدت أن أجيبها بأسف إلا أنها صرخت بفزع، فعدت خطوة للخلف من صوتها
وتساءلت بغرابة:

- ما بكِ؟
فأشارت لمن يقف بجانبي.. ظافر.. فابتسمت لأهدئها وقلت بودّ:
- هذا حارسي.. تم إظهار جميع الحرس...

عقد ظافر ذراعيه أمام صدره وكأنه يسألها: «أ هناك اعتراض؟ لأجدها
أومأت عدّة مرات وعيناها ما زالتا مشبّثتان به بتوجّس.. وتساءلت بغرابة ودهشة
بينما جسدها يرتعش رعشة خفيفة لم تغب عن عيني العسليّتين:
- لكن لماذا؟

لم أستطع مقاومة الاقتراب منها والتربيت على يديها لأهدئ اهتزازهما
الملحوظ وقلت بهدوء:

- دعي الفتيات يحكين لك.. أنا سئمت الوضع...

وسرت معها حتى منتصف الطابق، لستقبلاها العرائس بالدهشة والفضول،
حتى إن إحداهن تجرأت وسألت:

- هل سئم منك الأمير؟.

ضحك الفتاة بتوتر وتركت يدي لتجلس على إحدى الوسائل الأرضية، فالتقت
حولها العرائس، ولم يردعن فضولهن، بل سألنها عن كل شيء! وأجابتهن هي
بخفوت وخجل، وحين حاصرنها بأسئلتهن المحرجة، ردت بتحفظ:

- ما يحدث بطابق الأمير يبقى سراً بداخله، لن أحكي أكثر من هذا...

قالتها واتجهت لزاوية بعيدة من الغرفة لتجلس على فراشها وحدها، وهو
بالصدفة- الفراش المجاور لي، بالقرب من فراش إزالي!

سرت خلفها بنفس فضولهن، وأنا أريد أن أسألها عن شيء لم تسألها عنه أي
فتاة قط..

- كيف يبدو الأمير؟.

قلتها بهمس متربّق بينما أتابعها تتدثر جيّداً بالغطاء لبرودة الجو، فابتسمت
لي بطيئة.. بها شيء من المرارة، وقالت لي:

- اقتربي...

فعلت كما طلبت مني، فربّت على يدي كما فعلت أنا ليديها منذ قليل وقالت
بهدوء واهن:

- سأرد عليك فقط لأنك لست لئيمة مثلكن.

- لئيمة؟.

رددتها بداخلي بتساؤل، لأجدتها تقول بابتسامة شاردة.. بها شيء من الحنين:

- هذا الأمير وسيم للغاية، بشكِّل أَخَادُ.. يجعلكِ تقعين في غرامه.. نبرة صوته دافئة.. لكن...

أكاد أقسم أنتي رأيت دمعة تكونت عند زاوية عينيها تحاول التعبير عن وجودها، لولا أن قاطعتها إيفي بصوتها البريء:

- هل لي أن أنام هنا؟.

قالتها لعروس الأمير، فابتسمت الأخرى بطيبة حين رأت إيفي تتحدث والنعماس يبدو جلياً على وجهها، ممسكة بدميتي الجميلة الصلعاء، فنهضت من فراشها قائلة:

- لتنامي بجوار صديقتك؟ حسناً.. لكِ هذا...

فقمت من فراشها وقالت بوهن وهي ترمي بحمل جسدها على الفراش المجاور:

- لن يكون لي مكان هنا أصلًا.

وضحكَت ضحكة هادئة، وكما فعلت في الفراش الأول، تدثُّرت جيداً من برودة الجو، وهذا المرة تجاهلت كوننا نقف في نفس البقعة، أغمضت عينيها واستسلمت لنوم عميق.. يبدو أنها لم تتم قط بطابق الأمير!

ابتسمت إيفي وهي تجذب الغطاء على جسدها وقالت بنعومة:

- اممِمِكم هو دافي.. تصبحين على خير إيليونورا...

هزَّت رأسِي ورددت عليها، وتحرّكت للشُّرفة.. كم أريد أن أنظر من خلالها رغم المشاهد المُرعبة التي قد تظهر أمامي.. أزلت الستائر بأنا ملي بهدوء واقتربت برأسِي من الهواء البارد مستنشقة أكثر ما أستطيع منه بنهم، ثم أفرغت رئتي من ما بي من قلق، وطمأنَت نفسي.. مجرد نظرة فقط.. لن يحدث شيء!

أخفضت بصري للأسفل وفتشت بعيني عن أي بقعة ضوء ترشدني، فوجدت شعارات مضاءة يمسكها بعض الخدم الذكور، يقفون بالقرب من ما أبحث عنهن بعيني.. العبيد الجدد.. تهّدت وزادت دقات قلبي، هيئٌ لي أتنى سمعت صوتهن ييكلين بصمت، إلا من واحدة منهن تبكي بمرارٍ وثئٍ وتصرخ بين الحين والآخر.. أكاد أرى اللون الأحمر الدامي حول حدتي عينيها الرماديتين كالأمواات ومن حولهما الكحل الأسود يسجنهما بقسوة.. اعتصرت قلبي بيدي وقررت الرحيل.. وحين استدرت لأعود للخلف اصطدمت بجسد ضعيف أصدر تاؤها خافتًا..

- إزالين!..

قلتها بغرابة، لماذا تقف بصمتٍ هكذا! لم أشعر بها تقترب مني لهذا الحد!

- تقفين مكانى.

قالتها مفسّرة ما أفكّر به، فانسحبت أنا بصمتٍ لأجعلها تقف وترافق ضوء القمر النرجسي الذي ما زال يشبهها قليلاً.. وعدت أنا لتجمّع الفتيات، أحارو تمضية الوقت في أي شيء، متفاوضية النظر عن وجود كتاب يجب عليّ قراءته تحت وسادتي، فلا مزاج لي للقراءة في هذا اللحظة.. لا أريد فعل أي شيء؛ فقط أريد السير في هذا الطابق الممل، أفكّر في الأمير.. وما سيضمنه لي وجودي بجانبه.. تخيلت نفسي أميرة، ذات تاج مرصّع رفيع، يختلف عن تاج أميري العظيم.. أنظر للجميع بعلوّ، أبتسّم بغرور بينما ألقى الأوامر يميناً ويساراً من أجل راحتى، بينما يمسك الأمير بيدي، تخلّ أصابعه أصابعى بمنتهى العشق.. كدت أن أرسم له صورة في مخيّتي إلا أتنى سمعت صوّتاً عالياً يجادل:

- نحن الرجال نعمل لنحّمي هذا العالم، وأنت مجرّد جاريات! لتسليّة وجودنا وجود الأمير فقط!.

كان هذا أحد الحرّاس العنيدين، وأيدته بعض الأصوات الذكورية الأخرى، لتقول فتاة ما معترضة، مدافعة عنها وعن الباقيات:

- لا لن أسمح لك! فتحن أجمل وأرق منكم! ولهذا يختار الأمير بيننا، أنت هنا لحمايتنا فقط، أي تعملون لدينا! وهذا لا يعني أي شيء غير كوننا أهمنكم!.

ضحك أكثر من حارس بسخرية واشتت المناقشة، حتى إن العديد من الفتيات انصرفن على رأسهن الفتاة صاحبة الحكاية، يبدو أنها ستحكي لهن شيئاً جديداً هذه الليلة.. ليتني أستطيع سماع ما ستقول، لكن الصداع في رأسي يكاد يقتلني.. لمح ظافراً ينهي حديثه مع حارس إزالين الذي بدا وحيداً دون أصدقاء السوء خاصته، واتجه لي قائلاً:

- من الأفضل أن تبقي بعيداً عن هذا الشجار.. من الممكن أن يتم إقصاء المزيد الآن...

وضعت يدي على رأسي وقلت بضعف:

- طبعاً هذا سهل.. سيمأتون بعرائس آخريات بمنتهى السهولة!. اقترب مني ظافر وأنزل يدي من على رأسي ببطء متسائلاً: أتشعررين بالصداع؟.

نظرت له بضعف وهزرت رأسي، فقال بهدوء: - إذا فلترا تاحي قليلاً...

أشار على الفراش الجديد لي فذهبت بهدوء كي لا أوقف إيفي أو عروس الأمير، واستلقيت وتدثرت جيداً، فوجدت ظافراً اقترب مني وانحنى قليلاً، وضع يده على جبيني ورأسي وقبل أن يمررها على عيني استوقفته:

- ظافر.. لحظة...

قلتها بعقلاني قبل أن يرسل خلاياه للنوم، فأزال يده متسائلاً، فتساءلت أنا بينما أتذكر ما حدث:

- هل حَقًا تذَكَّرت مشهد الغروب حين نظرت لوجهه؟.

هزّ ظافر رأسه بصمت، فأضفت أنا:

- وهل بدا وجهي جميلاً؟ أعني.. هل سيعجب الأمير؟.

اعتل في وقته فائلاً يصب كلماته في عقلي كي لا يسمعها أحد:

- لا أعتقد أني لاحظت هذا.. لكنني رأيت وجهك بكلنا حاليه في أول لقاء..
أمام زنازين القلعة...

صمت لبرهة ثم استطرد:

- حين حملتك على جوادي لأوصلك للقلعة، وجاءت ببالك إحدى الحكايات
الأسطورية وأنكرت وجود أي شبه بينك وبين أميراتها كنت أنا أبسم
لسداجتك.. كيف لم تدركني كونك جميلة وقتها؟.

نظرت له بغير فهم وفَكَّرت:

- وجهي كان أقبح ما يكون!.

هزّ رأسه نفياً وأرسل كلماته لعقله همساً حتى اقشعرّ بدني:

- لم تكنني يوماً دميمة.. كان هذا فقط ستار، مجرد ستار يخفي الحقيقة
لصالحتك.

لم أفهم شيئاً، ففسّر لي:

- إن كنتِ جميلة، لكان الحرمس يقاتلون على حراستك، لإغوائك وتحويلك
لعروس مذنبة، أو مجرد خادمة يائسة تحب حارسها.. أما بوضعي لذلك
الستار أصبحتِ منبوذة من الجميع، مكرهه من عيونهم، حتى أختارك
أنا.. لأوصلك للهدف المطلوب...

وختم ما قال به:

- لأعلى مكانة هنا...

وبكلماته هذه تذكرت قول أحد الحرّاس:

- هيّا يا ظافر.. اظفر بها كما تظفر بكل شيء!.

ففظرت له بغير تصديق.. هل فعل كل هذا من أجل تقاديم تلك اللحظة؟ لحظة الإقصاء؟ هل أبقاني خادمة دميمة حتى افتعل الجميع بذلك حماية لي؟ نعم! لولاه لأصبحت الآن مجرّد عبدة جديدة! معلقة من أطرافها في غابة القلعة، يائسة ولا تأمل أي شيء سوى أن يرأف بها أحدهم، أو أن يتوقف قلبها تقاديمًا لعذابٍ أكيد.. لقد ظفر ظافر بما أراد فعلًا! همست له بعملي:

- كيف فعلت هذا؟.

انحنى ليقترب مني، وضع يده على غطاء رأسه يرفعه قليلاً ليظهر ما بينه وبين غطاء وجهه.. عينيه.. بدون تفكير نظرت لهما، وكأن شيئاً بداخلي يحثّني على أن أفعل هذا.. لأجد أن لونهما الرمادي فاتح للغاية.. وهذا ما يبدو جلياً في عينه اليسرى.. مهلاً.. هي تلمع بطريقة ملفتة، حتى إن لونها بدأ في الذبول.. حتى أصبحت خاوية.. فقط باللون الأبيض، والعين الأخرى كما هي!

تخلّ صوته خلايا عقلي حين قال:

- ما ترينـه الآن هو جانبي الآخر، إليونورا.. أنت الوحيدة التي سترـينـ هذا الجانب الخاص بي.. فقط لأنـتي أثقـ بكـ...

واستطرد بين دهشتي:

- لست مجرّد روح، بل أنا قابض لها أيضًا.. فأنا نصف بشرى، ونصفي الآخر هو قابض أرواح...

زادت دقات قلبي بسرعة، وازدادت جنونـا على جنونـ حين أخذـت عينـ ظافرـ اليسرى تلمع بلونـ أبيضـ أخاذـ، وكأنـه ضوءـ الشمسـ الذي افـقدـتهـ! سرتـ رعشـةـ

غريبة هي جسدي وتذكّرت أن تلك النظرة هي فعلاً.. نظرة قابض للأرواح! شهقت أنفاسي بذعر فأعاد ظافر عينيه لطبيعتهما كما أعاد غطاء الرأس ليخفي عينيه، فقلت أنا بينما التقط أنفاسي بضعف:

- وماذا عن وجهك؟.

ربّت على كتفي وهو يعني للنوم قائلاً:

- دعى كل شيء يحدث في وقته المناسب...

وأضاف بينما يمرّ يديه على رأسي:

- تصبحين على خير...

أغمضت أنا عيني لأسمع العديد من الأصوات الغريبة.. همس.. بكاء.. أنين.. واستيقظت بعد قليل... لأجد أنني قد قاومت النوم لاستيقظ.. على نفس الصوت الأخير الذي جاءني بحلمي.. صوت الأنين..

التفت حولي ولم أجد ظافراً بجانبي، ولاحظت صمت جميع الأصوات عدا ما أسمعه الآن.. الجميع نائم، إزالين، إيفي والجميع، الحرس ليسوا موجودين.. أين رحلوا يا ترى؟ التفت لليسار تلقائياً لمصدر الصوت.. تحول الأنين إلى نحيب.. وشهقات متقطعة! ماذا يحدث!

نهضت ببطء على أطراف قدمي، أريد تتبع الصوت.. فضول غريب تملّكتني.. لم أضع الخف الناعم بقدمي، بل سرت على البلاط البارد ببطء وحذر، أقترب أكثر، ليزيد الصوت بأذني.. وفجأة توقفت حين لاحت من تجلس مولية ظهرها إلى جانب المنضدة الأرضية.. كانت عروس الأمير! تأكل بنهم من الفاكهة المتروكة على المنضدة.. يختلط صوت بكائها الذي تحاول كتمه مع صوت قضمها لثمرة التفاح في يدها اليسرى، تظهر صوت شهقاتها وهي تدخل حبات العنب بضمها بنهم.. هل هي جائعة لتلك الدرجة؟ هل تؤلمها معدتها؟ ارتعدت أنفاسي لتتصدر

صوتاً عالياً قليلاً، فتراجعت قبل أن تكتشف أنتي أتلاصص عليها، عدت لفراشي
وتدثرت بهدوء، لأجد أنتي قد استسلمت للنوم مرة أخرى!

صوت أذن.. مختلط مع صوت نهنهة، شهيق وبكاء مكتوم.. كل هذا يصدر من
نفس الفتاة إلا أنه يكرر واحداً تلو الآخر فيختلط على أذني.. إحساس بالبرودة
يحتلّ عقلي.. أشعر بهواء غريب يلامسني، يداعب جبيني، ، أهدا بي وأيني..
ينبعث من أمامي.. حاولت فتح عيني فوجدت الضباب يعميني، لوّحت بيدي في
الهواء بينما أسيير للأمام ببطء، لتقرب أصوات العويل مني بطريقة غريبة..
لادرك أنه صوت عروس الأمير.. وبدا هذا واضحاً حين سمعتها تقول بضعف:

- اتركني.. اتركني!.

وفجأة وضحت الصورة أمامي! الفتاة معلقة في الهواء وكأنها تنام على ظهرها،
منامتها البيضاء النظيفة تظهر بوضوح ما يقف بالقرب منها متحكماً فيها.. قابض
أرواح.. يحمل الضباب بين يديه يحرّكه حولها.. بينما هي تئن وتهزّ رأسها بضيق،
لكن تتشوش الصورة أمامي لأراها مبتسمة بصفاء مغمضة العينين مغلقة الشفاه
والصوت ما زال ينبعث حول أذني! وفجأة! صمت كل شيء! إلا من ذلك الصوت:

- إليونورا هيّا استيقظي.

نهضت بقوّة دهشتي لأكون جالسة وساقاي ممدّتان أمامي في فراشي، أشهق
أنفاسي بصعوبة بينما إيفي تنظر لي بدهشة وتقول بصوتها الرقيق:

- هل أفزعتك؟.

قالتها ظنناً منها أن بصوتها العذب هذا قد أيقظتني من نومي، وهي لا تدري
 شيئاً عن غرابة ما شاهدت! مسحت على وجهي أحموها شاهدت من مخيلتي بينما
أنا في ظافراً بعقلي، نظرت حولي بيته لأجد على أقصى اليسار صفاً قصيراً من
العرائس أمام المستراح.. فهمست بغرابة:

- أين هي؟.

بحثت عنها بعيني في وجوه العرائس الناعسات، وفي جميع الفرش.. فسألت
إيفي بغرابة:

- من هي؟ أتتصدين إزالين؟ هي في أول الصف! أمامكما تدريب طويل!.

أشحت برأسِي وهزّتها نفياً بضعف:

- لا لا.. أقصد.. عروس الأمير.. أين هي؟.

هزّت كتفيها بجهل قائلة ببراءة:

- لا أدرِي.. لم تجدها أي واحدة منّا.. وافتراضت واحدة أنها تم استدعاها
أثناء نومنا، لتهذهب للأمير.

استرجمت صوت أنيتها في أذني، صوتها كان معدّياً.. وأعدت آخر ما قالت
إيفي بغرابة:

- ذهبت للأمير؟.



{١٤}

المؤاهرة الأولى =

- ذهبت للأمير؟.

نفضت الغطاء عني ونهضت بسرعة وفتحت عنها بمنفسي، بين وجوه الفتيات..
اعتقدت أنتي سوف أجدها، كما فتشت في فراشها بذهول، غير مصدقة ما قالته
إيفي لي للتو! كيف تذهب للأمير! كانت حالتها مزرية ليلة أمس! كانت منكبة على
الطعام بأسى وكأنها لم تر مثله في حياتها.. كما ذرفت الدموع وكأن عينيها قد
ولدت حديثاً

- إليونورا! توقف عن البحث فهي ليست هنا!.

أمسكت إيفي يدي وثبتتني بجانبها، ربتت على كتفي برفق وقالت بصوتها العذب:

- ما بكِ اليوم؟ هل أنتِ متوفرة بسبب درس الرقص؟.

رفعت عيني لأبحث عن شخص آخر لم أعتد اخقاءه مؤخراً أو بعده عن ظلي..
ظافر..

- أين الحرس؟.

سألت إيفي بعد أن استعدت تركيزي، وبت أفكر في شيء ما خارج ذلك الكابوس
الغريب والذي شتتني بين النوم واليقظة، مما جعل إيفي تنهض قائلة بإشراق على:

- استدعاهم كبيرهم ليلة أمس... .

أخرجت ورقة صغيرة مطوية من جيب ردائها الواسع، فضّتها وأعطتها لي، فقرأتها أنا بعيني أمر بين الحروف سريعاً لأفهم الموجز:

- إيفي سأرحل وأتركك لتعتني بنفسك الليلة، فلدي استدعاء من كبير الحرس، ذلك الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء، كما تم استدعاء زملائي أيضاً.. كوني بخير..

حارسك المخلص؛ كالليب..

ابتسمت لسداقة حروفه وبراءتها، مما أثارني لرؤيه تلك النظرة الحالمة في عين إيفي.. هل يسعدها ما يقول حقاً؟ حارسها المخلص! هه..

- قفن في الصف، لا نريد التأخر عن الدرس، وخصوصاً أنت إليونورا... التفت لصاحبة الصوت الناعم، لأجد أنها إزالين، فابتسمت بoven ردًّا على كلماتها البسيطة ولهجتها التي لم تخفي غروراً.. أو اعتزازاً بالنفس زائداً عن حده، لا أدري، ولاحظت أنها تمسك بورقة صغيرة.. كالتى لا تخضني لكتى أمسكتها بيدي، فتركت تلك في يد إيفي وعبرت بجانبها لأصل لإزالين التي قد وقفت في الصف، وهمست بفضول:

- ما المكتوب بالورقة في يدك؟.

استدارت لي لتجدني خلفها التصق بها، فابعدت قليلاً ورفعت الورقة لأتابعها أنا بعيني وكأنها شيء مدهش للغاية، فابتسمت بتسلٍ قائلة: تهمس بالقرب من أذني:

- أتدررين؟ وقد انحسر عدتنا سبداً المؤامرات.. للوصول للأمير.. وستكون الأسرار وقتها مباحة، كما سيكون كل شيء!.

وأضافت:

- ستكون كاللعبة بلا قواعد!.

ضيّقت المسافة بين حاجبيّ بينما أتابع عينيها السماويّتين، أحاول تخمين ما إن كانت ستمطر أو ترسل الرياح للغيم.. لكنّني وجدت عينيها كما هي دوماً.. صافية.. بمناخ هادئ لا يندر بشيء أبداً! فابتلعت غصّة في حلقني وقلت بفترة شكّ:

- ظافر قال أنتِ لن تكوني للأمير.. أم أنتِ ستعصين ما يقول؟.

ابتسمت ثم تعلّلت ضحكتها المتعالية المتسليّة، فالتفتت إلينا العديد من العرائس الناعسات، لتختّن هي ضحكتها بتربيّة سريعة على رأسي هامسة:

- أنتِ طيبة القلب.. تصدقين كل شيء لكن أريدك أن تعرّفي شيئاً.. أنا لن أكون عدوّة لك أبداً.. وطالما أنتِ تحت حماية ظافر فأنتِ في حمايتي أيضاً...

فغرت فاهي غير مصدقة لما تقول، واسترجعت سبب وقوفي في بادئ الأمر.. ما الموجود بتلك الورقة؟ أهي مؤامرة أم مجرّد رسالة من حارسها؟ يجب أن أراها الآن!

خطفت الورقة من بين أناملها، والتي لم تكن محكمة عليها كما ينبغي، لأدرك أنها تركتها لي عمداً.. فنظرت للورقة بترقب وفضضتها، لأكشف عن هذا المحتوى الذي أثار فضولي للدقائق القليلة الماضية.. وجدت بعض الحروف المتشابكة، بخط أشبه بالرسم.. تلك الورقة رغم بساطتها؛ هي تحفة فنية! والمكتوب كان صعباً على قليلاً، أعرف هذه اللغة، هي لغة راقية للغاية ومن يبرع بها هو بالتأكيد راقٍ ومرموق الشأن.. أو مثقّف للغاية.. وهذا ما رجّحته حين قالت إزالين بهجة عادية:

- تركها ظافر تحت وسادتي.. ليست بالشيء المهم فلا تقلقي...

نظرت لها باستكفار وكأن لسان حالي يقول: «لست قلقة.. إنه فضولي الملعون فحسب!.. وحاولت قراءة الكلمات ببطء.. وضممت شفتيّ محاولة إيجاد النطق السليم:

- اشش.. ششرر.. بي.. لك.. كثي.. رم.. ن الم.. اء.. الماء.. أليس كذلك؟.

قلتها بقليل من الجهل الأبله، ثم رفعت رأسي لها لأجدها مبتسمة بهدوء،

فكُررَت الجملة عليها:

- اشربي الكثير من الماء؟.

وأضفت متسائلة:

- لكن لماذا؟.

رفعت كتفيها وأرختهما بعدم معرفة جواب لما سألت للتو، فزفرت قائلة بريبة:

- أنت وشقيقك غامضين للغاية.. أود لو أدخل عقليكما لثوانٍ فقط لمعرفة ما يدور بالداخل!.

اتسعت عينا إزالين أثراً لما قلته ووضعت سبّابتها على شفتي برقّة قائلة بهمّسٍ مذعوراً:

- اتفقنا على أن لا نقشى السرّ!.

فانتبهت أنا من حولي، وقلت معتذرة:

- آه.. آسفة...

واعتدلت لأقف خلفها بالصف.. ولم أدر أن من كانت تتبعنا من على بعد هي

إيفي، تضم شفتيها بحزن طفولي بريء وكأنها تقول:

- لا تسرقي صديقتي الوحيدة!.



- أرجوكم.. قلن لي أن هذه مزحة.. هذه مزحة ها؟ أين باقي العرائس؟.

كان هذا ما قاله المدرب للزوج رخو الهيئة حين أخبرته إحدى العرائس أنتا، وبفقدان العديد منا، في عددنا الكامل.. والصحيح..

- كيف حدث هذا؟ لماذا ومتى؟.

سقط أرضاً على مؤخرته بهدوء ووجهه مصدوم، فاقتربن الفتيات منه يساعدنه، فأبعد يدهم عنه وأخفى بها وجهه الباهي وقال بيساس:

- كنت أضع كل أملٍ فيكِ! كانت هذه المجموعة من أرقى ما حظيت به يوماً!
فأنا نَجَّيلات، موهوبات وذوات آذانٍ موسيقية رائعة..

انتخب بهدوء ورقة لا تليق به، أو بجنس الرجال أبداً، والفتيات يربّن على كتفه ليهون عليه، يعاملن بعضهم بعضاً! أما هو فقد أضاف خاتماً ما قد قال عن الآذان الموسيقية:

- وصَدِيقِي، جلاديس، لا أعنيكِ أنتِ.

ضحكن الفتيات على مزحته حين أشار على واحدة منهن، ترفع شعرها الكثيف غير الناعم تماماً للأعلى، والتي ضيقَت المسافة بين حاجبيها لتقول بيلاهة تبرز طبيتها:

- هه؟ هل قلت شيئاً للتو؟.

فانفجرت الفتيات ضاحكات مرّة أخرى سخرية وتصديقاً على مزحته، ليتبين لي أن «جلاديس» ليست مستمعة جيدة للموسيقى، أو لأي شيء في الحقيقة.. سمعها ضعيف وطفيف للغاية، لدرجة أنها تخطئ سمع اسمها في الكثير من الأحيان فلا تجيب..

تههدت وفكّرت في أن اختيار العرائس هو طبقاً لمعايير لا أساس لها من العقل أو المنطق.. يختارون الفتيات التي لا تجيد أعمال المطبخ والتنظيف، كما يحرصن

على أن تكون نظافتها الشخصية ممتازة بالفطرة، بالإضافة للوجه ذي الملامح اللطيفة.. فقط! لأدرك الحقيقة التي كانت مستترة عن طوال هذه الفترة.. نحن كعرّاس مختارات للأمير لسنا فائقات الجمال، بل نحن أفضل ما يمكن اختياره وفقاً للمعايير السخيفية الأخرى.. وفي لحظة تذكرت في المطبخ خادمات جميلات، ويمكن القول أنهن أفضل شكلاً من عرّاس أمكث أنا معهم بالطابق... لكن.. ما الذي يمكنني أن أقول.. هي فقط القواعد العقيدة هنا!

- حسناً.. سأقتبّل الأمر...

قالها المدرب لينتشاني من تفكيري، لأنظر أنا إلى هيئته التي زال عنها الوهن قليلاً، فهو قد نهض رامياً مخاوفه أرضاً، ليبيث فينا القليل من الشجاعة قائلاً:

- دعونا ننسى الأخريات، سيتم تدرييكم من جديد.. فمن كانت تجلس طوال التدريب ستهض وتهز جسدها بالكامل ليكون ليّنا رغماً عن أنفها، ومن كانت جيّدة فلتعطي خبرتها للباقيات.. فما سمعته اليوم سيجعلكم مؤمنات بما أقوله جدياً...

صمتت جميع الفتيات ووقفن في دائرة واسعة من حوله، ليسمعن ما عنده، فقال باللهجة عادية متذكراً المشهد أمامه بشرود:

- ذكرت لي جليندا أن الفتيات الجديdas لم يستيقظن بعد.. ومنذ فترة وعدد الوافدات الجدد يتناقص، إما ذلك أو يبقين خادمات...

تنهّد وقال بنبرة أعلى قليلاً ليبيث فينا الحماس:

- ما أقصده من هذا هو أنكـن مميـزات الآـن.. كالعملـة النـادـرة.. وبهـذا الفـريق لن يكون الأمـير مـحتاجـاً لـأيـ أمـيرـةـ أخرىـ، كـنـ كـافـيـاتـ عـزـيزـاتـيـ! ولـتكنـ هـذـهـ الـبـداـيـةـ إـذـاـ.

انتهـيـ ماـ قـالـ بـفـرـكـ يـدـيهـ بـطـرـيـقـةـ حـمـاسـيـةـ، فـالـقـيـتـ العـرـائـسـ بـعـضـهـنـ إـلـىـ بـعـضـ بـغـيرـ تـصـدـيقـ، حـتـىـ هـتـقـتـ وـاحـدـةـ فـجـأـةـ:

- نحن الوحيدات! سيختار الأمير من بيننا وسنكون أميرات حقيقيات!.

ابتهجت الفتيات وفرحن، دخلت السعادة قلوبهن جميعاً عداي أنا، فما دخل قلبي هو المزيد من الوجل والحيرة.. وتساءلت: ترى ماذا سيحدث لنا؟

وبينما نحن نجلس القرفصاء في نفس الدائرة حول المدرب ونشاهد ثلاثة فتيات يتدرّبن على نفس نوع الرقص، سمعنا طرقاً على الباب، ثم فتح بهدوء ليدخل الحرس واحداً تلو الآخر في صف منظم، ويجلسوا بالقرب من حائط المرايا بعيداً، ليراقبوا التمرين وليكونوا على تأهّب لأي شيء..

- عيناك هنا.. هنا عزيزتي على تمايل جسدي الناعم، لا على هؤلاء! أريد تركيزاً!.

قالها الحارس بقسوة ناعمة حين سُرقت الأصوات منه عنوة، فضحكت الفتيات بهمسٍ وتابعن النظر إليه، والثلاثة اللاتي يتتوسّطن القاعة ذات الجدران العاكسة ركّزن على النظر إليه وتقلّيد حركاته..

رفعت رأسي بحذر لأنظر خلفي، فلمحت ظافراً يجلس بعيداً عن الحرس، مما يلف الأنظار له بشكل كبير، ويشتت تركيزي أيضاً.. سيلاحظ المدرب أنتي أنظر للخلف، وسيو逼خني أمام الفتيات! وأنا لا أريد إلا المعاملة الجيدة حتى أصل للأمير! نظرت لفتاة ما تجلس أمامي، يحول جسد المدرب الذي يعطي ظهره لي ولمن بجاني بيمنا، أشرت لها أن تبدل الأماكن، فوافقت دون تردد، فابتسمت لها وسرت خلف الدائرة كما فعلت هي وجلست بمكانها السابق، مما جعلني في مكان استراتيجي ومناسب لمتابعة الدرس، وفي نفس الوقت النظر لظافر، فأنا حقاً أريد معرفة أمر هذا الاستدعاء!

- ظافر.. لماذا رحلتم فجأة؟.

قلتها له أنا ديه بعقولي، فأسمعني صوت ضحكته المتسلية فعبست قائلة:

— لا وقت للمزاح أنا في منتصف الدرس!.

رأيته يهزّ كتفيه ثم يسقطهما قائلاً بمرح:

– كوني تلميذة نجيبة وركزى على الدرس فقط.. وكفى عن الشرارة!.

نفخت الهواء في ضيق فالتفت إلى عروس ما، فأشحت ببصري بعيداً أتظاهر
باللامبالاة بينما أحدث ظافراً:

— كلاً أخبرني، إذا لم تخبرني فلن أكون في كامل تركيزك وقت رقصتي الثانية مع أختك.

— لا تقولي أختك فقط ناديهما باسمها...

قالها محدثاً بهدوء فقلت بلا مبالغة حقيقة:

حسناً أَيْ كَانَ... -

– نحن لا نريد لتدريب اليوم سوى أن يكون استثنائياً كالمرة السابقة، فأنا
أنتظر هذا حداً...
–

هـ أضافـ

لذا سأحرّك بالآمن ...

ابسمت وأشحت بيصري عن درس الرقص لبرهه وابسمت له ليبدأ، فقال بصوته الهدائي العميق:

– كانوا يريدون إخبارنا بخطورة الخبر الذي بالطبع لم يخفيه هذا اللزج عنكن...
عنكن...
عنكن...

كتمت صحتي حين نعت المدرب باللزج، فأنا أيضاً أُلْقِيَ بهذا إكم يشعرني هذا

بالرضا لعدم ظلمى له!

- يمكن للعرائس أن تتأمر على واحدة منكنَّ ليتم إقصاؤها أو التخلص منها بأي طريقة كانت...

اتسعت عيناي لما قال، وربطت بين ما قال للتو وبين ما قالته لي إزالين بطابق العرائس: «ستكون كاللعبة بلا قواعد» وكلمة المدرب: «كالعملة النادرة!».. فابتلت خصلة في حلقتي واستمعت لما يقول:

- والملاخص من كل ما حدث، نريد الحرص.. فقط...
- فقط؟

رددتها فأكَدَ على ما قال بهزَّة رأس.. فابتسمت بتوتر لأسمعه يقول:
- كنتِ تعرفين السبب ها؟.

أومأت بصورة خفيفة وعقملي بيثَ الرعب في نفسي، لا أريد أن أستيقظ يوماً وأجد العديد من الحرمس حولي يحاولون التحرش بي فقط من أجل تحقيق مؤامرة يجعلوني فيها مذنبة، ويتم إقصائي! أو.. أن تضربي إحداهن لافتعل شجاراً.. أو...

- لا داعي لتلك الهواجس!.

قاطع ظاهر صوت الطنين بعقملي ودقَّات قلبي المرتعشة، ليحدَّثني بصوته الذي طمأنني بدقَّته:

- لن يحدث لك شيء طالما أنك تحت حمايتي...
تهَّدت لأطْرُد ما أستطيع طرده من الهواجس، وقلت في نفسي:
- أنا أثق بك ظافر.. لذا سأطمئن.
- وأنا واثق من كونك ستتفعلين...
ابتسمت وتذكريت شيئاً ما، فسألته:

- هل صحيحٌ أنك تنتظر تأدبي للرقصة الثانية مع إزالين؟
- بفارغ الصبر...

قالها بسلٍ فاحمرٌ وجهي قائلة:
لو أنك لم تخبرني بأنها شقيقتك...
و قبل أن أكمل باقي جملتي وجدته يقاطعني قائلاً:
- ليست شقيقتي.. بل اختي...

ابتسمت بلا معنى، لست أفهم! فأوضح لي:
- هي اختي من أمي فقط...

ارتفع حاجباهي بدهشة وقبل أن أسأل أي شيء سمعت صوت المدرب يقول:
- إزالين وإليونورا، عزيزتاي الجميلتان! أشكر القدر على كونكما معنا الآن!.
أرجعت حاجباهي لوضعهما بسرعة وثبتت عيني عليه بتركيز، لأجد إزالين قد
وقفت بجانبه، تشير لي بعينيها، وشفتهاها تهمسان بـ:
- هيّا!

وقفت بسرعة أمامهما، ليتابع المدرب قوله ممسكاً بكلتا يدينا:
- أضع أملاً كبيراً على وجودكما في حفلة الأمير.. ليس لأنكما الأجمل فقط،
بل لأنكما تشكلان ثنائياً رائعَا!

ابتسمت لجاملته وشكرته همساً، وشكرته إزالين بابتسامة واهنة وهزّة رأس..
بالطبع هي تعلم بكونها الأجمل والأفضل، فلم تهتم لجاملته هذه؟!

ترك المدرب كلتا يدينا بحذر وكأنه يخشى عليهما من الكسر، وجلس أرضاً
متربعاً بجانب الفتيات وكأنه واحدة منهنّ، مستنداً على جدار المرايا كما فعل

العديد من الحرس بأخر الغرفة، وأشار بذراعه بنعومة لعازي الموسيقى، ليشرعوا في عزف موسيقى المفضلة.. والتي تذكرني دوماً وفي كل لحن لها بأغنية إزالين؛ استثنيني»..

لمحت ظافراً يعقد ذراعيه أمام صدره ليتابع بتركيز، فابتسمت وأغمضت عيني لأركز على الموسيقى، كما المرة السابقة.. وحين بدأت.. نسيت كل شيء يرهقني و يؤرقني.. وتفاعل مع الموسيقى.. بيدي، وذراعي وساقي، انحنى جذعي قليلاً كما تمايلت كل خلية في جسدي لتلك الموسيقى الهادئة الجذابة.. بت أفتح عيني بين الحين والآخر لأركز ببصري على إزالين، فوجدتها منسجمة تماماً، أكثر من أول مرة رأيتها تتمايل.. وكأنها تؤدي رقصتها الأخيرة! اقشعرّ بدني لتلك الخاطرة وفضلت أن أركز فقط على الموسيقى والتجاوب معها بشكلٍ سليم، فرؤيتي لنظرات الإعجاب في عين العرائس، الحرس، المدرب، وظافر تجعلني أتأكد من أنني سأراها يوماً في عين الأمير نفسه!

تذكّرت نظرتي للأمير العالى الذي انعكس ظلّ تاجه على وجهه فأخفى ملامحه بسبب ذلك القمر المغطّر، كم يديني هذا القمر.. ابتسمت وتخيلت أن الأمير يبسم لي.. ويشير إلى.. ترى.. هل هو وسيم للغاية.. هل سيسحرني شخصيته؟ هل يجيد تحدث اللغات؟ كيف يمتطي جواده؟ هل سيسحرني كأي أمير في الحكايات؟ أجل، نعم، بالتأكيد.. وبالطبع! فسيكون فائقاً لكل توقعاتي.. أشعر بأنه.. استثنائي! ما لبثت أن أغوص في بحر الأحلام حتى سمعت ظافراً ينبهني:

- افتحي عينيك...

فتحتهما دون حتى أن أدرك أن عقلي أعطى الأمر بذلك، لأجده يقول بنبرة جادة:

- عودي للخلف خطوتين فقط...

- لماذا؟

قلتها وأنا أعود للخلف، بينما لا أنتظر ردًا حقيقيًّا، فعلت ما قال تلقائياً كي
أستعيد تركيزي مع العازفين، وفجأة وبدون أي مقدمات، وبينما أرفع ساقي اليمنى
كما تفعل إزالين لتأدية حركات الرقصة بنعومة، سمعت صوت ارتطام ضخم،
صرخة إزالين، مع انطفاء ضوء الغرفة الأوسط.. في نفس اللحظة!

صرخت العديد من الفتيات اللاتي انتقضن واقفات بفزع، وأنا أفقت من
شروعي اللحظة لأجد أنني ماكثة على الأرض أحسي رأسى من شيء أجهله، كما
فعلت العديد من العرائس مع تعطية آذانهن من صوت الارتطام القوى وكما فعل
المدرب نفسه، وما هي إلا لحظات حتى بدأت إزالين بالبكاء بشدة، فانطلق الحرس
يهرونون، كلُّ يبعد العروس التي في حمايته، يمنعونها من مساعدة إزالين، بإزالة
الثريا ذات الشموع التي انطفأت ووقيعه.. على منتصف جسدها الأيمن!

شهقت بلوحة وهرولت نحوها ما إن فهمت ما قد حدث، الفتيات يبكيين بفزع،
منهم من تبكي من الصدمة، ومنهم من تخشى الظلام، أما أنا فلم أكن أنظر لأي
شيء سوى إزالين، المسكينة تبكي بمرارة! فقدمها اليمنى عالقة تحت الثريا!

- تمسكى سنزيلها عنكِ.

قلتها وأنا أكرس كل جهدي في تخلصها من ذاك الشيء الثقيل، لكن بلا
جدوى! وما هي إلا ثوانٍ إلا ورأيتها تتقيأ دمًا! سائل لا ينتهي؛ أحمر اللون بشكلٍ
فظيع! رأيتها يبقياها الضوء الآتي من آخر الغرفة، قبل أن يحجب الضوء أحد يقترب
منا! صرخت بفزع واضعة يدي على قلبي، أشعر به يدق بجنون! هل يمكنه التوقف
الآن! هل يمكنه ذلك؟!

- فليأتِ أحد المساعدة أرجوكم! هناك كارثة!.

قالها الحارس الذي هرول للخارج تاركاً الجميع في هلع، دون حتى أن يتකّب
العناء في محاولة إزالة ذلك الشيء عنها، كأي رجل شهم! على ذكر الشهامة!
التفت للحرس لأجد كلاً منهم يمسك بيد الفتاة التي يحرسها بمنتهى الحرص،
لا يريدون إفلاتها، منهم من يهدئ من روعها.. كما يفعل كاليب لإيفي التي تبدو

مصدومة للغاية، ونظرت بجانبي لأجد ظافرًا يزيل ذلك الحمل من فوقها، بعد أن لطخته دماءها المتدفقـة من جوفها المـسـكـين.. وبين نظراتي المـذـعـورـة سـأـلـتـه بـعـقـلـي:

- كيف حدث هذا لماذا؟.

قلـتـها وأمسـكـتـ بـذرـاعـ إـزـالـيـنـ المـمـدوـدـةـ بـجـانـبـهاـ بـإـعـيـاءـ وـمـسـحـتـ عـلـىـ جـبـينـهاـ الـذـيـ تـعـرـقـ لـلـغـاـيـةـ وـبـيـنـمـاـ أـنـاـ غـارـقـ فـيـ دـمـوعـيـ سـمـعـتـ صـوـتـ ظـافـرـ يـجـبـينـيـ بـغـمـوـضـ:

- المؤامرة الأولى...

وأضافـ:

- بل مؤامـرـتـيـ الأولىـ!.

سرـتـ قـشـعـرـيـةـ قـوـيـةـ بـجـسـدـيـ بـفـعـلـ ماـ قـالـ لـلـتـوـ..ـ وـهـمـسـتـ بـإـعـيـاءـ:

- مـاـذـاـ تـقـصـدـ؟.

نظر ظافـرـ لي لأـجـدـ أـنـ إـحـدـيـ عـيـنـيـهـ تـلـمـعـ مـنـ تـحـتـ غـطـاءـ رـأـسـهـ حـينـ قـالـ بـلـهـجـةـ خـامـضـةـ:

- أنا الفـاعـلـ،ـ وـلـاـ يـشـعـرـنـيـ هـذـاـ بـالـسـوـءـ أـبـدـاـ!.

جـاءـتـ كـلـ الـأـفـكـارـ المـزـعـجـةـ فـيـ عـقـلـيـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ،ـ بـصـوـتـ الطـنـينـ الـذـيـ يـزـعـجـنـيـ،ـ كـمـاـ تـجـمـدـتـ صـوـرـةـ إـزـالـيـنـ جـاـحـظـةـ الـعـيـنـيـنـ تـتـقـيـأـ دـمـاـ،ـ يـغـطـيـ الـثـرـيـاـ،ـ وـمـلـابـسـهـاـ،ـ كـمـاـ غـطـّـيـ شـعـرـهـاـ المـنـسـدـلـ عـلـىـ وـجـهـهـاـ بـتـمـوـجـ خـفـيفـ..ـ فـشـهـقـتـ الـهـوـاءـ مـنـ رـئـيـّـيـ بـصـعـوبـةـ،ـ وـسـكـنـ كـلـ شـيـءـ..ـ

فـقـدـتـ وـعـيـ،ـ لـأـسـقـطـ بـجـانـبـ صـدـيقـتـيـ الـجـدـيـدـةـ وـالـتـيـ فـقـدـتـهـ لـلـتـوـ..ـ لـيـفـتـرـشـ شـعـرـيـ الـأـسـوـدـ دـمـاءـهـاـ كـفـرـشـةـ نـاعـمـةـ قـدـ لـطـخـتـ بـالـطـلـاءـ..ـ وـآـخـرـ مـاـ سـمـعـتـهـ صـوـتـ إـيـفـيـ تـصـرـخـ بـاسـمـيـ بـلـوـعـةـ..ـ وـنـظـرـةـ ظـافـرـ،ـ بـشـعـاعـ النـورـ مـنـ عـيـنـهـ الـيـسـرـىـ!



{10}

هل ابتسمت عيناه للتو؟ =

فتحت عيني بضعف لا جد أنتي في مكان خافت الأضواء، فخشت أن أكون في نفس غرفة الرقص، وسريعاً مرّ كل شيء أمامي لأدرك أنتي فقدت الوعي من فطاعة المنظر.. نهضت لوضع الجلوس ليسقط ما كان يغطيني أرضاً؛ وكانت عباءة ظافر السوداء التي ترفرف خلف ظهره دوماً! تذكّرت نبرة صوته حينما قال بغموض:

- أنا الفاعل...

فاقتصرّ بدني مرّة أخرى وانقضّ جسدي يرتعش بردّاً، ومن العدم ظهر لي ظافر بجانبي يقول بصوت دافئ:

- كيف حالك الآن؟.

استدرت له بصعوبة، خفت أن أواجه عينيه، لكن لحسن حظي لم يكونا مكشوفتين، فنتهّدت بارتعاش ودفعه بيدي بضعف ليبعده بينما بدأت في البكاء المريء، وما فعلت لم يبعده عنّي سنتيمتراً واحداً، بل أمسك بيدي الموضوعة على صدره وأخضضها وقال بهدوء:

- لم يكن بوعي إخبارك ما كنت أتّوي فعله اليوم...

ارتعشت كلماتي وخرجت بصوت غير صوتي حين قلت ساخرة منه:

- وهل تعتقد أنه كان سيغيّر شيئاً؟ تخبرني ألم لا؟ أهذا كل ما تفكّر به!.

تهـدـ ظـافـرـ وـرـبـتـ عـلـىـ ظـهـرـيـ فـاـبـعـدـتـ أـنـاـ عـنـهـ قـائـلـةـ بـشـرـاسـةـ تـشـوـبـهـاـ اـرـتـعـاشـةـ
صـوـتـيـ مـنـ الـبـكـاءـ:

- اـبـتـعـدـ عـنـيـ يـاـ عـدـيمـ الـقـلـبـ!ـ.

حـرـكـتـ يـدـيـ المـرـتـعـشـةـ إـلـىـ قـلـبـيـ الـذـيـ يـدـقـ دـقـاتـ بـطـيـئـةـ لـلـغـاـيـةـ،ـ أـظـنـهـاـ تـخـفـتـ
شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ قـائـلـةـ:

- أـلـاـ رـحـمـةـ لـدـيـكـ؟ـ إـذـاـ كـانـ هـذـاـ مـاـ سـيـوـصـلـنـيـ لـلـأـمـيـرـ فـلـاـ أـرـيدـ!ـ إـذـاـ كـانـتـ تـلـكـ
المـؤـامـرـةـ الـأـوـلـىـ،ـ فـتـأـمـرـ عـلـيـ أـنـاـ ثـانـيـاـ وـاقـضـ عـلـيـ!ـ لـاـ أـحـبـ الدـمـاءـ وـلـاـ أـرـيدـ
الـقـتـلـ!ـ.

تـذـكـرـتـ اـفـتـراـشـيـ لـدـمـاءـ إـزـالـيـنـ فـاـقـشـعـ بـدـنـيـ وـأـمـسـكـ بـخـصـلـاتـ شـعـرـيـ
بـأـنـاـمـلـيـ المـرـتـعـشـةـ،ـ أـتـقـدـ أـثـرـ الدـمـاءـ بـهـاـ وـمـعـدـتـيـ مـنـقـبـضـةـ بـذـعـرـ،ـ وـلـغـرـابـةـ الـمـوـفـقـ،ـ
لـمـ أـرـ أـيـ أـثـرـ لـهـاـ!ـ وـلـاحـظـتـ أـيـضـاـ أـنـيـ أـرـتـدـيـ مـلـابـسـ أـخـرـىـ غـيـرـ الـتـيـ كـنـتـ بـهـاـ فـيـ
الـتـدـرـيـبـ،ـ وـقـبـلـ أـنـ أـسـأـلـ أـيـ شـيـءـ أـجـابـنـيـ ظـافـرـ:

- لـقـدـ قـمـتـ بـتـبـدـيـلـ ثـيـابـكـ بـعـدـ أـنـ أـزـلـتـ عـنـكـ أـثـرـ الدـمـاءـ...ـ.

نـظـرـتـ لـهـ بـقـلـقـ قـائـلـةـ بـذـعـرـ:

- هـلـ قـمـتـ بـذـلـكـ بـنـفـسـكـ؟ـ أـيـهـاـ الـحـقـيرـ الـمـنـحـرـفـ!ـ.

رـفـعـتـ كـلـتـاـ يـدـيـ،ـ أـرـيدـ أـنـ أـهـوـيـ بـهـمـاـ عـلـىـ جـسـدـهـ لـأـبـرـحـهـ ضـرـبـاـ!ـ كـيـفـ يـتـجـرـأـ
وـيـفـعـلـ هـذـاـ!ـ لـقـدـ خـدـعـتـ فـيـهـ كـلـيـاـ..ـ كـنـتـ أـنـقـ بـهـ!ـ وـبـيـنـمـاـ يـدـايـ يـفـيـ طـرـيـقـهـمـاـ إـلـيـهـ
ابـتـعـدـ هـوـقـلـيـاـ،ـ لـأـسـقـطـ أـنـاـ مـنـ عـلـىـ الـفـرـاـشـ لـيـلـقـطـنـيـ هـوـ كـمـاـ تـلـقـطـ قـطـةـ مـذـعـورـةـ
سـقـطـتـ مـنـ أـعـلـىـ شـجـرـةـ عـالـيـةـ...ـ وـبـدـأـ بـالـتـرـيـبـتـ عـلـىـ شـعـرـيـ بـهـدـوـءـ،ـ بـيـنـمـاـ يـحـدـثـيـ
بـصـوـتـ بـثـ يـفـيـ نـفـسـيـ الـهـدـوـءـ:

- اـهـدـئـيـ مـنـ فـضـلـاـكـ..ـ لـمـ أـفـعـلـ شـيـئـاـ يـؤـذـيـكـ..ـ سـيـكـونـ كـلـ شـيـءـ عـلـىـ مـاـ يـرـامـ
لـاـ تـقـلـقـيـ...ـ

أـغـمـضـتـ عـيـنـيـ لـتـهـبـطـ دـمـوعـيـ بـصـمـتـ،ـ وـقـلـتـ بـضـعـفـ:

- لقد وثقت بك!.

أعاد ترتيب شعرى بيديه ويده الأخرى ملتفة حولي وتربت على كتفى، أعاد خصلات شعرى خلف أذنى بهدوء وخفة.. وحين انتهى أدارنى لأكون في مقابلته، فاقشعر جسدي من ريبة وضعنا الآن.. لم أعتد على أكون قريبة منه لهذا الدرجة! سمعت صوته العميق يقول:

- أريد منكِ فقط أن تتمالكى أعصابك لدقائق إضافية، وبعدها سأبين لكِ ما حدث من منظور آخر...

هزّت رأسي موافقة، لا أدرى لماذا! هل لأن نبرة صوته العميقa الهاشة هذه تشير الرهبة بداخلي؟ أم لأنها تجعل كل خلايا جسدي خاضعة له؟ أم أنها ما تبقى من ثقتي به؟

تركتى ظافر بهدوء وأعاد ثبّيت عباءته فوق جسده وقال يهمس في أذنى:

- الحكمة هنا.. جاءت لتطمئن على حالتك.

هزّت رأسي وما هي إلا ثوانٍ ووجدت الحكمة تفتح الستار الأبيض حول فراشي، تبسم لي على رغم عادتها وسألت:

- هل تشعرين بأى ألم عزيزتي؟ أم أن الدواء أتى بمحضه؟.

أشرت لرأسي وقلت بصعوبة:

- فقط.. بعض الصداع.. .

رأيتها تقترب مني لتقيس حرارتي، فقلت أنا ومقاييس الحرارة داخل فمي:

- لحظة! أي دواء؟ لقد كنت فاقدة للوعي فقط.

هزّت الحكمة رأسها بأسى قائلة:

- كنت في صدمة بسبب ما حدث.. وأعطيتك دواءً مهدئاً.. لكن اطمأنّى صديقتك في حالة مستقرّة الآن.

نظرت للحكمة الأربعينية بغير تصديق، وبينما تأخذ مقاييس الحرارة من فمي تنظر إلى إشاراته تسأله:

تهّدت بارتياح وقلقي يتحقق بحماس وقلق في نفس الوقت، وتساءلت على عجلة:

- هل هي بخير حقاً؟ هل يمكنني رؤيتها الآن؟.

رېتت على يدى ياشفاق قائلە:

- لحسن الحظ لم تتم.. هدأ التزييف الداخلي تماماً، وتبقّت بعض الكسور..
ويمكنك رؤيتها، هي بغرفة الكشف بالأسفل.

نهضت من فراشی ونظرت لظافر، فقالت بطيبة توجّه حدّيثها لظافر:

— أشكرك لتعاونك، فلولاك لما عرفنا التصرف في الوقت المناسب!.

هزّ ظافر رأسه باحترام ردّاً على شكرها ونظرت أنا لظافر شزرّاً وقلت بيالي:

— ويعتقدون أنك البطل أيضا؟ عظيم.. عظيم!.

وتساءلت براءة ظاهريّة:

- هل ساعدكم حارسي في شيء؟

نعم حمل الثريا ووضعها بعيداً، وبينما قمت بالكشف على المكينة واكتشفت أن هناك كسورة بجسدها، كان هو قد حمل لغرفة الكشف.. ثم عاد إلينا و فعل المثل لإزالين.. هو الوحيد الذي قدم المساعدة بين كل الحرّاس.. أنت محظوظة لأن لديك حارساً مثله.. فحارس إزالين لم يقدم على فعل أي شيء ولو بسيط لها.

هزّت رأسِي بغرابةٍ وأنا أتخيل طافراً يحملني.. ومن ثم يزيل ملابسي ليُنْظَفَ
الدماء عنها .. تبأاً! يجب على التوقف عن التفكير الأحمق فهو يستطيع معرفة
ما أفكّر به! لكن قبل أن أستطيع التوقف جاءني صوته محتلاً خلايا عقلي قائلاً
بسخرية هادئة:

- لم أتَكَبَّدُ العناء بفعل هذا بنفسي، فلدي تعويذة تقوم بفعل هذا في ثوانٍ
قليلة!.

احمرّ وجهي وأردت تغيير الموضوع، فقلت ببلاهة:

- وقمت بإلقاء سحرك هذا ولم يلحظ أحد؟.

ضحك ضحكته المتسليّة ورد بإيجاز:

- لدى طريقي!.

تنهّدت وطردت هواجي بعيداً.. ورکّزت فقط على أنتي سأرِي إزالين، وصلنا
لغرفة الكشف البسيطة، عبرناها ولم تتجاهل عيني النظر للعديد من المرضى
والمريضات من الخدم والخدمات على فُرش بسيطة، وحين وصلنا لغرفة أخرى
تفصلنا عن الغرفة العاديّة ستار، وجدت أنها أرقى حالاً، أكثر هدوءاً وخصوصية،
لم أجد سوى إزالين وحارسها، كانت هي تقام على ظهرها، بينما ذراعها الأيمن
وساقها كذلك يختفيان تحت جيبرتين باللون الأبيض، مشدودتين بعمود الفراش
بشكلٍ جعلني أفكّر في كونها محظوظة لأنها نجت من هذه الكارثة، وفي نفس الوقت
أشفق على حالتها هذه. نظرت لظافر نظرة جانبية، أرسل له لومي، وكأن لسان
حالٍ يسأل:

- هل هذا ما كنت تريده؟.

تحنّحت الحكمة فرفعت إزالين رأسها بضعف بعد أن وقف الحارس، وقال
هو بارتباك:

- صديقتك إليونورا جاءت للزيارة.. معها الحكمة و....

نظر لظافر بارتباك، عَلَّه تذَكَّر كون ظافر ساعد الفتاة التي في حمايته بينما هو اختباً كالجرذان فشعر بالخزي.. أو هذا ما اعتقادته أنا!

هرولت لإزالين وأمسكت بيدها المعافاة وقلت ودموعي تهمر مرّة أخرى:

- كاد قلبي أن يتوقف قلقاً لكن الآن اطمأننت لكونك بخير!.

ابتسمت لي وقالت همساً:

- أنا بخير، لا تكوني حمقاء!.

نظرت لحالتها وابتسمت بغرابة، فتحنحت الحكمة قائلة:

- إذا احتجت لأي شيء قومي بطرق الجرس النحاسي الموجود بجانب يدك.

هزّت إزالين رأسها وشكرت الحكمة قبل أن تصرف وتتركنا، وقتها نظر الحارس الضعيف لإزالين قائلاً:

- سأترككم لدقائق.. يبدو أن صديقتك فلقة للغاية...

ونظر لي بارتباكِ واضح، وحين تلقت عيوننا أشاح بيصره بعيداً وهرول للخارج، فتساءلت أنا:

- كم هو جبان! ألم يكن هذا هو المهووس بمراقبة الفتيات، والذي يتحادق على أصدقائه متلطفاً بأكثر العبارات وقاحتاً؟.

هزّت إزالين رأسها وقالت ساخرة:

- منذ أن رحل أصدقاؤه وهو هكذا.. لا بل هو دوماً هكذا ضعيف الشخصية...

اقترب ظافر ليقف عند قدم إزالين قائلاً:

- هل تتأملين؟.

ابسمت له بإشراق قائلة:

- كنت خائفة قليلاً لكن.. أخي أنت رائع! لم أشعر بأي شيء سيئ مطلقاً.
فقررت فاهي ببلاهة ثم أشرت عليه بإصبعي السبابة أسألها بغرابة بها شيء
من الغضب:

- هل تشكرينه؟ هل أنت سعيدة لكونه فعل بك هذا؟!
سحبت يدي لتشابك مع الأخرى بارتباك لضحكه إزالين الناعمة، وقلت بغرابة
وأنا أمثل المشهد بيدي:

- كنت تحلىين برقضتك تلك، وفجأة وقعت الثريا فوق جسدك بالضبطاً
وتضحكين هكذا! من أنت؟ قابضة أرواح!.
التفت ظافر إلى لأرى عينيه تلمعان لي بتحذير، فضحك بارتباك بينما
تذكريت أنه سرّ بیننا.. ما بال لسانى!
- بل أنا أشكّر صنيعه هذا...

قالتها إزالين لأنتفت إليها بغرابة، واستطردت:
- لن يعجب الأمير بفتاة بجبيرتين.. وهذا هو ما أردناه.. أخي عبقرى!.
فضحكت بغرابة.. ونظرت له أسأل لأنتأكد من ما فهمت للتو:
- هل قمت بتحذيرها أو شيء من هذا القبيل؟ كيف لم تشعر بأي ألم؟ و..
وماذا عن الدماء التي كانت تخرج من فمها و...

كنت أدير نظري بين إزالين وظافر، فوجدت إزالين تغمز بعينها قائلة:
- أخبرني بشرب الكثير من الماء، ففعلت!.

تذكريت تلك الورقة الصغيرة ذات الخط الفنّي، فنظرت لظافر بغير فهم،
محتارة.. أريد تفسيراً!

عقد ظافر ذراعيه أمام صدره قائلًا بهدوئه المعهود:

- أردت أن تكون معدتها مملوءة بملاء كي أستطيع التحكم به.. حولت لونه وقوامه من ماء إلى دماء أمام أعينكم، بينما لم تشعر هي بأي شيء، حتى انقباضات المعدة.. كما لم تشعر بألم لوقوع الثريا من الأساس...

اتسعت عيناي بفزع وتساءلت بغرابة:

- تحكمت في كل هذا!

أومأ بهدوء، وبت أتخيل أن كل هذا كان فقط.. تمثيلاً! وتساءلت مرّة أخرى بحرج بينما أذكر الموقف، وأيضاً موقف نعيي له بالقاتل و.. قاسي القلب:

- لكن.. لكن.. صرختها! و.. وكل شيء!.

فقال:

- لم يكن سوى خدعة بسيطة لم تكلعني الكثير.

جحظت عيناي ونظرت لجسد إزالين قائلة بقسوة:

- كلفتك هذا! وإن كان بلا ألم فهو ما زال موجوداً! كسور بجسدها وتلك الخدوش على وجوهها ورقبتها!.

هز رأسه نفياً وقال:

- كان هذا أفضل من أن أفقدها للأبد..

لم أعد أتحمّل الوقوف، فجلست على طرف فراشها وعيناي ما زالتا عليه، ذلك الهدى البارد! وأشارت إلى قلبي قائلة:

- وماذا عنّي؟ شعرت بقلبي يتوقف! فقدت وعيي أيضاً.

تحدّثت إزالين مدافعة:

- هو أخبرني فقط أنتي أجيد التمثيل، بدليل أنك اقتنعت جداً، وحتى الآن لا تريدين تصديق أنها كانت مجرد خدعة! أما أنت؟ كنت ستتوتررين وترفعين بصرك للثريا كل ثانية والأخرى!.

ضحكـتـ بـغـيرـ تـصـدـيقـ وـقـلـتـ:

- قـبـيـ كانـ سـيـتـوـقـفـ! وـأـعـقـدـ أـنـ ظـافـرـاـ لاـ يـرـيدـ هـذـاـ لـكـوـنـهـ يـرـيدـنـيـ الفـوزـ بـقـلـبـ الـأـمـيـرـ.. وـبـرـغـمـ تـصـمـيمـهـ لـمـ يـبـالـ بـيـ!.

وضـعـتـ يـدـيـ عـلـىـ قـلـبـيـ وـقـلـتـ بـرـوحـ فـارـغـةـ:

- شـعـرـتـ لـلـحـظـةـ بـ..ـ بـالـخـذـلـانـ!.

سـادـ الصـمـتـ لـلـحـظـةـ،ـ وـأـطـرـقـتـ أـنـ بـرـأـسـيـ أـسـفـاـ..ـ لـأـجـدـ ظـافـرـاـ يـقـتـرـبـ مـنـيـ
يـطـلـقـ كـنـفـيـ بـيـدـيـهـ قـائـلـاـ:

- هـيـاـ..ـ سـتـأـخـرـينـ عـنـ دـرـسـ الـفـرـوـسـيـةـ.

نهـضـتـ وـابـسـمـتـ لـإـزـالـيـنـ قـاتـلـةـ:

- أـتـمـنـيـ لـكـ شـ..ـ

وـقـبـلـ أـقـولـ «ـشـفـاءـ عـاجـلـ»ـ تـذـكـرـتـ كـوـنـهـمـاـ لـاـ يـرـيدـانـ هـذـاـ،ـ فـاـبـسـمـتـ
بـارـتـبـاـكـ وـقـلـتـ:

- أـتـمـنـيـ أـنـ تـكـوـنـيـ بـخـيرـ!.

هـزـزـتـ رـأـسـهـاـ لـيـ مـبـسـمـةـ وـتـرـكـتـهاـ بـالـغـرـفـةـ،ـ مـرـوـرـاـ بـغـرـفـةـ الـعـامـةـ حـتـىـ وـصـلـنـاـ لـمـرـ

هـادـئـ.

- سـنـذـهـبـ أـولـاـ لـلـخـيـاطـيـنـ لـتـحـصـلـيـ عـلـىـ رـدـاءـ مـنـاسـبـ..ـ كـيـ لـاـ يـعـيـقـكـ هـذـاـ.

وـأـشـارـ عـلـىـ الـفـسـتـانـ الـفـضـفـاضـ الـذـيـ أـرـتـديـهـ فـهـزـزـتـ رـأـسـيـ بـصـمـتـ وـتـقـدـمـتـهـ
رـغـمـ أـنـتـيـ لـاـ أـعـرـفـ الـطـرـيقـ،ـ لـمـ يـتـبـعـنـيـ،ـ لـكـنـ فـيـ أـقـلـ مـنـ ثـانـيـتـيـنـ كـانـ قـدـ التـقـطـ
مـعـصـمـيـ وـجـذـبـنـيـ مـنـهـ،ـ لـيـضـمـنـيـ إـلـىـ صـدـرـهـ دـوـنـ أـدـرـكـ مـاـذـاـ يـفـعـلـ!

تفاجأت من ما فعل وحاولت رفع رأسي إليه فوجدت عينيه الرماديَّتين تتظاران لي بهدوء، فدفت رأسي بصدره مرَّة أخرى لتجنب لقاء العيون هذا.. ولم أقاومه! بل شبَّثت في ردائِه بكلتا يديِّ وكأني أحمي نفسي منه به نفسه! فهو حارسي، وفي نفس الوقت من جعل قلبي يخفق بذعر للدقائق التربيعية السابقة! لم أكن أسمع سوى صوت دقات قلبي.. تداخل مع دقات أخرى، أظنهما منه هو، لكوني قريبة منه لهذه الدرجة.. وسكتت.. وسألت نفسي.. كيف لي أن أكون مستسلمة هكذا؟!

- آسف... .

قالها ظافر.. لم أصدقه بالبداية.. لم أكن أعتقد أنه من النوع الذي يعتذر! ومن نبرته تأكَّدت من أنه يعنيها حقًا فدقَّ قلبي بعنف ورفعت عيني لعينيه بحذر وتساءلت بيلاهة:

- لم.

رفع يده اليمنى وقرص على وجنتي بنعومة بأذانله، ويده الأخرى ما زالت تلتف حولي لتقرَّبني منه، فابتلعت غصَّة في حلقي وأنْصَت لصوته العميق، وهو يجيب عن تساؤلي، بالطبع هو لم يرد عليه لأن الإجابة معروفة، بل قال شيئاً آخر:

- أنا حريص على سلامتك، وسأكون كذلك دومًا.. لذا لا تفكري في أن قلبك سيتوقف أبداً...

ابتسمت وتساءلت بغياء مرَّة أخرى:

- هل قمت بعمل تعويذة أو تميمة أو شيء له من هذا القبيل؟.

ونهرت سؤالي الغبي هذا.. لماذا توقف عقلي الآن ليجعلني أقول أي شيء يخطر على بالي فجأة؟! كل ما أفكِّر به الآن هو شعوري بالدفء! هذا الشعور الذي يجعلني أنسى برودة الشتاء وصوت الهواء المربع، وبدلًا من التفكير في ضوء القمر، تذكرت دفء الشمس! تنهَّدت براحة بينما قال لي:

- لدى تميمة تخصّك بالفعل.. سأريها لكِ ذات يوم.
- متى؟

تساءلت بفضول، فضحك بطيبة وقال بصدق:
- قريباً.. قريباً جداً.. أشعر بهذا..

آخر جنني من صدره لينقطع هذا الدفء فجأة، احمرّ وجهي بشدة ونظرت
حولي أتفقدّ الردهة، لم يكن هناك أحد! لماذا تركني إذاً!
- سنذهب لغرفة الحياكة...

قالها وتقديّمني في السير، فهزّت رأسي بشرود فائلة:
- امّم.. نعم.. سنذهب..

وتحرّكت نحوه بشرود، أسرعت الخطى قليلاً كي لا يسبقني هو بخطواته
الواسعة فأضلّ الطريق.. لأنّي ببساطة أدركت أنّي بدون حارسي ظافر، تائهٌ..
بلا مأوى!

قرّرت أن أصمت كي لا يكشف تشوش تفكيري، فسألته ببريبة:
- ظافر.. !!.. هلال.. هل تعرف كل ما أفكّر به طوال اليوم؟
صمت قليلاً ثم قال بعد برهة:

- حين أنظر لوجهك فقط.. وخصوصاً عينيكِ.

وضعت يدي على فمي أفكّر بشرود، ولم أسمع صاحبته المتسلية.. بالطبع كان
يقول هذا فقط ليجعلني أفكّر بحرية.. وقد كان!

خرجت من غرفة الحياكة بعد حديث قصير مع معلمة الحياكة العجوز، لأجد
إيفي تنتظرني، فابتسمت لرؤيتها وابتسمت بدهء، كم تبهجني تلك الصغيرة! آه
لو تعلم أنّ كلمة صغيرة هذه هي مدح وليس ذمّاً كما تعتقد!

كنت ألف يدي حول جسدي وكأنتي أخفية، أو أخفية فعلًا! وأتلفت خلفي بينما
أسيء بجانبها لأرى ظافرًا يسير ببطء.. تاركًا لنا مساحتنا لنتحدث بحرية، وكانت
إيفي تحدّثني بلطفة:

- اعتقدت أني لن تبدأي هذا التمرин بسبب الصدمة التي حدثت.. لكن..
أنا سعيدة بكونك سترن الخيولاليوم! ستبتهجين لرؤيتها كثيرًا!
زدت من احتضان نفسي بذراعي، وتساءلت في نفسي:

- لمَ رداء الفروسيّة هذا ضيق هكذا!

فأنا لا أحب أن يكون جسدي مرسومًا تحت ملابسي بوضوح، كم يشعرني هذا
بالإحراج! جسدي جميلٌ ومتناقض، لكنهولي! ملكيّة خاصة، لا أريد لأحد أن يطيل
النظر إليه أبدًا.

- معكِ حقٌّ...

توقفت عن السير حين سمعت صوت ظافر مؤكداً على ما قلت، وقبل أن ألتقط
له توقفت إيفي أيضًا، تنظر على ما يفعل بترقب، فلقد اقترب ليقف خلفي، ووضع
عباءة ظهره علىّ، ثم التقت ليربط الخيطين الرفيعين من الأمام والذي يتدى
منهما حجران أسودان داكنان للغاية، بخطوط رمادية صعب ملاحظتها إلا عن
قرب، تعجبت من كونه قد استجاب لأفكاري بتلك السرعة.. أم أنه كان يفكر فيما
كنت أفكر به أيضًا؟ هل لهذه الدرجة كان جسدي ظاهراً للعيان؟!

تحنحت بحرج وغمقت بكلمة شكر، ثم أخذت يد إيفي وانطلقت بعيدًا، بينما
قلبي.. يدق بغرابة!

وصلت مع إيفي للجسر المضاء من الجانبين، ليهدينا لمكان تواجد الخيول،
فتساءلت هي بغرابة:

- ما بكِ؟

ابتسمت بغرابة وأمسكت بطرف عباءة ظافر الطويلة التي غطت معظم جسدي، وتساءلت متصنّعة عدم الفهم:

- ما بي؟ هل أبدو مرهقة؟.

تصنّعت العبث بوجهي وكأنني أتفقد حيويّته، وبينما نحن نسير ببطء ابتسمت هي.. فارتبت.. هل علمت بما حدث منذ قليل؟ هل رأت ظافرًا يجذبني فجأة ويقربني منه؟ بالطبع لم تر هذا.. فالمكان كان خالياً تماماً.. لعل ظافرًا فعل هذا.. لكن.. أريدها أن تعرف، هناك شيء ما بداخلي يحثّي على أن أحكي ما حدث.. لأنني أريد تذكّره مَرَّة أخرى، وكأنني أستعيده مجدّاً!

- إيفي..

نطقت باسمها فنظرت لي مبتسمة بتساؤل، فقلت بينما نهبط الجسر بهدوء:

- هل من الطبيعي أن.. أن يحتضن الحارس الفتاة التي يحميها؟.

لدت شفتيها بابتسامة بينما تقُرّر، ثم قالت بتلقائية:

- يفعل كاليب هذا بين الحين والآخر!.

نظرت لها مندهشة وقلت بصدمة:

- حقاً؟

هزّت رأسها وقالت مؤكدة على ما قالت، بتلقائية:

- طبعاً.. فتحن أصدقاء! مررنا بالكثير معًا.. وكما تعرفي لم يكن لدى أي أصدقاء سواه قبل أن تأتي!.

ربّت على كتفها وابتسمت، وتوقّفنا فجأة لنجد كاليب آتياً ممسكاً بجود جميل جداً، لونه هو البني المحبّب، بشعر ناعم وطويل، يهز ذيله ليبعد عنه حشرات الليل التي تحوم حول جسده متطلّفة، فابتسمت إيفي واقتربت منه قائلةً:

- إليونورا أعرفك بثاني صديق لي هنا بعد كاليب.. قهوة!.

ضحك سعاده واقتربت منه قائلة:

- قهوة؟! كم أنت لطيفاً.

ضحك كاليب قائلاً:

- أسميه بنفسي.. يمكنك التربيت عليه، هو مسالم تماماً!

ابتسمت بترقب ورفعت يدي بيضاء، أريد لمس شعره الذي يلمع مع ضوء القمر، لاحظت التفات عينيه البنيتين الواسعتين لي، فضحك ببهدوه وقلبي يدق بحماس، وقبل أن أستطيع لمسه، سمعت ظافراً يناديني، فالتفت له لأجده يقف بثبات ممسكاً بجواهه أسود اللون.. لم أر جواهه هذا منذ أول يوم استيقظت فيه بهذا العالم! ابتسمت بحماس وقلت، أنا ذي ظافراً من مكاني:

- كاليب يلقب جواهه بقهوة، فما اسم جواهك؟.

عم الصمت للحظة، لم يقل ظافر أي شيء ليجيبني! ففتحنحت بحرج.. كدت أن أعيد عليه سؤاله حتى تفاجأت بأنه ينصرف بجانب جواهه..

احمر وجهي بخجل شديد واعتذر من إيفي وحارسها كاليب وانصرفت خلف ظافر، لترفرف عباءته خلف ظهري من أثر الهواء!

اقتربت من ظافر وتساءلت بغرابة:

- هل تخفي اسم جواهك كما تخفي وجهك؟.

- لا.. بل لا أفضل الثرثرة وقت التدريب.

هكذا ردّ عليّ بينما يربّت على شعر جواهه الأسود الناعم، وما هي إلا ثوانٍ حتى قال ببهدوه:

- قمر...

اقتربت قليلاً منه دون الاقتراب من الججاد، وتساءلت بغرابة:

- هل يدعى قمراً؟.

- نعم...

قالها ظافر بينما يتأكد من ثبات السرج، فابتسمت ورفعت رأسي للقمر
وتساءلت مبتسمة:

- وهل هو مغدور كهذا القمر؟.

التفت لي ظافر متفاجئاً من ما أقول، وحين لاحظت ضحكت بخجل وقلت
مببررة ما أفكر به:

- لطالما كان لدى فكرة راسخة بعملي.. وهي أن القمر مغدور.. كذلك
الطاووس الذي يتبااهي بريشه الملؤن...

ظل ناظراً لي.. ظننته يسخر مني بداخله.. لكنه في حقيقة الأمر كان يبتسم
بغير تصديق!

اقتربت من الجواد ببطء ووضعت يدي عليه أتحسّس نعومته، فأبعد رقبته عنّي
قليلاً فقلت أنا أداعبه:

- لن أصدق كونك مغدوراً، ولدي شعور جيد بأننا سوف تكون أصدقاء!.

التفت لي ظافر مرة أخرى، فقلت بجرج:

- ربما سيفهم ما أقول!.

ضحك ظافر ثم سألني:

- هل تستطيعين رفع نفسك لامتطاء الجواد؟.

نظرت لقمر لأجده يقف بشموخ، ظهره أعلى من رأسي قليلاً.. فضحكت قائلة
 بشك:

- ربما!.

ثبتّ عباءة ظافر على إحدى جانبي جسدي، واقتربت من قمر، رفعت ساقي
لأسندها على السرج المريح المثبت عليه بإحكام وكت أرفع نفسي بينما تشبتّ

بالسرج بقوّة، وفجأة تحرك الجواد للأمام بمنتهى البرود، لأقفل أنا على ساق الأخرى معلقة به لعدة خطوات، هامسةً بدهشة:

- قمر انتظر! توقف!.

اقرب منا ظافر وثبته بإشارة واحدة منه، واقرب مني وطوق خصري بيديه، وبكل سهولة رفعني لأجلس على الجواد بسرعة.. فتهجدت بغرابة قائلة:

- شكرًا! يبدو أنك معتمد على رفع الأثقال!.

ضحك بتسلّي ثم قال:

- ربّما.. لكنّك لست حملاً..

ابتسمت لجامنته على كوني خفيفة الوزن، وتلفت حولي بترقب قائلة بشرود:

- هل تأخر المدرّب؟ اعتقدت أنه سوف يوبخني على تأخّري بالحضور!.

وبينما أنا شاردة سمعته يقول:

- أعلم ما حدث لكِ بالدقائق الماضية.. فلن أوبخك، بل سنبدأ الدرس على الفور... .

عدت بنظري له مبتسمة بغير تصديق، وسألته:

- أتعني.. أنك.. أنت؟.

أوّما بإيجاب، فصنقت كفي بحماس وقلت بتحفّز:

- نعم! كم هذا رائع! فالفروسيّة تليق بك ظافر!.

رفع رأسه إليّ فلمحت بعض التجاعيد قد تكونت حول عينيه بينما شعور دافئ اجتاح حواسّي حين تساءلت بشرود.. هل ابتسمت عيناه للتو؟



{١٦}

= كتب، دروس، وحارس خان أهانته! =

أحببت درس الفروسية وركوب الخيل كثيراً، أطاعني قمر بوجود ظافر بالقرب منه، لكن عندما يبتعد ظافر عني مسافة ليرى كيف سأصل إليه يعاندي قليلاً، وحين يسمع صوت ظافر يشجّعه كان يسهل بطاعة ويصبح مساماً للغاية! فبدت لي علاقتهما وطيدة للغاية، فظافر الذي يتحمّل به دوماً..

تعلمت أن لا أقبل على الحصان من الخلف أبداً، يجب أن آتيه من مكان يراني به، مع إصدار صوت خفيف كي لا يفزع، نصحتني ظافر بمناداته باسمه كتحية له، أيضاً التربيت على ناصيته أو رقبته، فيسهل الحصان وكأنه يرد السلام! أراني كيفية تركيب السرج سريعاً وقال أنه سيريني إياها أكثر من مرّة فيما بعد حتى ترسخ الطريقة في ذهني؛ ليكون من السهل علىّ تجهيز أي جواد فيما بعد، قام بامتناع الجواد أمامي برشاقة ليخبرني كيف أفعل، فالركوب يكون من جهة اليسار - كما هو تركيب السرج - وبحركة سريعة وخفيفة، أجلس بوضع مستقيم، وحين أريد النزول أثبت الحصان وأنزل إلى يساره أيضاً! كم بدا هذا سهلاً، لكن كانت مشكلتي فقط في الركوب والنزول فكان يساعدني ظافر بهذا.. عدا ذلك، كنت أقود ببراعة فطرية كفارسة، أنعطف يميناً ويساراً مستخدمة ذلك اللجام في يدي، مع حركة بسيطة من قدمي لجسد قمر. قال ظافر أنه فخور بي لأنني سريعة التعلم، فسعدت بهذا حقاً! وتحمّست لأنعلم شيئاً جديداً، شيء سيكبسني الكثير من المعرفة.. وهو قراءة الكتاب الذي استعرته من إيفي!

تناولت إفطاري بهدوء، وعیني ترافق المنضدة الأرضية التي رأيت عروس الأمير بها ليلة أمس حين نهضت فجأة.. لم أشعر برغبة حقيقية في تناول الطعام فتركته كعادتي التي لم أدركها إلا اليوم. خمنت؛ ربما أكون ضعيفة الشهية فيما يتعلق بالطعام، فأنا أعطي نصف طعامي لإيفي، والآن لا أستطيع إكمال النصف المخصص لي! لا بأس، فأنا أشعر بالشبع.. نهضت لأغسل يدي وقابلت ظافرا بالبردمة، كان يتحدث مع حارس إيفي والذي حين رأني رفع يده لي بتحية هادئة فابتسمت، وأكملت مضيًّا في طريقي لفراشي..

مرّت دقائق وأنا أحاول التركيز في هذا الكتاب، وبالرغم من أنني استخدمت فراشاً آخر غير فراشي لأجلس فيه ليكون بعيداً عن ثرثرة العرائس والحرس لم يكن هذا كافياً.. أريد بعض الهدوء! القراءة ليست سهلة بالنسبة لي كما تبدو لبعض الناس؛ أعتقد أنني كنت ضعيفة قليلاً في الدراسة وسيأخذوني التركيز أضعافاً مضاعفة من الوقت والجهد!

- ارتدي ملابس ثقيلة، سندذهب للمكتبة...

رفعت عیني من بين سطور الكتاب لأنظر لظافر الذي وقف أمام الفراش، يبدو أنه هنا منذ فترة كافية ليشعر بمعاناتي! فابتهدجت أنا وتركت له الكتاب وأسرعت لفراشي، أخرجت الصندوق الخشبي الكبير من أسفله والتقطت ذلك الشيء الذي أحب ارتداءه دوماً.. عباءة الظهر، ذات غطاء الرأس المتصل بها.. كم تشعرني بالاحتواء، كما أنها تعطيني شعوراً لطيفاً حين تمر نسمات الهواء بينها وبين جسدي فترفرف، وأغمض أنا عیني وأتخيل أنني أقف على أعلى تلة، عاقدة ذراعي أمام صدري يتهد، وأقدم على شيء خرافي، كإنقاذ العالم مثلاً!

سمعت ظافراً يضحك ضحكته الهايئة القصيرة، فالتفت له بنظرة ذات

معنى: «هل قرأت أفكاري للتو؟»

فهُرْ كافية ببراءة، فتقدمته أنا كي لا يرى وجهي ويستطيع العبث وسماع أفكارى الطفولية الساذجة، ولم أكن ألتقت لفكرة أنه يستطيع قراءة أفكارى من على بعد كبير جدًا دون النظر إلىّ، بل بمجرد التفكير بي!

دلفت للمكتبة عبر بابٍ خشبيٍ ثقيل للغاية حين تدفعه للأمام أو الخلف، والذي بالطبع ساعدني ظاهرٍ في فتحه، وذهلت من ما رأيت! هي مكتبة عالية الأرفف، كثيرة الكتب من شتى الأنواع والأحجام، بها منضدة كبيرة باللون البنى وضع عليها مفرش أبيقٍ هادئ اللون، بمقاعد كثيرة، عديدة.. لكنّها خالية!

طرقت الأرض بحذائي ليصدر صدى عظيمًا، وسرعان ما احتفى حين خطوت على البساط العريق، وتساءلت بشرود:

ـ لمَ هي خاوية هكذا؟ لا أحد يحب القراءة هنا؟.

وسرعان ما وجدت ظافرًا يتجه لإحدى الزوايا بينما يحدّثني دون استخدام التواصل العقلي بيننا، ليصدح صوته في أرجاء المكان بطريقه مثيرة:

ـ لن تحصلي على علمٍ كافٍ من هنا إلا في مجالات محدودة...

رأيته يجمع بعض الكتب بطريقة مدرّوسة، يسندها بين ذراعيه اليسرى وصدره وبيده اليمنى يختار كتاباً أخرى، بينما يستطرد:

ـ فالعلوم مثل الأحياء، والرياضيات، والفيزياء والكيمياء جميعها متوفّرة هنا بكثرة، وأيضاً الأدب كالروايات والشعر والقصص القصيرة...

وأضاف:

ـ أما بالنسبة للجغرافيا والتاريخ، فلن تجدهم في أي مكان سوى أرض الواقع...

تعجبت من ما قال فرفعت صوتي بغرابة:

- كيف ذلك وكتاب إيفي هو كتاب تاريخي؟ مذكور به عدّة مناطق جغرافية!
أعني.. لقد عرفت منه أننا في مملكة ال...

قاطعني:

- معلومات ناقصة، أو غير صحيحة.. سأصحّحها لك أولاً بأول...

فهمت مقصده، فتساءلت بغرابة بينما أستمع لصدى صوتي بشرود:
- هذا يعني أنك كحارس، وبقية الحرس، أيضاً الوزراء والأمير نفسه فقط
من تعرفون جغرافية هذا العالم وتاريخه؟ لأنكم بطبيعة الحال تتنقلون
وتسافرون؟.

انتهى ظافر من جمع ما يريد واقترب مني، تخطّاني واضعاً الكتب التي جمعها
بطريقة غريبة، فأمام كل مقعد كان يضع كتاباً، حتى انتهى بوضع آخر كتاب وجلس
 أمامه، على رأس المنضدة جهة اليسار، ولم ينس أن يجيبني على ما سأله:

- ليس كل الحرس.. أما الأمير ووزراؤه فنعم بالتأكيد، هذه طبيعة عملهم..
 بالرغم من أنهم يتقاussون أحياناً...

هزّت رأسه باهتمام، ثم تسأله بفضول غلب عليه المزاح بينما أشير لما فعله
للتو بالكتب:

- هل ستقيّم اجتماعاً؟.

أشار لي على رأس المنضدة من الجهة الأخرى، فذهبت لأجلس، لأغوص في
هذا المقعد الوثير المريح، هو مقعد خشبي، مجهز بوسائل ومسند للظهر، للجلوس
الطويل..

- لديك درس الرقص، الفروسيّة وهي ليست كل يوم، إفطار، وقت فراغ، درس
حياة، وقت فراغ ثم النوم.. سنستغل وقت الفراغ بالقراءة، وستقرأين كل
هذا.. وأنا لا أمزح في هذا أبداً...

ابتهجت وتحمّست كثيراً لجديّته في الأمر، لكنّي تذكّرت علّي بالقراءة وبطئي، فتساءلت:

- وهل ستساعدني في هذا؟

أو ما محبًا:

- دوماً وأبداً...

ابسمت بامتنان وفتحت الكتاب بيدي بعد أن ملأت نظري من غلافه المميز
ذى النقش الغريبة، وحين فتحته امتنع وجهي بغرابة، فنظرت لظافر وصحت به:

- لا أرى سوى الظلasm!.

رأيته يخرج شيئاً ما من جيب ملابسه القريب من صدره، والذي هو من الجهة التي تلتقط بجسده، فكان دفتراً وقلمًا، أخذ يكتب وبينما أنا متعجبة من ما يفعل، وجدته يحدّثني بعقلٍ:

- أول آداب المكتبة هو الهدوء.. لا نريد أن تكون أصواتنا مسموعة للعامة.

فرفت صوتی بتعجب طفولی:

- لكن لا أحد هنا، من نزع ح؟!.

سمعته بحسب:

– هذه المكتبة تقع بالضبط تحت غرفة الأمير بالطابق العلوي.. ولا أثق بفكرة أننا نجلس وحدنا الآن...

وَضَعَتْ يَدِي عَلَى فَمِي بِدَهْشَةٍ وَنَظَرَتْ لِسَقْفِ الْمَكْتَبَةِ بِإِعْجَابٍ، وَقَلْتْ بِحَمَاسٍ
هَامِسٌ مُسْتَخْدِمَةً عَقْلِيَّ هَذِهِ الْمَرَّةِ:

- هل تعني أنه يمكن لسموّه سماعنا؟ أو رؤيتنا؟.

هَرَّ كَتْفِيهِ بِاسْتِسْلَامٍ وَهُوَ مَا زَالَ يَكْتُبُ بَعْضَ الْكَلْمَاتِ وَقَالَ رَدًّا عَلَى تَعْجِبِي:

- تلقى العلم هنا يعتبر فعلاً شاداً بعض الشيء.. فلا تشقى بوجودك هنا
وحيدة، يوجد دوماً من يراقب...

لويت شفتي أفكّر فيما قال، وقلت بتحمّل:

- لا عيب في تلقى العلم، فهو ما سيوصلني للأمير!.

- بالضبط ركزي على هذا العلم.. في صمت...

و قبل أن يصلني آخر كلماته، طارت لي الورقة - التي انتزعها من مفكرةه -
بطريقة سحرية، حتى استقرّت أمامي بالضبط على يمين الكتاب! فاندھشت أنا
ووجدت ظافراً يقول:

- هذه لفتك الأولى، سترين مفردات غريبة منها بالكتاب لكن لا بأس، ستكونون
هكذا في البداية فقط، وما في تلك الورقة هي المفردات السهلة القصيرة،
والتي إن جمعت أكثر من حرف منها مع حروف كلمة أخرى تكونت كلمة
جديدة...

فقلت بتركيز:

- أقصد أن أعرف الكلمات الصغيرة لاستطيع تكوين منها ما هو أكبر
وأصعب ليساعدني في قراءة الكتاب؟.

- مؤكّد، هيا انطلاقي...

قالها بتشجيع فابتسمت وبدأت في قراءة الورقة كطفل يتلقّى أولى دروسه
بالتّعلّم الأساسي، ولم أدرّ أن ظافراً - بالرغم من أنه يكتب بعض الأشياء الأخرى -
يراقبني مبتسمًا، فخورًا بما أفعل!



انتهيت للتو من قراءة أول كتاب! كدت أن أنتقل للكتاب الآخر لكن استوقفني
ظاهر قائلًا:

- مهلاً...

رفعت عيني المجهدة إليه بتساؤل فقال:

- كم مملكة بهذا العالم؟.

ارتبت من سؤاله، فبالرغم من أن هذا الكتاب كان عن المالك الثلاث، فإنني
ارتبت قليلاً.. وما هي إلا ثوانٍ حتى قلت:

- ثلاثة ممالك؛ مملكة الشمال، والتي بها هذه القلعة، أيضاً مملكة الجنوب
والغرب.. ولا يوجد مملكة شرقية.

صحح لي:

- بل توجد مملكة شرقية، لكنها مهجورة بعد أن تولى الأمير الحكم بعد...
بعد من؟.

ها هو سؤال آخر! فأجبته بغير تردد:

- والدة الملك!.

ضحك وقال بمراءفة:

- ليس من عمه مثلاً؟.

هل يسخر مني لعدم ذكري اسمه؟ عبست وشبكت أصابعي بتوتر قائلة:
- تولى الأمير غيث الحكم بعد أن تولى الملك الأعظم «إياس ساري» عام... .

عدهدت على أصابعي شيئاً ما، وسألت ببلادة:

- في أي عام نحن الآن؟.

ابسم وأجابني بتسلي، فرفعت كلتا يدي بأرقام متتالية قائلة:

- توّي فيمنذ خمسة أعوام من الآن وكان في العقد الخامس من العمر، حيث إن الأمير الآن يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً.. لماذا يوجد الكثير من رقم خمسة؟!.

قلتها صاحكة لأخفف من وطأة توّري بقول كل هذه المعلومات دفعة واحدة، فصّفّق ظافر بيديه قائلاً:

- ممتازة يا إليونورا.. تلميذة نجيبة...

ابسمت بخجل لإطرائه قائلة:

- الفضل يرجع لكلماتك، لقد ساعدتني كثيراً على فهم الكتاب... قبل أن أنهض استوقفني بجدية: - ليس بعد!.

فتنهدت وتاهبت لعدة أسئلة أخرى، ليسألني:

- لماذا يفسّر اسم الملك.. «إياس ساري»؟.

فابسمت قائلة بثقة:

- هذا سهل!.

أرجعت خصلة من شعري خلف أذني ونظرت لظافر مبسمة أشرح بيدي: - إياس يعني الذنب.. وساري معناه المرافق في الليل، لا أدرى لماذا لم يذكروا ذلك في الكتاب، عرفت هذا من الورقة فقط...

أضفت:

- مكتوب هنا بالكتاب أن هذا يعني اجتماع صفتين واحدة عن القوّة والذكاء والأخرى عن الثبات والصمود.

أو ما برأسه وقال بسخرية:

- حسناً.. لن أصحح هذا وقد اكتشفت بنفسك؛ إن الكتب تجمل التاريخ!..

ابسمت بارتباك قائلة:

- وهل لم يكن كذلك؟ أعني ذكياً صامداً؟.

صمت ظافر قليلاً لكن سرعان ما أجابني:

- بل.. كان ذكياً، لكنني أفضل استخدام الذكاء في الخير.. وليس العكس.

ثم قرب إصبعه السبابه إلى موضع فمه وكأنه يقول:

- أبقي هذا سراً دون جدال.. فأوّل ماتانتظرت السؤال الثاني...

ساد الصمت لحظة.. حتى وجدت ظافراً يسألني بصوت متحسّر:

- وماذا عن الملكة؟.

لم أبدِ تعليقاً صريحاً على نبرة صوته، بل نظرت له بتمعّن، ثم أجبت:

- كانت جميلة، أردت أن أرى لها رسماً أو حتى بعض الكلمات الوصفية، إلا أنني لم أجد أي شيء عنها سوى اسمها.. هي جينرولز، من مقطعين، ويعني الوردة النضرة الجميلة حسب ما كتبته أنت بالورقة، أما عن الكتاب فذكر أنها محبة لشريكها، مرحة، اجتماعية وملينة بالحيوية...

تنهّت واستطردت سريعاً:

- كم أردت أن أقاومها وقتها! يقال إنها فقدت حياتها بمرض ما لم يكن له دواء.. وهذا فقط...

عم الصمت فسألت ظافراً:

- هل شهدت عصرهما؟ أعني الملك الأعظم والملكة؟.

أو ما ظاهر رأسه إيجاباً، وقال بشرط:

- كنت ستسعدين بمجرد النظر إليها فقط.. دون أن تعلمي شيئاً آخر عنها... .

ابتسم وأنا أتخيلها.. فسألته بفضول:

- كيف كانت؟ صفات لي جمالها؟.

تحنخ ظاهر قائلاً:

- لن أكون دقيقاً بوصفي... .

وانقل لموضع آخر قبل أن أفك في ما قال للتوّ:

- حسناً يمكنك الانتقال لكتاب الثاني، اجلس على مقعد مختلف كي لا تتملي... .

ابتسمت بحماس ونهضت لأجلس على المقعد المجاور أمام الكتاب الآخر، وبينما فعلت هذا ساءلت:

- كيف لظاهر أن لا يكون دقيقاً بالوصف؟ فمن قرأ كل هذه الكتب سيكون سهلاً عليه قول، وكتابة أي شيء! وقبل أن أفقد خطه المرسوم بدقة طارت إلى ورقته الثانية، وقال لي:

- كتاب القلعة البيضاء.. مهم جداً لمعرفة المكان الذي تعيشين به... .

تحسست غلاف الكتاب بيدي، وكان المرسوم على قطعة القماش المغلفة لكتاب هي قلعة تشبه كثيراً تلك التي نحن بها الآن.. لكن هل هي فعلاً بيضاء؟



انتهيت من قراءة ثلاثة كتب ثم نبهني ظافر لضرورة الانصراف لأنتناول
لحضور درس الحياكة، فذهبت معه أعيد الكتب ل مكانها، فبدأ هو من أقصى اليمين
وبدأت أنا من اليسار، والتقيينا في الوسط، لأنّي بدهوة، وقبل أن أذهب، ربيت على
رأسي قائلًا:

- أحسنت.. لقد أجزت الكثير ببداية اليوم.

ابتسمت بسعادة حقيقة وسرت أمامه أبعد بين خطواتي وأففر بسعادة كطفلة
تافتت الإخبار بالعلامة النهائية! حتى وصلت لطريق العرائس، فاستقبلتني المعلمة
ببهجة:

- ها قد وصلت الجميلة الموهوبة! أحضرت لك شيئاً مميّزاً اليوم!.

ضحكـت بفرح وهرولـت إلـيـها لأنـتـرـيـع بـجاـنبـها وـجاـنبـإـيفـيـ التي أـشارـتـ ليـ
بـحـمـاسـ، لأـجـدـ أنـ ماـ تـعـطـيـهـ ليـ كانـتـ بـكـرـةـ مـمـتـلـئـةـ منـ الـخـيـطـ النـاعـمـ المـجـدـولـ
بـالـلـوـنـ الـبـنـيـ بـالـدـرـجـةـ الـمـعـتـدـلـةـ، وـابـرـةـ سـمـيـكـةـ وـاحـدـةـ ذاتـ خـطـافـ، فـلـمـعـتـ عـيـنـيـ
وـقـلـتـ بـتـلـقـائـيـةـ:

- سـأـصـنـعـ بـهـاـ شـعـرـاـ لـدـمـيـةـ إـيفـيـ! شـكـرـاـ سـيـدـيـ!.

ضـحـكـتـ إـيفـيـ وـحـدـثـتـ المـعـلـمـةـ:

- عـرـفـتـ أـنـهـاـ سـتـفـكـرـ بـالـدـمـيـةـ التـيـ أـعـطـتـهـاـ لـيـ، فـهـيـ صـدـيقـيـ!.

ابتسـمتـ وـاهـتـزـزـتـ بـحـمـاسـ أـنـاـ وـإـيفـيـ وـأـصـدـرـنـاـ أـصـوـاتـاـ تـمـ عنـ سـعـادـتـاـ بـيـنـماـ
لـفـتـ طـرـفـ الـخـيـطـ عـلـىـ إـصـبـعـيـ بـحـمـاسـ، وـالـمـعـلـمـةـ تـضـحـكـ، الـفـتـاةـ ذـاتـ الـحـكـاـيـاتـ
تـشـارـكـنـاـ الـضـحـكـ، كـمـ فـعـلـتـ جـلـادـيـسـ، لـأـعـتـقـدـ أـنـهـاـ سـمـعـتـ مـاـ قـلـنـاهـ تـحـدـيـدـاـ لـكـنـ
مـنـ الـجـيدـ أـرـاـهـاـ تـضـحـكـ عـلـىـ شـيـءـ آخـرـ غـيرـ تـلـكـ السـخـرـيـةـ التـيـ تـوـجـهـ إـلـيـهاـ..

قـمـتـ بـغـزـلـ الـخـيـطـ بـمـهـارـةـ فـطـرـيـةـ وـحـينـ اـنـتـهـيـتـ مـنـ أـخـذـ الدـمـيـةـ مـنـ إـيفـيـ،
الـتـيـ رـاقـبـتـنـيـ وـأـنـاـ أـثـبـتـ لـهـاـ الشـعـرـ الـبـنـيـ الـذـيـ يـشـبـهـ شـعـرـهـاـ هـيـ، فـصـفـقـتـ بـحـرـارـةـ
حـينـ اـنـتـهـيـتـ وـاحـمـرـرـتـ وـجـنـتـهـاـ بـحـمـاسـ وـأـخـذـتـ مـنـيـ الدـمـيـةـ تـحـتـضـنـهـاـ..ـ قـائـلـةـ:

- شـكـرـاـ لـكـ صـدـيقـيـ!.

تناولنا الغداء بصورة عاديّة لكنّي لاحظت انزواء جلاديس بعيداً، تأكل وحيدة على فراشها، بالرغم من أنّنا بتنا نتناول طعامنا بجوار المنضدة الأرضية منذ أن تناقص عدّدنا بشكل ملحوظ.. لا أظنهما غيره.. تقول بعض الفتيات أنها تشعر بذلك لأنّ الأمير قد طلب ثلاث عرائس منّا دفعة واحدة! لكن لا، فلا أعتقد أنها من هذا النوع من الفتيات، فهي لا ترى غير نفسها، تذكّرت رؤيتها سابقاً تبسم بشرود بينما تمشّط شعرها الطويل بلون البندق، تعاني قليلاً في تمشيّطه لكن لا بأس، لا يظهر الامتعاض على وجهها أبداً، تضع على خصلاته مستحضرات تجميلية في صورة زيتية لفرازه أثناء النوم، توازن عليه يومياً وتغسله باليوم التالي، وسمعتها تقول أن الماشطة قد صنعته لها خصيصاً من مواد طبيعية آمنة.. هي ليست جميلة لكنّها تحاول. ابسمت وأخذت تقاحة لأنّها بها طعامي بعد أن تركت أكثر من نصفه، وذهبت تجاهها. جلست على طرف فراشها بلا استئذان قائلة:

— لماذا تأكلين وحدك؟ هل ضايفتك إحدى العرائس مُج..؟.

كدت أن أقول «مُجددًا». لكنني ابتعتها قبل أن تصل لطرف لساني، لم أرد أن أشعرها بالاستياء.. فوجدتها تبتسم لى قائلة:

هزت رأسى وقلت بنيرة أعلى صوتاً:

— لا تشغلي بالك بهذا، سأكون حريصة على أن يصل صوتي لك!.

سمعت ظافراً يناديني بعقله:

— لماذا تصرّين على ترك طعامك لتلك الفتاة؟ ستفسدين شكل حسدك!.

تباعدت المسافة بين شفتٍ بشرود بينما أقضم تقاحتي ورددت عليه:

- لقد اكتفيت من الطعام، ولا أحب تناول تلك الحلوي كثيرة السكر، تصيبني بالقرف...

و قبل أن يقول أي شيء آخر لاحظت أن جلاديس لم تأكل شيئاً! فقطبت حاجبي بغرابة وسألتها بتلك النبرة التي تجعلها تسمع صوتي المنزعج بوضوح:

- لم تتدوّقِ الطعام بعد؟ يجب أن تنهيه بسرعة قبل أن تأتي الخادمات لأخذ الأطباق!.

هزّت رأسها نفياً ببطء وأبعدت الطعام وأمسكت بمعتها، فسألتها بقلق:

- ما بك؟.

نظرت حولي أبحث عن حارسها، فقالت هي:

- أشعر بالخوف.. معدتي منقبضة ولا أريد الطعام، سيزيد حالي سوءاً بلا شك.

سألتها بدهشة:

- أين حارسك؟ لا أراه بجوارك، كما اعتدت هذا.

قالت بأسف:

- ذهب لتلقّي العقاب.. لقد تسبّب لي بمشكلة، وهي سبب ما أشعر به الآن!.

أرخيت حاجبي بصعوبة وأنا كلّي آذان صاغية، لتحكي هي لي وقد وجدت في عيني الاهتمام:

- كنت أمتطي الخيّل وأسيّر ببطء، حتى أتت إلى بعض العرائس وجيادهن يركضون إلى، شعرت بالقلق من كل تلك الأصوات الخافتة المتداخلة، لقد كانوا يتحدّثون أيضاً، مرّوا بجانبي ولم أسمع ما قالوه لي.. وبعد قليل أتى حارسي من بعيد قائلاً:

- هيأً، الطريق خالٍ يمكنك تجربة جعل الجواد يسير في خطٍ مستقيم... .

ابتسمت ولم أعر لحديث العرائس انتباهاً، ونظرت لحارسي قبل أن أنطلق بالجواد، ضربت جسده بقدمي بهدوء وانطلق بي، وبينما أنا أمسك باللجام، وأنظر للأسفل على الجانبين لكوني قلقة من أن يتعثر الجواد بشيء ما - وقد حدث أكثر من مرة - فاجأني شيء غريب، جعلني أقبض على اللجام بقوّة حتى أذيت باطن يدي... .

مدّت كلتا يديها تقدّرهما أمامي بعد أن كانت تضعهما تحت الغطاء تحضرن بهما جسدها، فرأيت خطوطاً حمراء تحولت للونِ داكن قليلاً تظهر من شريطين أبيضين خفيفين لم أرّهما إلا الآن، فاقشعرّ بدني وأخذت يدها أربّت عليها، وقتل لها بفضولٍ وذعر: .

- مادا رأيت؟ .

ابتلعتَ غصّةً في حلتها، ومسحت على مقدمة شعرها غير المنساء تماماً قائلةً بربّة، بينما عيناها تظران حولها بتعزّز: .

- جثّة! جثّة فتاة نعرفها! .

شهقت بصدمة ورجوتها أن تفسّر لي مادا رأت بالضبط ففعلت هذا: .

- كانت ترتدي فستاناً شفافاً باللون الأبيض.. أحد الفساتين ذات التقوب الواسعة بنقوش الورود تعرفينها.. لكنّها كانت ترتديها على لون جسدها العاري دون وجود أي شيء يستره من الأسفل... شعرها ممزق بوحشية، لم يخفِ وجهها رغم تناشره عليه، رأيت ساقيها تملأهما الخدوش الطولية والعرضية والتي قد تلويت بفعل الطين.. وحين اقترب حارسي مني بالصبح في يده، وضحت الرؤية أكثر، ورأيت أن أظافر قدميها قد تم اقتلاعها.. ليحلّ مكانها اللون الأحمر.. هي دماؤها المتحجّرة فظيعة اللون والمنظر! .

وضعت يدي على فمي وعيناي جاحظتان بغير تصديق، وفي نفس اللحظة قالت
جلاديس بشفتين مرتعشتين قبل أن تفقد ما تبقى لها من أعصاب وتبكي:

- وكانت حيّة! أعتقد أنتي لم أكن أسمع شيئاً بوضوح حتى قالت لي «ابعددي
أيتها الحقيرة أنتِ السبب في عذابي! أنتِ من جعلتني عبده يفعلون فيّ
أي شيء يريدونه!.. ليتضح لي أن هذا كان عذاباً.. وليس مجرد دفن..
دفنوها حيّة بعد أن عذّبواها!.

انفجرت باكية فاحتضنتها رغمّ عندي وقلبي يخنق بعنف، أصبحت بالذعر
واقشعرّ بدني لمجرد التخيّل، إذاً ماذا إن كنت أنا التي أمام تلك المدفونة حيّة؟!

- هل كانت تقصدني أنا؟ لكن.. لم أفعل أي شيء سيئ لأحد! لم أكن قط
عدوة الفتيات هنا!.

قالتها بذعر وجسدتها يرتعش بين ذراعي وبأنفاسي الهاadera قلت لها أهديها:

- لم تكن تقصدك بالطبع! أظنها أرادت أن تخيفك ليس إلا لن تكون موجودة
في المرة المقبلة! سيحرض الحارس على عدم مرورك من تلك الجهة أبداً
أنا واقفة!.

سمعت صوت الفتاة ذات الحكايات تتتساءل:

- هل ما سمعته للتوّ صحيح؟.

نظرت لها بذعر قائلة:

- قالت أنها رأتـه!.

ابتسمت بشرودٍ قائلة:

- أعتقد أنتي حلمت بشيء مثل هذا من قبل.. فتيات تعذّب.. يقتلون
أظافرهن وشعاراتهن شعرة شعرة... .

هدرت بها بانفعال:

- هل ترين أن الموقف مناسب لتلك الحكايات المرعبة؟ المسكينة مذعورة!.

هزّت رأسها بأسف وقالت بلهجة عادية:

- لا أظن أنها سمعتني من الأساس لكن.. حسناً كما تقولين.. سأدخلها
لتكون حكاية قبل النوم...

نظرت لها بفضول وأردت أن أسألها عن الحلم الذي رأته.. فأننا أيضاً قد
شاهدت شيئاً مشابهاً أحلّ بي الذعر!

بعد قليل سمعنا صوت المشرفة جليندا تحيننا، وتنظر لأخذ الثلاث عرائس
اللاتي يريدهنّ الأمير، ولدهشتني، ربّت على جلاديس التي هدأت واستأنفت
قليلًا، ووقفت أراقت من ستأخذ جليندا وتقاجأت بأنهن أقل ثلاث عرائس جمالاً
بيننا! تهامت العديد من الفتيات بغيره، وسمعت إحداهن تقول بغرابة:

- أنا لا أرى نفسي فائقة الجمال، لكنّي بالطبع أجمل منهنّ! وهذا ذوق الأمير
الذى يخبروننا عنه دوماً!.

وقالت أخرى:

- أنا أستحّم أكثر منها!.

قالتها مشير لإحداهن فقلت أنا بعقولي:

- هناك شيء خاطئ!.

أدرت وجهي وقمت بتغيير صوتي قليلاً وسألت بفضول بصوت مسموع:

- جليندا، هل تأكّدت من أن الأمير قد طلبهنّ أم أن هناك خطأ ما؟!.

نظرت الفتيات لليمين واليسار بি�حث عن من سألت السؤال، بيحث عنى،
وقمت أنا بالمثل، أدور بعيني بينهم ببراءة.. ماذ؟! أريد معرفة الحقيقة ليس أكثر!

- نعم أنسني، لقد اختارهن بالفعل، ي يريد مواصفات خاصة هذه المرة...

شهقت الفتيات بغرابة حين وصلت ثلاثة لجليندا وعلى وجوههن تكبير ولد حديثاً بمنتهى الوضوح، فقالت إحدى العرائس بملل:

- حسناً دعوه يفعل كما يشاء، قليس لديه اختيارات عديدة كالسابق!.

انصرفت العرائس كل واحدة إلى ما كانت تفعل سابقاً، ولم ينصرف قول تلك العروس عن ذهني، وحمنت.. ربما كلامها صحيح! ربما هو يفعل هذا لأن الجميلات قد رحلن.. ربما هو لا يعرف أن هناك العديد من الجميلات هنا! جلاديس تعتبر جميلة، وفتاة الحكايات، لديها شعر مموج يليق بها.. وإيفي، وأنا أردت أن أقول إزالين لكن لقد أخرجها ظافر من اللعبة، فالامير حقاً لا يدرك الاختيارات التي لديه! لهذا، يجب على التأكيد من ظهوري بحفل عيد مولده السادس والعشرين.. بالمناسبة.. متى يكون هذا؟!

لم أقلأ أي شيء مثير يخص سمو الأمير بعد، وهذا يثير جنوني، وفجأة وبدون أي مقدمات وجدت نفسي أذهب لفتاة ذات الحكايات أهمس في أدتها:

- لا تبدأي حكاياتك دون أن تتأكد من كوني جالسة معك.. سأذهب للخارج قليلاً...

و قبل أن ألتقط سألتني بفضول:

- حسناً لكن إلى أين؟.

فأجبتها أنا بتردد:

- سأزور إزالين لبعض الوقت...

وانصرفت بسرعة أنادي ظافرًا بعقلاني، والذي لا أدرى أين احتفى فجأة!

أبطأت من خطواتي ما إن وصلت بالقرب من المكتبة وحدي، ونظرت حولي متحفّصة الوضع، فهذا الطابق آمن، لكن يشعرك بأن أحدهم يتلصّص عليك عن بعد، وقد رسخت هذه الفكرة بعالي خصوصاً بعد أن قال ظافر:

- تلقي العلم هنا يعتبر فعلاً شاداً بعض الشيء.. فلا تثق بوجودك هنا وحيدة، يوجد دوماً من يراقب...

ابتلعت غصّة مسنّنة بحلقي ودفعت الباب الثقيل بكل قوّتي، لم أستطع أن أزيحه ولو لبعض الشيء، فزفرت بضيق.. وقبل أن أفقد الأمل سمعت صوت خطوات بالقرب مني، فهمست بدهشة ممزوجة بالحماس:

- ظافر! ها قد أتيت! ساعدني فقط لدفع هذا الباب.. ثقيل!.

قلت آخر كلمة ببطء وبغرابة شديدة، وهذا لأنني لم أجد ظافراً حين كنت ألتقت محدثة إياه، بل وجدت شخصاً آخر.. حارس إزالين!

تساءلت بنفس التعبير على وجهي:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟.

ابتعدت خطوة للخلف لالت suction بالباب حين وجدته يقترب قائلاً:

- أنت هنا أيضاً، فما المشكلة؟.

دفع الباب الذي استند عليه ولدهشتني قد فتحه، وبرغم عدم فعله ذلك بهدوء وسهولة -كما فعل ظافر- كنت ممتنة له، فإن هذا يفي بالغرض. قلت هامسة بينما أبعد عن جسده لداخل المكتبة:

- شكرًا لمساعدتك.. يمكنك الذهاب لا أريد أن أعطيك أكثر من هذا...

قلتها في محاولة لصرفه، إلا أنه تبعني وترك الباب يُغلق بقوّة وقال بهدوء مستقرّ:

- لقد وصلت لوجهتي على آية حال.. لا تشغلي نفسك بي، تصر في بطبيعتك!
واستطرد:

- سأنتظرك لتأتين بما تريدين وأساعدك في فتح الباب للخروج، بالطبع لا
تريدين أن تبقي هنا حتى الغد؟!.

فتحت شفتي قليلاً بيلاهة، وهززت رأسي مطلقة: «حسناً» بهمس، واتجهت
لذلك الرف الذي تقابلت أنا وظافر عنده بينما نويع الكتب مكانها الأساسي،
وأخرجت ورقة من جيب ردائي الواسع، وقرأت أسماء الكتب بها بتركيز هامس،
وحدّثت نفسي:

- لقد قرأت بالفعل القلعة البيضاء.. هل يمكنني إذا بدأ القراءة بكتاب
الأمير غيث الثاني؟.

تناولت الكتاب بين يدي، والذي أعجبني غلافه للغاية؛ بناج بارز للخارج قليلاً
مرسوم عليه، وضعت يدي على الغلاف أتحسّسه، أتحسّن ذلك التاج الذهبي
المرصّع.. لكن حين وصلت لإحدى الأجزاء المدببة بالناج تأوهت بألم، لاكتشاف أن
ذلك الجزء المدبّب قد جذب بعضاً من جلد إصبعي، ليزيله بقسوة ويترك لي تجمعاً
دموياً صغيراً باللون الأحمر الداكن!

وقع الكتاب رغمّي عنى حين وضعت أنا إصبعي في فمي بسرعة، أهدى من
ألمه بلعق ذلك السائل الأحمر منفر الطعم بسانني، وهو يتبيّن بيدي الأخرى التقط
الكتاب، وحين رفعت جسدي لأقف كما كنت، تفاجأت بوجود الحراس السخيف
يقف خلفي، فتجاوزته بعدم اهتمام مع حرصي لعدم لسعه بينما ما زال طرف
إصبعي بفمي ويدني الأخرى تقرّب الكتاب مني لتضمّه إليّ، وقبل أن أدرك أنه
يستدير إليّ، تفاجأت بيديه القاسيتين تقيدان كتفي بإحكام، ليلقي بي أرضاً
بقسوة! صرخت فهوى على فمي ضاغطاً عليه بيده، بينما جسده جالس فوق ليشلّ
حركتي، جحظت عيناي بذعر ودقات قلبي تتزايد بشعور الخطر هذا، الأدرينالين

يتدفق بقوّة في عروقي ليجعلني أحترك أسفله بجنون، أحاول التلوّح بذراعي في الهواء لأضربه بهما وأبتعد، وقدمائي تحاولن الارتفاع وخصوصاً ركبتي التي تrepid ركله ركلة ممتازة، لكن جسده الثقيل منعنى تماماً من هذا بكل بروء هذا العالم، وناديت اسم ظافر أكثر من مرّة من بين صراغي. اقترب ذلك الأحمق من أذني وهمس بصوتٍ أعلى من صوت شهقاتي المكتومة:

- أنتِ جميلة جداً إليونورا.. وهذا ليس عدلاً.

هزّت رأسي للجانبين لأبعد أنفاسه القدرة الساخنة عن أذني، وبدأ جسدي بالارتفاع أكثر وأكثر... وسمعته يقول بوضوح:

- لا يتّسّنى لي الكثير من الوقت لرؤيتك وحدك دون حارسك الغامض.. وما إن وجدتكم تسيرين وحدك عرفت بأنّها فرصتي... والفرصة تأتي مرة واحدة فقط!.

لم أكف للحظة عن التحرّك والتململ أسفل جسده الثقيل، فضحك هو قائلاً كشيطان يوسموس بأذني:

- كفي عن المقاومة! أردت لهذا أن يحدث.. أنسّي نظراتك لي؟.

هدأت قليلاً وخفت صوت صراغي وحاولت تذكّر ما يقول.. فلم أجد أي ذكرى لهذا! فصحت به رغم عدم سماعه لما أقول:

- وكيف لي أن أنظر لك أيها الحقير! اتركتني وشأنني!.



وفي هذه الأثناء بطابق العرائس، تجولت فتاة الحكايات صائحة بين الفتيات:

- هل رأت إحداكن إليونورا؟.

وردّت عليها إحداهنّ:

- لقد خرجت...

قطبت العروس حاجبيها وقالت بغرابة:

- ألم تعد بعد؟.

ثم سألت حارسها إن كان قد رأى حارسي - ظافرًا - فأجابها بتأكيد:

- لقد استدعاك كبير الحراس ومساعده.. أظنّ الأمر يتعلّق بحارس جلاديس،

فكمًا تعلمين يمكنه أن يسألهم تخفيف العقاب له...

ضمّت أصابعها بتوتّر فائلة بقلق:

- لقد تأخرت إليونورا بالخارج، لقد أنت إيفي من عند إزالين للتوّ، وقالت

أنها لم ترّ الجميلة ذات الشعر الداكن هناك قط كما قالت الشقراء..

أشعر بالقلق!.

فكرة الحارس ثم قال سريعاً بينما يرتدى معطفه البنّى البسيط:

- سأذهب لظافر، مؤكّد يعرف أين هي.. كما يعرف كل شيء بطريقته

المبهمة.

هزّت الفتاة رأسها وابتسمت بأمل، وجلست وحدها أرضاً، فسألتها إحدى

الفتيات:

- ألن تبدأي بالحكاية؟ أشعر بالنعاس وأريد النوم، لكنني لا أريد تفويت ما

ستقولين!.

هزّت رأسها وقالت بتأكيد من خلف قلبها:

- دقائق وسنبدأ، فور وصول إليونورا سنبدأ.. لن أطيل عليكَنّ!.

وهمست برجاء..

- كوني بخيرٍ أيتها الجميلة!.

وبينما تمنّت هي ذلك كنت أنا ما زلت أحاول تخلص نفسي من ذلك المنحرف الخبيث، وقلت له بغير تصدق:

– من المفترض أنك حارس! حارس تحمى ما يخص الأمير!.

ضحك مرّة أخرى لكونه لا يسمع ماذًا أقول، ومسح على جبيني المترّق وشعري
قائلاً بعمق:

وفري طاقتك عزيزتي وتدكري.. في كلّ مرة رأيتني فيها، كنت تتظرين لي
ذلك النّظرة الدّافئة من عينيك بلون العسل الشّهي.. لتشيري جنوني بهما
في كلّ مرّة!.

وقال متذكراً:

ـ تذكرى وقت تدريب الرقص بأول اليوم! قبل أن تهاري لصديقتك..
نظرت لي وابتسمت قبل تأديتك تلك الرقصة الرائعة.. لقد بدللت مكانك
مع عروس أخرى من أجل أجنبي أتذكري؟.

شهقت قائلة أداعع عن نفسي:

— كان هذا من أجل ظافر أيها الأحمق الخبيث!.

وصمت فجأة عن الصراخ دون أن تكف يداي وساقي عن المقاومة وكانتني مبرمججة على فعل هذا.. وتذكّرت ابتسامة ظافر.. تلك الابتسامة الجذابة من عينيه، ليدق قلبي دقة تختلف عن باقي دقاته.. وتساءلت: هل كنت أنظر لظافر هكذا فعلاً؟ هل كانت نظراتي له دافئة كالعسل المسكوب؟ وكانت ابتسامتها لرؤيه عينيه الشاحتين بحادية مميتة؟

أغمضت عيني بحيرة ودقّات قلبي تخفت شيئاً فشيئاً.. وتذكّرت قول ظافر
القديم لي حين كان يمنعني من تنظيف الزنزانة:

- من أنت يا فتاة! تدين كربة منزل حية الضمير؛ تهكين نفسك بأعمال
المنزل وكأنك تنتظرين زوجك الحبيب!.

تذكّرت نظرته القلقة وقتها.. وقارنتها بجميع النظارات التي رأيتها بعينيه.. ولم
أرَ أجمل من تلك التي جعلتني أبسم بشرود..

شعرت بقلبي يخفق بغرابة، فقلت بداخلِي أُنْبِهُ حواسِي التي سيم بانتهاها
الآن:

- قاومي إليونورا.. قاومي.. يجب أن تحافظي على قلبك للأمير!.

وبرغم دقات قلبي الثائرة، تذكّرت كلمات إزالين، وتردّدت بخلالي ليكون
طنين عقلي هو الموسيقى الخاصة بها:

- لن تذوب عشقاً يا قلبي.. لن تكون إلا لنفسي...

لكن لماذا؟ لمَ أكون لنفسي فقط؟ أريد أن يكون لي أحد أسكن إليه.. أحتمي
بصدره حين أكون خائفة، كالآن!

تذكّرت الدفء الذي يرتبط بضمّه لي.. لجسده القوي، فاجتاحتني هذا الضعف
الذي أشعر به معه.. تلك الرجفة التي تصيبني حين لمحت شعاع عينه اليسرى أول
مرة، واختفاء الطنين من عقلي بعد أن تسكنه نبرة صوته العميقه الهدأة.. ارتحت
شفتي في ابتسامة واهنة، وسقطت ذراعي قبل أن يصلأ لوجه هذا الخبيث قبل
أن أقطعه إرباً بعد أن ستحت لي الفرصة أخيراً..

همست بداخلِي:

- ظافر.. قلت لي أنك تضمن عدم توقف قلبي.. فأين أنت الآن؟!

وهمست آخر أنفاسي وقد شعرت أن الهمس يخرج من قلبي:

- هل شعرت بالحب يوماً ظافر؟.

قلت هذا وأسبلت أهدابي باستسلام.. ليقترب الحارس بشفتيه الخبيثتين إلى وجهي....

و قبل أن يحدث أي شيء ، سمعت صوت الباب يركل بقوّة ، وظاهر ينادي اسمي بجنون .. وبعد هذا فقدت الوعي .. بعد صمودِ لم أعهد يوماً .. وأفكار غريبة واهنة كذلك ...



عصير الكتب للنشر والتوزيع

{١٧}

= ظاًضِر.. حَنْ أَنَا؟ =

فتحت عيني لتتضح الرؤية تدريجياً، وبدأت أشعر بدقّات قلبي المرتاحة تزداد شيئاً فشيئاً، وتساءلت.. أين أنا؟ لم الظلام دامس هكذا؟!

نهضت ببطء ليتدلّى طرف غطاء ما من على جسدي إلى الأرض، فأذلتة تماماً وقامت بحذر، وقبل أن تلمس قدمي الأرض عادت الرؤية لي، ليتضح كل شيء؛ كنت بغرفة الحكمة، تلك الغرفة التي بها إزالين، أراها مغمضة العينين مستسلمة على الفراش الآخر أمامي على أقصى اليمين، أما على اليسار بالقرب من البابرأيت شبحين متقاربي الطول، قويّ البنية يقتربان ومن خلفهما ضوء الشعلة الكبيرة، أشحت بنظري بعيداً كي لا يؤذيني الضوء، لكن سرعان ما التفت مرّة أخرى حين سمعت صوتاً غريباً يسألني:

- كيف أنت الآن؟

نظرت لذلك الشخص بريبة، تذكرته على الفور! فتلك البنية الشديدة ذات الكتفين العريضين والوجه الهادئ أثارت الكثير من تساؤلاتي من قبل، ضيقّت عيني بينما شردت ببعض خصلات شعره الفضيّة التي تخلّلت لونه الأشقر الأصلي مما زادته جاذبية، وتساءلت بوهّن:

-رأيتك من قبل، أنت.. مساعد الساحر العجوز؟.

ابتسم بعذوبة:

- تشرّفت بلقائك، أنا طراد.. مساعد كبير الحرس.

هكذا انطلق مصححاً لي معلومتي برفق؛ ساحر أو كبير حرس.. من أين لي أن أعرف؟! وقبل أن أتساءل عن المزيد وجدته قد أخذ يدي الموضوعة أمامي بضعف ليطبع قبلة رقيقة عليها ورفع عينيه الحادتين لي بطيبة قائلاً:

- سعيدٌ بائكِ بخيرِ الآن.

احمرّت وجنتاي خجلاً من رقة تعامله وهمست بغير تصديق مرددة ما قال منذ ثوانٍ:

- ت.. تشرّفت بلقائك!

وعند هذه النقطة لاحظت وقوف ظافر بجانبي، والذي كشف عن وجوده بنعنة قصيرة، قبل أن يجذب يدي من بين يدي طراد -مساعد كبير الحرس- ويضعها تحت الغطاء، ثم يرفعه ليذرّني جيداً قائلاً:

- يجب أن ترتاحي...

تعلّقت عيناي بموضع عينيه اللتين أخفاهما تحت غطاء الرأس بمهارة وتساءلت بينما أحاول تذكّر آخر شيء توقفت عنده ذاكرتي منذ دقائق.. وكان مشهد اقتراب الحارس القذر مني بدناءة، فاقشعر بدني وتساءلت:

- هل نال عقابه؟.

لم يجربني ظافر، ولاحظت أنه يضغط قبضتي يديه حتى ابيضت مفاصلهما بشكلٍ ملحوظ.. يبدو أن تحكمه في غضبه يحرق أعصابه بشدّة.. فرفعت حاجبي بقلق..

- لقد نال العقاب مرّتين.. مرّة من ظافر ومرّة من كبير الحرس شخصياً.

قالها طراد لأنّقت له بتساؤل، بينما استطرد دون أن يلاحظ تساؤلي:

- الحقير! مؤشراته الحيوية كانت قد بدأت بالتضاؤل شيئاً فشيئاً بين يدي ظافر، وكاد أن يتوقف قلبه لولا أن تدخلنا بالوقت المناسب!.

شهقت بهدوء وصدمة، أتخيل ذلك المشهد، وأخر، فيه يحملني ظافر كطفلة صغيرة، بينما ألامس شيئاً ما دافئاً للغاية أمام صدره.. لا بل كان ساخناً! أتذكر إخفاء ظافر لهذا الشيء بملابسه حين أشرت إليه بيته.. كانت قلادة أسطوانية الشكل، تلمع بشكلٍ غامض، وتخرج منها حرارة جعلتني أشعر بالطمأنينة لأسبل جفوني مرّة أخرى.. وانتهي كل شيء وقتها..

رفعت وجهي لظافر بصدمة وسألته بعقلٍ:

- هل ما تذكرته الآن صحيح؟.

و قبل أن يجيبني سمعنا صوت إزالين تتساءل برقّة:

- ظافر... هل استيقظت إلى نورا بعد؟.

التفت لها وهمست باسمها غير مصدقة أنا تأسّل عنّي بينما هي من تستحقّ أن أسأل عنها! في خلال لحظات كنت أقف بجوار فراشها التي هي مثبتة به بجبرتي ذراعها وساقها، وحين رأّتني ابتسمت بعذوبة قائلة:

- كم أنا مرتاحٌة لرؤيتك بخير!.

لم يكن باستطاعتي كبح دموعي أكثر من هذا.. فاضت مشاعري وأبكيت أن تظلّ مستترة كما كانت منذ دقائق، فهويت على إزالين أحضنها وأبكي بصمت، إلا من بعض النهنهات القصيرة، وكأنني أخرج كل تلك الدموع والانفعالات التي كبحتها أمام ذلك النذل أثناء اعتدائه على كرامتي قبل جسدي! ربّت على بذراعها السليمة لتهمس بأذني:

- لا تخافي.. فهذا النذل الحقير يتذوق الآن أشد العذاب على فعلته تلك!.

سمعت ظافرًا يزفر بضيق ويفادر الغرفة بغضب، لم يستطع طراد أن يوقفه، فاقترب من فراش إزالين، شعرت بقلبها تزيد دقاته فجأة فابتعدت ماسحة دموعي وقلت ببراءة حزينة:

- أنا السبب في هذا.. ذهبت لهذا المكان الهادئ وحدي دون علم ظافر.. أنا التي تستحق اللوم!.

قلتها ونهضت أنوي اللحاق بظافر، والذي أشعر به يغلي غضباً، وقبل أن أذهب تساءلت بصوٍت مسموع:

- لكن كيف استطاع الوصول بالوقت المناسب؟!.

ابتسمت إزالين وقالت بصدق:

- هو من عثر عليك!.

ظهر صوت الطنين بعقله بصورة ملحوظة، وباتت فكرة اللحاق به رغبة ملحة، ففعلتها دون استثناء، غادرت الغرفة ولم أدر أن بمجرد رحيلي ابتسما طراد لإزالين قائلاً:

- آنستي.. هل تعلمين سبب وجودي هنا الآن؟.

ابتلعت إزالين غصة في حلقها وقالت بنبرة حاولت أن تكون طبيعية بينما ترتفع رقبتها لتراه بوضوح:

- أتيت مع أخي للاطمئنان على إليونورا.. أليس كذلك؟.

- ليس هذا فقط...

قالها واقترب قليلاً لتراه دون أن تتعب نفسها، وقال بينما ينحني برأسه قليلاً مع طوي ذراعه وفرد الأخرى بجانبه بوضع معين بحركة مسرحية قائلاً:

- أتيت لأنّي واجبي، فأنا من اليوم الحراس الخاص بك إزالين!.

احمرّ وجه إزالين خجلاً أثر المفاجأة ممّا جعلها تهمس باسمه بغير تصديق،
فقال هو بعذوبة:

- أعتذر لتأخرني كل هذا الوقت...

أغمضت إزالين عينيها مبتسمة، وانهمكت تخفي خجلها بإعادة خصلة متموّجة
من شعرها الأشقر خلف أذنها..



وصلت أخيراً للرواق بعد خطواتي البطيئة برغم تدافع الأفكار بعقولي، وبحثت
عن ظاهر بعيوني، وفجأة وجدته يأتي من آخر الرواق ممسكاً بشيء مألف، منعّت
نفسى من العدو إليه، حتى وقف هو أمامي وأحاطنى بذلك الشيء المألف بيده،
عبأته الثقيلة المخصوصة للخروج للجو البارد، وقال بنبرة هادئة تخلى من التعبير:

- سنغادر للخارج لبعض الوقت.

انتظرني حتى أومأت -بغرابة- وتقديّمني، وسرت خلفه وعقولي يجلب لي العديد
من الأفكار المتزاحمة، أولها، أن كيف لذلك الرواق أن يشهد موقفين متناقضين
للحالية هكذا؟ الأول هو موقف احتضان ظاهر لي بكل الدفء الذي لم أشعر به
يوماً.. والآخر هو تعامله معى بجفاء هكذا.. وغيرها من الأفكار والمشاهد التي
حاولت تذكّرها قبل أن أفقد وعيي للمرة الثانية أو الثالثة لهذا اليوم.. لكن أكثر ما
شغّلني هو تلك القلادة الأسطوانية الغريبة التي رأيتها معلقة بصدره.. وعن ذلك
الدفء الغريب المنبعث منها!

بينما يصهل قمر بحماس، كان الصمت سائداً بيني وبين ظاهر بصورة
ملحوظة، فكان يوجّه قمراً -الذى يركض سريعاً مبتعداً عن القلعة- بهدوء وتمرس،
بينما أجلس أنا خلفه، أمسك بطرف عباءته التي منعها التصاق جسدي بها من

الرفرفة، مانعة إياها من تقليد عباءتي المقاولة مع الرياح الباردة خلف ظهيري. بدت أحواول منع نفسي من الاستناد على ظهره القوي بوجهي، وكم أردت أن أدفع نفسي به حتى لا يستطيع قراءة أفكاري التي تدافت واحدة تلو الأخرى بقصوة عن ما كنت أشعر به بلحظات المقاومة الأخيرة لذلك الحراس النذر، كما استعدت إحساسي الذي استحضرته لأشعر بالاطمئنان، وإحساس وجودي بجانب أحد يهتم بالأمر، يحميني ويطمئنني.. يعدهني بحمايته لقلبي من التوقف، يضمن دقاته بهذا العالم القاسي المظلم.. وكانت شهقتي حين تذكرةت آخر ما همس به قلبي..

توقف قمر أمم منظري خلّاب، لم أكن لأتصور أنه يتواجد بمثل هذا العالم البارد، فتحت ضوء القمر الكبير المتطلّ على أنا وحارسي، يقع النهر الجاري، والذي رأيت جزءاً منه بالخندق حول القلعة، ويدخلها أيضاً..

ربّ ظافر على قمر بينما يخوض عنقه لشرب من الماء، يروي عطشه بعد تلك المسافة الطويلة التي قطعها، والتفت إلى ترفرف عباءته خلف ظهره، فاقتربت أنا من الشاطئ، أحسّس الماء البارد بيدي، أنتظر من ظافر أن يفسّر لي لم نحن هنا الآن.. وحين طال الصمت، عادت لي تساؤلاته بمنتهى القسوة.. لأجد نفسي أتساءل بصوت مسموع:

— لم يخفق قلبي بالذنب؟ وكأنتي أخون من أحبيت؟.

التفت لي ظافر، فأخفيت سؤالي بأخر، لازيل حرجي، ربما يعتقد أنه تصحيح لما تقوهّت به للتهّ:

– كيف أعرف إن كنت أحب أحداً بحياتي الأولى؟.

رأيت ظافراً يعيث بالعشب البالى بحذائه، فاسترجعت أنا شيئاً ما تذكرته
قد يُسا:

تساءلت يوماً عن كوني ربة منزل، لما أعرفه من مهارات بالمطبخ والتنظيف
وغيرها.. ها، تعتقد أنت، كنت كذلك يوماً؟.

ظل ظافر صامتاً، مما أثار حنقى، فاقتربت منه وفتحت صدر فستانى وسألت مرار:

لَمْ قُتِلْتُ؟ تَضَحِّيَةٌ مِنْ أَجْلِ مَنْ أَحْبَبْتُ؟

وأشرت لشء على جسدي لا أراه بوضوح قائلة:

– من كتب تلك الحماقة؟ كيف له أن يكتب ذلك بدون أي تفسير؟ هل ما زلت ترى تلك الحروف المستقرة ظافراً؟

أبعد ظافر يدي وأغلقت عباءتي على ليخفى ما ظهر من جسدي وأجابنى

بِرُود:

- قايس روك هو من حفراها بأظافره.. تطبيقاً للقواعد.

أغلقت فستاني بحقنِ حین أزال يده عنی هکذا ليجعلني أبدو کيائعة هو
رخيصة، وتساءلت بفیض، بينما أحاول کبح دموعي ومنعها من النزول أمامه:

وللحظة استعاد ظافر عادته القديمة معه، وأجاب على الجزء الذي يختار فقط من أسئلتي المتالية، مما أثار حنقى:

– اعترافاً من قابض الأرواح بأنه لن يعشق جسد الفتاة بعد ذهابها للقلعة؛
يُحفر سبب موتها وأي معلومة يُريد على صدرها.. ويسلمها للحارس
المسؤول، عن توصيلها للزنزانة.

كظمت غيظي منه وفكّرت لدقائق، ثم رفعت صوتي بأخر ما توصل إليه عقله:

- إذا كان قد قبض روحي، فالطبع يعرف كيف مُت.. أقصد كيف قلت! كما
يعرف من أنا، كيف كانت حياتي أو من كان قابعاً بقلبي يوماً!.

رفع لي ظافر عينيه لأول مرّة منذ أن أتينا أمام النهر، لأرى ضوء القمر بعينيه،
وقلت بحزن وتصميم:
- أريد الوصول لقابض روحي!.

أشاح ببصره عنِّي، فاقتربت من يمينه لأواجه عينيه وقلت بتسلّل مصمّمة على
فكري:
- أرجوك!.

و قبل أن يعمّ الصمت المزير مرّة أخرى، سأله عن ما يدور بعقلِي ويصدر ذلك
اللطين المؤرق:
- هل شعرت بالحب يوماً ظافر؟.

التفت لي فجأة فشعرت بيصيح من الأمل، وبتمهل رسمت ابتسامة أمل على
شفتي حين أجابني بـ:

- نعم...

فرجوطه:

- من كانت؟ أيمكنك إخباري؟.

قول ذلك تطلّب مني الكثير من القوّة، لكنّي لفظتها رغم غيرتي وسلّمت الأمر
له، أريده أن يخبرني بهويّتها، كيف أحبها ومتى، حتى يمكنه أن يشعر بتلك المشاعر
بداخلي، فيقدم على مساعدتي!

تحرّك خطوتين وجلس أرضاً، واستند بظهره إلى جذع شجرة عظيمة، ففعلت
أنا مثله وجلست أرضاً لكن أمامه، أريد النظر إليه بينما يحكى، وأظنه سيفعل
ذلك لدهشتني!

نظرت له مبتسمة بتشجيع، بينما دموعي -مجهولة السبب- ترافق صعيدي ترید خيانتي أمامه، فأطربت برأسى وتهجدت بصمت بينماأغلق أهدابي وأعيدها مفتوحة لأكثر من مرّة حتى أجهضت خطّة دموعي، ومن ثم أعدت النظر لظافر مرّة أخرى، والذي بدا شارداً حين قال:

- كان هذا منذ وقت طويل حين رأيتها أول مرّة.. كانت طفلة صغيرة تلعب وحدها بملل طفولي.. حتى جاء إليها خبر وصول مولودة صغيرة لمشاركة حياتها، أختها الصغيرة، فقفزت فرحاً تملأ الكون بضحكاتها الرنانة.. كم بدت وقتها بريئة، صافية ونقية!.

توقف قليلاً ثم استطرد:

- راقيتها تتقّدم بالعمر، تترك مرحلة الطفولة لتخطو أولى خطواتها بالمرأفة وصولاً للشباب، ولم يكن بمقدوري الاقتراب، رغم وقوعي بحّبها منذ النّظرة الأولى...

نظرت له بحيرة وتساءلت بغير فهم:

- آسفة لمقاطعتك لكن.. كيف راقيت مراحلها العمرية تلك ولم تتغير بنظرك.. أعني.. حين تتقّدم بالعمر تتغير رؤيتك للأشياء والأشخاص، فكيف ذلك؟.

رأيته يضع يده على صدره، يلامس ذلك البروز الذي يثير فضولي، والذي بالطبع سببته قلادته الغامضة، وقال بشرود:

- لأنّي كنت أمرّ مراحلها ذاتها تلك رغم أنّي أكبرها بستّة أعوام، وكنت مسافراً من العالم الآخر للحياة حين قابلتها، ومن يومها بتّ أتردد على تلك الحياة لأراها بصورة مستمرة.

دقّ قلبي بعنف وقلت بإعجاب به بعض الخجل:

- أحببها منذ أن كنت طفلاً؟ كم هذا رائع!.

لاحظت ابتسامة بصوته حين قال:

- ولن أتوقف عن حبّها يوماً.

أثارت كلماته دُقَّات قلبي، لتجعلها تترافق بجنون.. كم بدا واثقاً حين قال هذا حسده على ثقته تلك، فأنا التي أشعر بدقّات الحب لا أستطيع تمييز من تكون؟ أهي للأمير الذي فرض على حبّه من قبل أن أراه؟ أم؟!

لم أحتمل هذا، أريد معرفة المزيد! كان بإمكانني الاكتفاء عند هذا الحد وطلب المساعدة منه ليجعلني أكتشف من أحب، لكنّي رغمًا عن ذلك تساءلت بشرودٍ وفضول:

- وماذا حديث؟ هل تزوجت؟.

ضحك بمرارة وقال مستكراً:

- لم أكن لأشعر لهذا بالحدوث!.

لاحظت نبرته المتملّكة، فأثار فضولي أكثر، واستمعت له بإنصات حين قال

بشرود:

- ماتت.. قبل أن أتمكن من الظهور أمامها والنظر بعينيها عن قرب ولو لمرة!.

شهقت واضعة يدي على فمي ولم أدرك أن دموعي قد بدأت بالتجمّع، وقلت بصوٍّ متأثر، غير مصدقة ما قال للتو:

- وانتهى كل شيء؟ فقط بهذه البساطة؟.

فأجابني بعد أن تنهّد تنهيدة أثارت القشعريرة بجسدي:

- لم أرد لحياتها أن تنتهي هكذا.. فمنعت قابض الأرواح من الاقتراب منها، وحين أجبرني بالتسليم للأمر الواقع.. ساومته...

اعتدلت في جلستي ونظرت بتطلع لوجهه المختنق تحت ذلك السواد القاتم،
لأجده يستكملا ما يقول، ساردا ما بصفحة قلبه:

- كنت أعلم أني بمجرد عودتي للحياة لدي عمر محدد، وبانتهايه سأعود
للعالم الآخر بدون أي ذاكرة عن حياتي، عكس ما كنت أفعل بطبيعة الحال،
أتقل بين العالمين بحرية...

واستطرد:

- فساومت بنصف عمري بالحياة، وتم تأجيل موتها بمقدار ما ضحيت به.
أزلت يدي عن فمي وصرخت به بغير تصديق:
- مادا تقول؟ مادا إن كانت حياتك انتهت عند هذا الحد؟ ستكون هي على
قيد الحياة وأنت تحت التراب!.

هزّ كفيه باستسلام فسألته من قبل أن يجيبني على ما قلت للتو:
- ومادا حدث؟.

عادت نبرته للشروع مجددا، رأيته يعتدل في جلسته ليجلس القرفصاء مثلي،
وانحني بوجهه للأمام ليكون بالقرب مني ورفع غطاء رأسه للخلف قليلاً وقال
بينما يشير لعينه اليسرى:

- أصبحت هكذا...

اختلست المشاعر بصدري فجأة واحتقن صوتي بدموعي حين أدركت أنه قد
ضحي بنصف حياته من أجل أن تحيا هي مزيداً من الوقت، وأصبح نصفه الآخر
قابض للأرواح!

ربّت هو على رأسي ببطء يواسني ما أشعر به فائلاً:

- لا بأس.. لم يكن سبيلاً قط، ولا أندم على فعلني هذا!.

رفعت عيني الغارقتين بالدموع وسألته بصوتي المختنق:

- وهل قابلتها لتنظر بعينيها وتعترف لها بجنون حبك؟.

ساد الصمت لحظة، لأجده يضحك بمرارة ويقول:

- لم تكن لجميلة أن تحب الوحش يوماً!.

صدمنتني كلماته فقلت أنا -بحفز- دفاعاً عن فكري الراسخة بعقلي:

- لا بل يمكنها أن تحبّ! الحب للقلب والروح، لا للوجه أو الجسد!.

و قبل أن أقول أي شيء قاطعني:

- هذا إن كانت رأته أصلًا...

مسحت عيني ونظرت له بغير فهم، فضحك باستكارة وسخرية من نفسه قائلاً:

- لم أكن أعلم خطورة كوني قابضاً أرواح إلا بعد تحولّي...

استطرد بنفس النبرة، ليذكّرني بما قال سابقاً حين أراني لمعة عينه اليسرى:

- نظرة الأرواح -دون الوعي بكيفية التعامل معها- تعكس طبيعة الفتاة.. إن

كانت حيّة تميتها، وإن كانت دميمة...

قاطعه أنا:

- تجعلها جميلة!.

- بالضبط!.

قالها ظافر، ففهمت مغزى ما قال ورددت ما فكرت به:

- هذا يعني أنك حرمـتـ منـ النـظرـ إـلـيـهـ؟.

أومأ ببطء، فانفجرت أنا بيـكـاءـ أكثرـ مـرـارـةـ! كـيـفـ هـذـاـ كـيـفـ عـاـشـ بـجـانـبـهاـ

بنصفـهـ الـأـدـمـيـ المحـظـورـ عـلـيـهـ رـؤـيـتـهاـ بـسـبـبـ لـعـنـةـ نـصـفـهـ الـأـخـرـ!

- لم يتسع لي رؤيتها إلا حين قبضت روحها بنفسها، حين انتهت حياتها للمرة الثانية...

وأضاف بدهشة:

- وشكّرت صنيع من حولني لقابض أرواح، بعد أن علمت ما تسمى برقصة الوداع!.

شهقت بصدمة بينما أضع يدي على قلبي، أهدها، قبل أن يقتلع صدري بدقّاته، وتساءلت بدهشة:

- إذا هي حقيقة؟! ليست مجرد قصّة؟.

وأغمضت عيني بتأثر حين أجابني:

- هي الحقيقة، والقصة التي تعيش ذكرهاها بداخلي حتى الآن، وللأبد!.

أمسكت يده بحزن قائلة:

- أنا حَقًّا آسفة! لم يكن على تذكيرك بها، سيكون تذكّرها أصعب عليك بينما أنت خالدُ بهذا العالم القاسي!.

ربّت على يدي ثم نهض قائلًا:

- لا عليك، لم تغب عن بالي ولو لحظة لأنسها...

جفّفت دموعي وقلت بخفوت:

- وبعد أن أخبرتني بحبك الأسطوري لتلك الفتاة، تتوقّع مني أن أنتظر مجرد نظرة من الأمير ليعجب بي من بين كل تلك العرائس؟.

تهّدت وانطلقت قائلة بتمردٍ أهوج:

- لن يرتاح بالي إلا بعد أن أُعثر على قابض أرواحي لأسأله من كنت أحب، أريد أن تكون لي ذكرى جيدة أحيا بها حتى يتسعني لي الوقوع بحب الأمير!.

التفت ظافر لي متسائلاً باستكار:

- وهل يجب عليكِ أن تتدذكرِ حبّك لأحدهم قبل رؤية الأمير؟ نحن بالعالم الآخر! حياتك انتهت وقد انتهى معها كل شيء، لهذا تستيقظين هنا بلا ذاكرة!.

نظرت له بغيرة وقلت بصعوبة:

- أحسدك ظافر! فأنت تتدذكر كل شيء عن حبيبتك!.

تنهّد وقال متحاشياً النظر إلى:

- التقاهم مع قابضي الأرواح ليس بالأمر السهل، فهم جنس آخر غير ذكور وإناث البشر... .

تنهّد واستطرد:

- كما أنهم انتهازيون للغاية، ربما سيطمعون برقصة وداع أخرى مع الفتاة التي كانت لهم يوماً!.

اقشعرّ بدني وقلت بتقرّز:

- لا أريد رقصة أخرى! فقط أريد معرفة من أنا!.

التفت لي ظافر قائلاً بجسم، يغلق مسار الحديث:

- مستحيل.. لن يمكنك معرفة هذا!.

زفرت بضيق، وذهبت مقتربة منه ونظرت لعينيه فتجدد للحظة ونظر لي، أحمر وجهي تدريجياً حتى أصبحت كحبة الطماطم، وقد سكن الطنين بعقلني إلا عن جملة واحدة.. ردّتها كثيراً بقلق فتاة مراهقة تقدم على شيء لا تعرف خطورته:

- أعتقد أنني واقعة بحبك ظافر!.

وقفت على ركبتي مستندة بيدي على صدر ظافر، على موضع قلبه تحديداً،
وتساءلت بعقلٍ:

- هل لي بتفسير؟.

لم أجد منه رداً، وانتهت فرصة تجمده هكذا، ورفعت إحدى يدي لقناع وجهه الأسود، أجدبه للأسفل، وأغمضت عيني.. لا يهمني كيف يبدو وجهه الآن.. لا يشغلني سوى هونفسه.. هو فقط ظافر! لا أريد شيئاً منه إلا غموضه، نبرة صوته العميقه الهدأة والساخرة أحياناً، ثباته وحزمه معي، وأيضاً احتضانه لي بدفء..

رفعت يدي من على صدره لأحيط بها مؤخرة رأسه كما فعلت يدي الأخرى، لأقربها مني.. أشعر برغبة جامحة في أن أمس وجهه بشفتي.. أن أقبله بكل ما بي من مشاعر متداخلة من ضمنها تلك الغيرة من حبيبته التي سبأبى نسيانها.. والتي عزمت على أن أتخذ مكانها من الآن فصاعداً، دون أن يهمني منصبي المستقبلي المرتبط بحب الأمير، فقط أريد هذا الحب! لكن، قبل أن أفعل أي شيء صدمت بشيء دافئ للغاية لدرجة الغليان، شعرت بأنه أحرق صدري المتلاصق بصدره، فتاوحت مبتعدة، وسقطت أرضاً، وحين فتحت عيني وجدته قد أعاد إخفاء وجهه كما كان بينما ينظر لي بغضب.. فانتبهت على ما كنت مقدمة عليه وهمست معتذرة، متسللة منه أن لا يكرهني بسبب فعلتي! خلته ي يريد هذا كما أريد.. للحظة أردت تصديق أن الشعور متبادل.. لأنه ببساطة لم يمنعني.. لم يوقفني!

- بل منعك للتوّ!.

قالها بحزم، فأغمضت أنا عيني أمنع نفسي من الوقوع في أسر نبرته العميقه تلك، ونهضت واقفة أتساءل بقلق:

- هل أغضبتك مني؟ أعتذر ظافر أنا...

أخرج قلادته الغريبة واقلعها وأسدلها أمام وجهي، وقال بغموض:

- أدركت أن هذا يمكنه الحدوث مجدداً...

واستطرد:

- هذه.. تحميني من أن أقع بحب أي أحد غيرها!

أدراها بأنامله بخفة أمام وجهي لأراها، وقد استحال لون القنينة أسطوانية
الشكل تلك من الأسود إلى الشفاف بطريقة مذهلة، ليتضح لي ما بداخلها! وقبل
أن أنطق بما أرى قال هو بتأثر:

- قطعة من قلبها.. ودموعي!.

وضعت يدي على فمي بصدمة وغير تصديق، وهوت دموعي مرة أخرى أكثر
قوّة.. كيف لشخص ما أن يتذكر حبه لأحد لتلك الدرجة! لن تكون لدى أي فرصة
معه على الإطلاق!

- هذه التي تذكّرني بها دوماً وأبداً.. والتي سأعطيها لها حين القها.

همست أنا متسائلة بغيرة صادقة:

- يمكنها أن تأتي لهذا العالم؟.

أعاد القلادة للونها الأصلي قبل أن يخفيها داخل ملابسه، بالقرب من صدره
وقلبه فابتعدت حرارتها عن وجهي، ولا أنسى تلك اللمعة بداخلها، هل هي من نبض
قلبها بها أم بسبب دموع ظافر المتلائمة؟

- ستراوني.. أنا على يقين باقتراب هذا اليوم.

استدرت مبتعدة عنه لأهوي بركبتي بالقرب من الماء البارد، أخذت القليل منه
بين يدي وبقسوة قذفت به على وجهي، أصبح بداخلني:

- أهيقي إليونورا! لن يكون ظافر لك!.

كرّرت فعلتي واستطردت بحزم، أذكر نفسي بهدي في الأول:

- أنت الأميرة التي ستملك كل هذا! حبيبك هو الأمير، ولن يكون بقلبك متسع
لغيره أبداً.

نهضت متأثرة فاستعنت بقمر لاستقيم في وقتي، وقلت لظافر بينما صوتي ما
زال متحشرجاً أثر البكاء:

- أعدني للقلعة.. أريد النوم...

مسحت على شعر قمر قائلة بشرود وكأنما أذكّر نفسي بهديه:

- اقترب حفل مولد الأمير، ويجب علي الاستعداد للرقص منذ الصباح الباكر...
اقترب ظافر بصمت وساعدني على امتطاء الفرس، وعدنا للقلعة بين
أصوات صهيل قمر المتحمّس دوماً للسرعة.. لا يدري أن سرعته تلك كانت
تนาفس سرعة أفكاري ودموعي المنهمرة حين تذكّرت كل شيء جمعني
بظافر من اليوم الأول هنا.. وأخيراً تذكّرت سؤالي الخجول لإيفي:

- هل من الطبيعي أن.. أن يحتضن الحارس الفتاة التي يحميها؟.
وتذكّرت إجابتها.. وبحثت أمامي كلمة «أصدقاء» بقسوة، لتصفعني على
وجهي لاستيقيق.. وباتت كلمات إيفي تتردد بداخلي حين فسرت لي سبب احتضان
حارسها لها أكثر من مرّة:

- طبعاً.. فنحن أصدقاء!.

دفت رأسي بظاهر ظافر رغمّ عنّي وتساءلت بمرار:

- هل كان ما بيننا مجرد «صداقة».. وهدمتها أنا باندفاعي وتهورّي؟.



{١٨}

= ما حدث بـ كوابيسى .. والحل ! =

تلك الليلة لم أستطع النوم قط، وظللت ذاكرتي تصف لي كم كان موقفي محراجاً أمام ظافر، بما فيها دموعي أمامه والتي لم أدرك -إلا الآن- أنها مثيرة للشفقة.. تنهدت وأبت جفوني الراحة، فكّرت في تغيير طريقة نومي، تململت في فراشي بهدوء لأنام على جنبي الأيمن، فوجدت ظافراً يجلس على مقعد مجاور، يسند على الفراش يكتب شيئاً ما، نظرت لما يكتب بفضول، لأراه يخط بيده حروفاً أعرفها جيداً إنها لغتي! وحين حاولت النهوض أخذ الورقة وأبعدها كي لا يلمسها الغطاء فيفسد حبرها، وهمس بـ:

- تشرعين بالأرق؟.

ضحكت بسخرية من نفسي وأشحت بوجهي بعيداً قائلة باستكثار:

- لا بل صوت احتكاك قلمك على تلك الصفحة يزعجي!.

لاحظ ظافر أنتي أعناده، فتهض ونظر لي وقال بنبرة بها شيء من السخرية:

- هل لي بصم أذنيك حتى الصباح آنسني؟.

زفرت بضيق وتململت بعند للجهة الأخرى، وقلت:

- لا أريد أياً من تعاوينك، سأكون بخير!.

لم هذا الجفاء بنبرتي؟ أنا لا أكرهه كي أعامله هكذا!

- في حالة بقائك مستيقظة طويلاً؛ يمكنك قراءة هذه، أتمت ترجمتها للتو.

لم ألتقت له، وتصنعت اللامبالاة حين سأله من الجهة الأخرى بهمس: - وماذا يوجد بها لأقراء؟.

مال إلى بجذعه وهمس بأذني بينما ترك الورقة على الوسادة بجانب وجهي بنعومة:

- رسالة من الفتاة التي تلقينها بفتاة الحكايات.

انتقضت حين ابتعد واقفاً كما كان وأخذت الورقة بحماس، استقررت بوضع الجلوس وقرأت العنوان:

- جنة حية، أم بقايا عروس؟.

وهمست ما بين الأقواس باستنكار:

- دليلك لتحولّي من عروس، لخادمة أو عبدة!.

ابتسمت ببلاهة وتساءلت:

- هل كتبت هذا من أجلي؟.

وكانت الإجابة بالسطر الأول:

- عزيزتي إليونورا.. لقد فلقت عليك كثيراً لكن طمأنني حارسك للتو، لذا أكتب لك قصة الليلة والتي لم أرد أن أحكيها إلا بحضورك، لكن.. تعلمين إصرار العرّاس وتصميمهن؟!

هل تذكّرين ما حكته لك جلاديس؟

سأضيف عليه قليلاً، وأترك لك التخيّل..

يُقال إن الأمير لا يكلّ من فتياته.. عرائسه أو أميراته.. فصنع لهن طابقاً مميّزاً، هو أعلى من طابقه نفسه، يحمل العديد من العرّاس القديمات اعزازاً بهن.. يذهب ليقلّي عليهن تلك النّظرة الفخورة وينصرف لمسؤولياته.. لكن، كيف رأت جلاديس جنة حية لفتاة نعرفها؟ فتاة تم أخذها لطابق الأمير يوماً؟

وهكذا تابعت قراءة رسالتها التي تقصّها علىّ، وبكل ما بي من فضول اتّسعت عيناي لأنّقى المزيد والمزيد من حروف كلماتها، وكأنّها جرعة من مخدّر قوي معادة عليه وأحتاجه، ولم أدرّ أين انتهت سطورها، أو أين انتهى وعيي بما حولي.. ليختلط عالم الواقع، بالافتراضات والأحلام.. بلا تمييز!

رأيت وجه الثلاث فتيات يقطر دمًا، دماء ثقيلة لا يخفّفها إلا قطرات العرق النديّة على جبينهن الملوّث بالخدمات بمختلف ألوانها، يطلبن الرحمة.. يطلبن السماح، ويعتذرلن لكونهنّ دميمات ولا يلقن بالأمير!

ابتسمت لي الفتاة ذات العينين الرمادييّتين والكحل يرسمهما بإتقان، بينما تبدو كالجّة، فشعرها الأسود الفاحم الطويل استحال لونه للرمادي من كثرة ما عانى من قرب التراب والأرض.. تهمهم بكلمات لا أفهمها.. فاقتربت من الأرض التي لا تظهر إلا رأسها، وتستر باقي جسدها المدفون واقفًا، لأسمعها بوضوح تهمس بأذني بفتحيّ:

- هل تنتظرين الحب منه؟.

ارتّشت ابتسامتى وتساءلت بهدوء وثبات:

- مصلحتي تكمن في حُب مولاي الأمير، ولن يتغيّر هذا أبدًا.

سمعتها تضحك باستهجان، وفجأة صرخت بأذني:

- وهل لديه قلب يا حمقاء؟.

انتفضت واقفة لأرى أنّي أرى برج العرائس العالى، وأنادي باستعطاف:

- يا عرائس البرج العالى.. أيمكنني الزيارة يومًا؟.

فسمعت أصواتاً متداخلة، صوت الثلاث عرائس، الفتاة ذات الكحل بعينيها، وصوت جلاديس! يقلن في نفس الصوت، باختلاف نبراتهنّ:

- تستطعين هذا دوماً!.

كانت نبرة الثلاث فتيات حزينة مريرة، نبرة الفتاة كحيلة العينين صارخة،
ونبرة جلاديس مستعنة راجية!.

شعرت بأنني أهوي بحفلة عميقة، سحيفة لا تنتهي أبداً، شعرت بانقباضات
معدتي تؤرقني، وأصوات الخلفية تؤذيني.. أصوات ممزوجة من الصرخات،
الضحكات والنهنحة الصامتة.. كنهنّه عروس الأمير التي رأيتها تبكي قبل أن
تختفي باليوم التالي!.

فجأة ارتطمت بشيءٍ ناعم للغاية، ففتحت عيني لأرى أنني على فراشٍ كبيرٍ
واسع، ناعم للغاية تزيّنَه الوسائل البيضاء، الحمراء والفضية، فاعتدلت جالسة،
و قبل أن أنطق بأي شيء سمعت نبرة رجولية مبهمة تهمس بالقرب من أذني:

- أنتِ جميلة جداً إلى نورا.. وهذا ليس عدلاً!.

انسعت عيناي لتدكري تلك الجملة بوضوح، واقشعرّ بدني وتوقفت أن يكون من
يهمس بأذني هو حارس إزالين، لكن.. لمحت ظلاً رأيته في يوم ولم يُؤرق نومي، بل
أثار فضولي.. ظلاً لشخص بتاج مرصع، أذت أطراف رسمته الحادة إصبعي ذات
يوم بالمكتبة.. لكن ما أراه الآن هو تاج حقيقي، يرتديه شاب ذو جسدٍ رشيق، يقترب
من وجهي ويطبع بشفتيه قبلة على زاوية شفتي لأهمهم أنا بيته:

- سمو الأمير؟.

وفجأة شعرت بوخز في صدري، فرفعت رأسي الذي كان أثقل من أي وقتٍ
مضى لأرى ما يحدث، فرأيت جسدي عارياً، لكنه رفيع للغاية، دميم، تملأه البشرى
والبقع! وكان ما يقيّد حراكه هو قابض أرواح! برداه الرمادي الباهت كالضباب
الذي لا يظهر ب نهايته إلا طيفه، تحاشيت النظر بعينيه ويردد هو بفحيح:

- أنتِ مقتولة.. مقتولة!.

وتزامناً مع كلماته تلك أتت صرخات الألم من بين شفتيٍ وكأني أصرخ تحت الماء، لأنقاًجاً بأنه يغرس أحد أظافر يده ينقش حروفه الغامضة وكأنها حروفٌ من نار! فتململت أنا وشعرت فجأة بيد تقبض على عنقي، لم أعد قادرة على التمييز بين اللمسات، لا أدرى إن كانت لمسة قابض الأرواح؟ حارس إيفي؟ أم سمو الأمير؟ فالشيء الوحيد الذي كنت أشعر به هو انخفاض معدل دقات قلبي بصورة ملحوظة.. حتى خفت تمامًا.. وانتهت!

شعرت بيد قوية تجذبني من تحت التراب بالأرض، استندت على ذلك الشخص بكل قوّتي بينما أحاول التناط أنفاسي، لأجد أنه فجأة قد ضمّني إليه بقبلة! وكل ما جاء بعقلي وقتها أنها قبلة الحياة.. لا... بل قبلة العالم الآخر.. فبعد أن انتهت تلك القبلة العميقه شهقت أنفاسي بانتظام، وعاد قلبي يتحقق مرة أخرى، لم يخرجني ذلك الشخص من أحضانه ولو للحظة! بل تمايل بي على أنفام غريبة.. لا بل صرخات.. ونواح!

هل أتذكر الآن رقصتي الأخيرة؟ نعم! هي فرستي! علىٰ فقط أن أخرج من بين أحضانه لأسأله؟ من أنا؟ كيف تم قتلي؟!

آخر جني قابض الأرواح بصعوبة من بين أحضانه ونظر في عيني، لأرى عينيه الدامعة تشع شعاعاً خاصاً وفجأة وجدت نفسي بعالم آخر، لأجد صوته يهمس لي

بـ:

- لحظاتك الأخيرة.. سأعرضها عليك لمرة واحدة فقط.

أغمضت عيني وفتحتهما بغير تصديق، لأرى أنتي بممِّر مظلم، أرتدي أزياء غريبة غير ذلك الرداء المعتادة على ارتدائه بطابق العرائس، نظرت حولي بيته وفجأة سمعت صوت استغاثة!

- فليخرجنـي أحدـ من هنا أرجوكم! أتوسـل إلـيـكم أنا لم أ فعلـ لكمـ شيئاً!

خفق قلبي ببطء وتنهـدت بارتعـاش، وخرجـ منـيـ صـوـتـيـ وكـأـنـيـ لـأـتـحـكمـ بـهـ:

- أين أنتِ صغيرتي! لا تخافي ها أنا هنا!.

وفجأة صرخت الفتاة بـ:

- أختي! أغثيني!.

لم يكن لدى حل سوي أن أفتح أبواب ذلك الممر دون الحاجة للضوء، باباً تلو الآخر، أشعر بمحتواء الفارغ لأنقل لما يليه، وفجأة لمحت ضوءاً يأتي من تحت باب ما، فركضت إليه وفتحته بكل ما فيّ من قوّة، لأجد أصواتاً رجولية تضحك بمجون، إلا حين رأني واحد منهم صاح في بغضّب وغير تصدق:

- أنتِ كيف وصلت إلى هنا!.

نظرت خلفه ورأيت جسداً ضئيلاً لفتاة ما تصغرني بأعوام بسيطة، مكبلة بأيادٍ رجولية قدرة، بينما المسكينة تتململ وتصرخ وقد وجدت ضالّتها:

- أختي! أنقذيني!.

أنا؟ أخت تلك الفتاة المسكينة؟ ربما أنا هنا لإنقاذها! اقتربت من الرجل بغضّب وركلته ركلة ممتازة فهو أرضًا ممسكًا بمنطقته المحظورة يتأوه ألمًا ليصبح بباقي الرجال بأن يمسكوا بي، نظرت حولي فوجدت زجاجات من الخمر، فارغة.. لكنّها ستفي بالغرض، بت أقذفهم بها بينما أصيح بغضّب واستماتة، هوى رجال مخموران أرضًا فشعرت بسهولة ذلك، تجرأت واقتربت من الخبيثين اللذين يكبلان تلك المسكينة أختي، أريد منع ذلك الخبيث من طبع قبلاته الثملة على وجوهها وجسدها!

فجأة سمعت زمرة الرجل الذي قد ركلته بالخلف مني، يصرخ بأشياء غير مفهومة، وفجأة التفت الرجل الذي ينهال على جسد أختي بسكب الخمر على جسدها الهش ليتذوقه، التفت إلىّ بغضّب، ثم أخرج سكيناً صغيراً وجعله بالقرب من رقبة أختي والتي باتت تبكي بجنونٍ وفحيح صوتها لا يغادر أذني أبداً، مذعورة

جَدًا تخشى الموت وفي نفس الوقت تخشى الحياة بهذا الشكل! فصحت أنا بغير وعيٍ مني:

- اتركوها! دعوها تذهب وخذلوني أنا!.

ضاقت يد من يقف خلفي على رقبتي وقال بطبعٍ هامسًا:

- أو يمكننا الحصول على كلِّيَّا! فأنتما شهيتان للغاية!.

أغمضت عينيَّ والدموع تنهار منهما بينما أتململ بكل قوّتي، وفجأة لمحت من بعيد طيفًا رماديًّا اللون، يقترب من رجل ما، يعبر من بين جسده بخفةٍ فيسقط الرجل أرضاً بكل سهولةٍ! واقترب من الآخر الذي يسكب الخمر على جسد أخي، وأآخر وأخر حتى انتهوا جميعهم، عدا ذلك الذي يحيط رقبتي بيديه القويَّتين المترقيتين، وقبل أن يلتفت لي ذلك الطيف المبهم، سمعت صوت طقطقة عالية، ولم أشعر بشيء آخر وقتها.. فأدركت بأنه صوت انفصال فقرات رقبتي عن بعضها البعض، مما أنهى حياتي... .

فتحت عيني مَرَّةً أخرى لأجد أنّي طيف، أجلس على جسدي المنتهي، وأمامي يقف هذا الطيف، وسمعته يقول بنبرةٍ خاليةٍ من التعبير:

- يجب علينا الذهاب.

ومدّ يده لي، فوضعت بها يدي بشرودٍ وغير تصديق، وأشحت بيصري للتلك المسكينة التي تغمض عينيها بين جثث الرجال الهاشمة، وقبل أن أقول أي شيء سمعت صوت ذلك الطيف يقول:

- ستكون بخير، ما صحيت به كان كافياً لإنقاذهَا.

نظرت له بغير تصديقٍ وصحت بغير فهم:

- مادا تقصد!.

جذبني لأنهض، وأحاطني بذراعيه قائلًا:

- ضحّيت بحياتك لأجلها! من أجل أن تعيش هي! ستعيش، وسترحلين!.

نزلت من عيني دمعة فمسحها سريعاً، فابتسمت أنا وتساءلت بربما:

- وهل ستكون بخير دوماً؟.

أوماً فزادت ابتسامتى إشراقاً، وهمست براحة:

- وهذا كل ما أريده.

تهّدت فرفع ذلك الطيف وجهي له، لأنظر بعينيه، وفجأة ظهر شعاع قوي،
جعلني أحبس أنفاسي بذعر، فأغمضت عيني، تزامناً مع أصوات كثيرة، طنين..
صرخات... نهنهة وبكاء.. حتى سمعت صوت الطيف مرّة أخرى يقول بلا تعبير:

- هل رأيت نهايتك؟ هل يكفي أم أنك تريدين رؤية نهاية أخرى؟.

فرفعت له عيني بغير فهم.. بينما عيناي ما زالتا متّسعتين على آخرهما من

الصدمة!

من هذه؟!

فتاة تسير أمامي ببطء، في ممرٍ ضيقٍ مظلم لا ينيره إلا شعلتان أراهما من على
بعدٍ كبير.. رأيتها تلتفت خلفها مبتسمة بصفاء، فرأيت وجهها.. إنها جلاديس!
كيف أن أخطئ ربوة شعرها غير الناعم!

ناديتها بغرابة:

- جلاديس؟ أين تذهبين؟!.

وأشرت خلفي قائلة بتأكيد:

- طابق العرائس من هنا!.

لم ترد علىّ! فأدركت أن هذا بسبب ضعف سمعها، فهرولت خلفها، ونظرت بوجهها لأرى شفتيها يهمسان بحماس:

- سأرى مولاي الأمير أخيراً.

رأيتها تحلّ ربطه شعرها لينساب على وجهها وجبينها بنعومة لم أعتقد يوماً أنها تليق بها! وتلمع عينها بأمل، فقلت أنا:

- جلاديس! لا ترحي وتركتيني.

ضحكـتـ هيـ والـتـفـتـ لـيـ،ـ ثـمـ عـادـتـ تـنـظـرـ لـلـأـمـامـ وـكـأـنـتـيـ لـسـتـ هـنـاـ مـنـ الـأـسـاسـ!

وـقـبـلـ أـدـرـكـ أـنـتـيـ مـجـرـدـ طـيـفـ،ـ لـحـتـ أـنـ هـذـهـ الـأـرـضـ التـيـ لـاـ تـسـيرـ بـهـ،ـ لـاـ تـنـهـيـ نـهـاـيـةـ جـيـدـةـ أـبـدـاـ!ـ بـلـ تـنـفـوـصـ إـلـىـ حـضـرـةـ مـظـلـمـةـ،ـ أـشـعـرـ بـيـرـوـدـتـهـ بـالـرـغـمـ مـنـ

أـنـتـيـ أـقـفـ بـجـانـبـ إـحـدـىـ الشـعـلـاتـ!

جلاديس تـسـيرـ بـبـطـءـ،ـ وـأـنـتـعـهاـ بـرـبـيـةـ..ـ وـأـنـادـيـهاـ بـأـعـلـىـ صـوـتـ لـدـيـ،ـ أـحـاـوـلـ

لـسـ يـدـهـاـ إـلـاـ أـنـ يـدـيـ تـعـبـرـ مـنـ خـلـالـهـاـ وـلـاـ تـمـسـكـ بـهـاـ..ـ وـبـكـيـتـ بـذـعـرـ حـينـ اـقـرـبـ

مـنـ السـقـوـطـ،ـ وـصـرـخـتـ بـاسـمـهـاـ بـكـلـ مـاـ بـيـ مـنـ قـوـةـ:

- جـلـادـيـسـيـسـ!

وـأـنـتـهـيـ كـلـ شـيـءـ!ـ هـوـتـ جـلـادـيـسـ!

وـضـعـتـ يـدـيـ عـلـىـ فـمـيـ بـغـيرـ تـصـدـيقـ،ـ وـالـتـفـتـ لـأـعـودـ حـيـثـمـاـ كـنـتـ،ـ لـكـنـتـ فـزـعـتـ

بـاـصـطـدـامـيـ بـأـحـدـهـمـ..ـ جـسـدـ ضـئـيلـ وـصـغـيرـ..ـ جـسـدـ إـيـفيـ!

نظرـتـ لـهـاـ بـتـيـهـ،ـ لـأـرـاـهـاـ تـبـتـسـمـ لـيـ بـيـنـمـاـ تـقـرـكـ عـيـنـيـهاـ النـاعـسـتـينـ،ـ تـطـاـيـرـ

مـنـامـتـهاـ الـورـدـيـةـ النـاعـمـةـ وـتـهـمـسـ لـيـ بـصـوـتـهاـ النـاعـمـ الـمـبـتـسـمـ:

- أـيـنـ كـنـتـ أـخـتـيـ؟ـ

في حركة واحدة اعتدلت بوضع الجلوس واصعدة يدي على قلبي الذي يخنق بجنون، ولم أدرك أن شهقة عالية قد انطلقت من بين شفتي، وفجأة شعرت بيد تربّت على ظهري، فاللتقت لاراها إيفي الصغيرة تهمس بـ:

ـ آسفه هل أفزعتك مجددًا؟.

جلست على طرف فراشي وربّت على يدي قائلة:

ـ ما بك؟ للثلاث ليالٍ الماضية تستيقظين مفروعة! هل تراودك الكوابيس؟.

ـ ثلاثة ليالٍ؟.

رددتها بيته صوت الناعس، وأضفت:

ـ في أي يوم نحن الآن؟.

ابتسمت إيفي وصفقت قائلة:

ـ يوم مولد الأمير!.

اتسعت عيناي بذعر ووضعت يدي على رقبتي أمسّها، ونظرت حولي لأجد أن الطابق شبه فارغ، فتساءلت:

ـ أين العرائس؟ أهم في الحفل؟.

هزّت رأسها نفياً بغرابة قائلة:

ـ لا يوجد أحد بالطابق سواي أنا وأنت، والباقيات قد ذهبن للخيّاطات، سيحصلن على ملابس الرقص خاصّتهن ليرتدّينها بعد الحمام الدافئ، للتوجه للحفل!.

اقشعرّ بدني وشعرت بنذير شؤم كبير، ونظرت حولي وناديت باستجداه:

ـ ظافر!.

وزاد معدل تفسي بين نظرات إيفي المرتبة، وسمعت ردّه الفورى:
- أجل؟.

استدرت لأجده يجلس على يميني، ويشاهد ما آل إليه حالى! فسألته بغير
تصديق:

- ماذا يحدث لي؟.

نهض تاركاً المفكرة الصغيرة من يده ليخفىها بجيب ملابسه من الداخل، وقال
لإيفي:

- اذهبى أنت وستأتي على الفور.
ابتسمت إيفي لثقة ظافر، وقالت:
- حسناً.

نهضت من على فراشي وأشارت لي بأنها سترحل مبتسمة، وخرجت لأكتشف
أن كاليب كان يقف قرب الباب ينتظرها، التفت لظافر وتساءلت بذعر:
- هل نمت لثلاث ليالٍ؟.
ناولنى كأساً من الماء وقال:

- اهدأى، أنت لا تذكرين إلا الكوايس الآن.. دقائق وسيعود كل شيء كما
كان.

شربت بعض الماء ثم أعدت الكأس إليه متسائلة بغير تصديق:
- وهل الحفل اليوم؟ الآن؟.

أشار للشرفة، فتهضت بسرعة ولم أبال بكوني دست على غطاء الفراش الذى
أزحته عنى ليسقط أرضاً، وشهقت بذعر حين وجدت الأضواء بالأسفل، المقادع
والبساط الكبير الذى يبدى لون العشب.. التفت لظافر لأجده يقف بالقرب مني،

و قبل أن أقول أي شيء وجدته يضع يده اليسرى خلف رأسه يثبتها، و يده الأخرى تدلى جبيني بإباهامه، هامساً ببعض الكلمات المبهمة بالنسبة لي، و فجأة عاد إلى رشدي!

قرأت حكاية قبل النوم من الورقة..

طمأننت الفتيات على حالى باليوم التالى..

الأمير طلب عروساً..

درس الرقص شاق للغاية بسبب صدمة المدرب لاختفاء إزالين..

أصنع بنفسي ما سأرتديه بالحفل..

درس الرقص بدل درس الفروسية..

الأمير طلب ثلاثة عرائس..

لا وقت للمكتبة، فقط إنهاء الفستان..

لا أنهى طعامي..

اثنان من العرائس قد رحلتا لطابق الأمير..

تدريب مميت للرقص والتأهب للحفل..

رحيل جميع العرائس، من بينهن جلاديس، إلى طابق الأمير، ولا يتبقى سوى أنا، وإيفي، وفتاة الحكايات، وثلاث عرائس آخرىات!

شهقت بصدمة بينما وضعت يدي على قلبي وقلت:

- كيف حدث هذا! كيف مررت تلك الأيام دون أن أتذكر؟!

هـ ظافر كتفيه وقال بغموض:

- أنت التي طلبت مني أن أجعل الأيام تمر ليأتي يوم حفل الأمير.

نظرت له بغير تصديق وتذكرة إحساس الضيق بداخلي وأنا أرى أن ظافراً
يتعامل معي كالسابق، وأنا التي أضخم مشاعري وأشعر بالخرج من كوني بجانبه
طوال الوقت، فالتفت له قائلة بسأم:

- هل يمكنك أن تجعل هذه الأيام تمر سريعاً؟ أريدها أن تمر بأي حال من
الأحوال حتى أستيقظ يوم حفل الأمير بدون أي مشاكل!.

أرجعت شعري الأسود الفاحم غير الطويل بيدي للخلف وطمأننت نفسي، ثم
همست بغير صدمة:

- إدأ، كما قلت أنت ظافر، أنا مرتابعة فقط بسبب ذلك الكابوس الطويل..
فقط...

ربّت على رأسي وقال بتشجيع:
- حسناً لا داعي للتفكير بالماضي الآن، اليوم فرستك للحصول على الأمير،
اسحرية برقستك وبردائك الجديد...

التفت، أريد الوصول لصندوق ملابسي أسفل الفراش، لكن استوقفني ظافر
قائلاً يقاطع ما نويت فعله:

- والرداء بالأسفل، لقد قامت إحدى الخياطات بإنهائه بدلاً عنك نظراً
لضيق الوقت.

أومأت وذهبت للمسرح، أني الإسراع للذهاب للخياطة.. وأشعر بحماسٍ
مجاًئ لهذا اليوم!



وقف في منتصف غرفة الحياكة التي تعمل الماشطة بجزء منها والجميع ينظرون لي بانبهار، يخبروني أنتي الأجمل، وبالطبع سيدعوني الأمير لغرفته لأقضى معه سهرة عيد مولده على طريقته الخاصة!

رأيت الرداء الذي حكته بنفسي وابتسمت بفخر، فكان من قماش الشيفون الخفيف بلون العسل من الأكمام، وقماش آخر رقيق له نفس اللون على باقي الجسم والساقيين، بتطريز بسيط هادئ، وتعجبت من كوني صنعت غطاء خفيفاً للوجه من نفس خامة الشيفون، ليبرز عيني فقط، وينسدل على رقبتي بنعومة..

أعطيتني الماشطة بعض المستحضرات المحضر طبيعياً لبشرتي الحساسة - كما تعتقد - كما أعطيتني معلمة الحياكة شرائط أنيقة لشعر ليأرفعه به وقت الرقصة، وتمتننت لي حظاً موقتاً.. وبدلأ من أن أستدير وأتجه للباب ومن ثم أذهب للنهر للاستحمام، خطرت على بالي فكرة شيء سيجعلني أصرخ طاردة كل محاويف دفعة واحدة وأكتسب إحساساً مضاعفاً بالحماس والشجاعة!

تركت ردائي، شرائطي ومستحضراتي لإحدى الخادمات وطلبت منها أن تضعهم بالأسفل، واستأذنت من الماشطة أن أدخل لغرفة المرايا الصغيرة!

أدركت هي ما أرني إليه فتركتني وحدي وقالت لحارسي:

- تلك الفتاة متجمّسة للغاية اليوم!.

اقرب مني ظافر ودلفنا لغرفة بهدوء، توقفت للحظة.. أنظر إليها بألم.. كم ذكرتني بأول يوم حضرت فيه إلى هنا، حين تقصدوا جسدي بغير رحمة، لا مبالين بكرامتى! وحين دفعتني الماشطة من هنا للأسفل.. التفت لإحدى المرايا أدفعها كالباب، لتزيد انعكاسات صورتي وصورة ظافر بطريقة جنونية، ونظرت للأسفل لأرى العرائس يقمن بأخذ حمامهن، فنتهّدت وأغلقت الباب قليلاً بتردد، وسمعت صوت ظافر يشجّعني:

- انسى كل ما مررت به من هنا، واقفزي.. قفزة واحدة ستكون بداية لحياتك الجديدة، ستخرجين من هنا أميرة!.

نظرت له بتردد، ثم عضضت شفتي بغير ثقة وكدت أن أُمُر بجانبه لآخر لغرفة الماشطة مرّة أخرى حيث التماشيل الباردة بينما أقول:

- ربّما يجب على استعمال الدرج العادي فقط...

هزّ ظافر رأسه نفياً ومعنى من المرور، فنظرت له بتساؤل، لأجده ينظر لي في عيني مؤكداً:

- أنت تريدين هذا إليونورا.. اقفزي واصرخي قدر ما تريدين! لن يصل صوتك للأعلى، لن ت تعرض العرائس أبداً، وستشعررين بالmızيد من الثقة!.

تنهّدت بقلق ونظرت له قائلة:

- حسناً.. سأجرب.

فتحت الباب الزجاجي ونظرت للأسفل، لأجد أن البقعة التي أسفل الباب خالية تماماً، مما جعله وقتاً مناسباً للقفز من تلك المسافة.. أخذت نفساً عميقاً وزفرته بحماس وابتسامة، وكأنني فتاة أخرى غير التي كانت قلقة منذ ثوانٍ.. وقفزت!

صرخت بأعلى صوتي بحماس وسعادة، والهواء يداعبني من كل ناحية، لم أشعر بالخوف كالمرة الأولى التي فعلت بها هذا، لأن هذه المرة كانت بإرادتي!

رفعت يدي للأعلى سامحة لمنامي أن تطير للأعلى لاتجرد من ملابسي بحرية، ونظرت للأسفل بمرح وأغمضت عيني بعد أن أخذت نفساً عميقاً وأنا أقول:

- اليوم سأصبح أميرة!.

سقطت بالماء وغصت به، ففتحت عيني به على الفور لأراقب فقاعات المياه تتدفع بجنون من حولي، وفجأة شعرت بموجة أخرى تحركني، أحدهم قد قفز هو الآخر، وما هي إلا لحظة حتى رأيت ظافرًا يغوص إلى أعماق الماء متوجهًا إلىّي، يمد ذراعي أمامه ليلتقطني ويجذبني لخارج الماء، لأفتح عيني شاهقة أنفاسي بحماسٍ، وضحكـت!

- أجنـت؟ هل كنت تـريدين المـكـوـث بـقـيـةـ الـيـوـمـ تـحـتـ المـاءـ؟

قالـهاـ ظـافـرـ بـغـيـرـ تـصـدـيقـ بـهـ شـيـءـ مـنـ الـانـفـعـالـ،ـ فـابـتـسـمـتـ يـفـيـ وـجـهـهـ قـائـلـةـ:

- شـرـدـتـ لـبـعـضـ الـوقـتـ!ـ وـلـأـبـأـسـ أـنـ بـخـيـرـ الـآنـ!ـ

سـبـحـتـ بـعـيـداـ عـنـهـ بـعـدـ أـنـ وـجـدـتـ مـلـابـسـيـ وـأـدـوـاتـيـ وـبـدـأـتـ بـالـاسـتـحـمـامـ بـشـرـوـدـ،ـ بـيـنـمـاـ صـفـرـتـ فـتـاةـ الـحـكـاـيـاتـ وـقـالـتـ بـإـعـجـابـ:

- يـبـدـوـ أـنـ هـنـاكـ شـخـصـاـ مـاـ مـتـحـمـسـ بـعـضـ الشـيـءـ!ـ

ابـتـسـمـتـ وـأـنـ أـعـرـفـ أـنـهـ تـقـصـدـنـيـ،ـ لـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ عـبـسـتـ حـينـ تـذـكـرـتـ
كـوـاـيـسـيـ،ـ وـالـتـيـ هـيـ بـسـبـبـ قـصـتـهـاـ تـالـكـ بلاـ شـكـ!ـ وـشـرـدـتـ مـجـدـدـاـ،ـ فـجـأـةـ وـجـدـتـ
إـيـفـيـ تـرـشـنـيـ بـالـماءـ وـتـنـادـيـنـيـ:

- أـخـتـيـ الـجـمـيـلـةـ!ـ لـاـ تـنـسـيـ وـعـدـكـ لـيـ!ـ

الـتـفـتـ لـهـاـ بـيـنـمـاـ أـخـفـيـ مـاـ ظـهـرـ مـنـ جـسـدـيـ وـسـأـلـتـ مـبـتـسـمـةـ بـغـرـابـةـ:

- هـهـ؟ـ أـيـ وـعـدـ؟ـ

وـشـرـدـتـ يـفـيـ كـوـنـهـاـ تـنـادـيـنـيـ «ـأـخـتـيـ»ـ!

مـثـلـ إـيـفـيـ الـانـزـعـاجـ بـضـحـكـ كـالـيـبـ وـقـالـ يـحـدـثـنـيـ بـعـفـوـيـةـ مـنـ خـارـجـ النـهـرـ بـيـنـمـاـ
يـجـفـ رـدـاءـهـ مـنـ المـاءـ:

- وـعـدـتـهـاـ أـنـ تـصـبـحـ وـصـيـفـتـكـ!ـ حـينـ تـصـبـحـ الـأـمـيرـةـ!ـ

شعرت بأنني قلت هذا، فانطلقت أومئي بتأكيد لها مبتسمة بحماس:
- نعم بالطبع! ستكونين كذلك!.

حدّثني ظافر ليفسر ما غاب عقلي عنه:
- أنتِ من طلبت منها أن تتعامل معكِ كأختها، لأنها ذكرتكِ بأختكِ بالحياة...
عبست بتركيز وحاولت تذكر وجه المسكينة التي كانت تصرخ بذلك الكابوس...
لكنّني سمعت أصوات ضحكات متسلية، فنظرت لمصدر الصوت لأجده آتياً من
خلفي، من ثلاثة عرائس يساعدن بعضهنّ بعضًا على الاستحمام، تنطفّف واحدة
شعر الأخرى بينما الأخيرة تنطفّ ظهر من تقف بالمنتصف، فتساءلت أنا باستكثار:
- ما المضحك؟.

ضحكـت إـحداهـنـ بـغـرـورـ وـقـالتـ لـيـ:
- أـدـرـيـنـ إـلـيـونـورـاـ! لـسـتـ وـحـدـكـ الـجمـيلـةـ هـنـاـ! سـيـخـتـارـ الـأـمـيرـ أـيـ وـاحـدـةـ مـنـاـ!ـ.
رفعت حاجبي بتسـلـيـ ولوـحـتـ بيـديـ فيـ الـهـوـاءـ بلاـ مـبـالـةـ قـائـلـةـ:
- وـمـاـ النـقـطـةـ الـتـيـ تـرـيـدـيـنـ تـوـضـيـحـهاـ بـالـضـبـطـ؟ـ.

ضـحـكـتـ صـاحـبـةـ الـحـكـاـيـاتـ وـإـيـفيـ وـحـارـسـاـهـماـ،ـ وـقـالـ ظـافـرـ بـعـقـليـ لـيـهـيـ
الـحـدـيـثـ:

- تـجـاهـلـيـ..ـ وـاـسـتـرـخـيـ قـلـيـلـاـ قـبـلـ الـحـفـلـ...ـ.
هزـزـتـ رـأـسـيـ فيـ خـفـاءـ وـسـبـحـتـ بـعـيـداـ فيـ زـاوـيـةـ غـيرـ وـاضـحـةـ لـلـعـيـونـ وـصـبـبـتـ
سـائـلـ الـاسـتـحـمـامـ عـلـىـ جـسـديـ وـبـدـأـتـ بـتـدـلـيـكـ بـبـطـءـ،ـ بـيـنـمـاـ أـغـمـضـ عـيـنـيـ أحـاـوـلـ
تـهـدـئـةـ أـعـصـابـيـ..ـ.

وقفت بعرفة الماشطة مرّة أخرى، مرتدية الذي أمضيت في صُنعه
الكثير من الوقت، تضيّطه إحدى مساعدات معلمة الحياة على جسدي بينما
الماشطة بنفسها تصفّف لي شعري الأسود الفاحم، رفعته للأعلى بأحد الأشرطة
بلون رمادي، تاركة بعض الخصلات الناعمة لتسدل على وجهي بدلال، وتركته
بهيئة مررتاحه، فأخذت أنا غطاء الوجه الشفاف وارتدتنيه بنعومة.. راقت إحدى
المساعدات تصفّف شعر إيفي في جديلة تبدأ من أول رأسها حتى آخره، كما فعلن
بشعر واحدة من الفتيات، أما الفتاة ذات الحكايات، فقد تركت شعرها منسدلاً بعد
أن فردهه بالحرارة ليعطيها مظهراً جذاباً، وضعن القليل من الزينة على وجهها،
ورفضت أنا أن يتم وضع أي شيء على وجهي، وأيدّني ظافر في ذلك، لأكون بمظهرِي
الطبيعي.. فأنا أُعترف بكوني جميلة الآن، فلم أحتج إبراز جمالي بطريقة مفتعلة؟
انتهت المساعدات من إعدادنا على أكمل وجه، وقبل الرحيل نظرت لرمادي مرّة
أخيرة، وابتسمت حين رأيت في لونه الرقيق انعكاساً لللون عيني..

عبرت الجسر فوق الخندق وظافر بجانبي وأشعر برهبة لذيذة تدغدغ حواسّي
والهواء البارد يدفع عباءتي يحاول كشف ما أرتديه، لكن هيهات، بت أقرب العباءة
من جسدي كي تكون مفاجأة للأمير وحده.

أوقفتنا جليندا خلف ستارِ كبير بالباحة الخلفية للقلعة، وباتت تملي علينا
التعليمات: ممنوع الحديث أمام الأمير، التطلع بعينه يكون فقط بإذنِ منه، كما
يجب علينا تقبيل يديه بعد أي مدح يلقيه علينا، العبوس غير مسموح، فتحن هنا
لراحة الأمير، من ستؤدي رقصتها أولاً يجب عليها تقديم باقة من الورود إليه..
وكانت وروداً بيضاء رقيقة، لكنّها لم تعجبني.. لم أشعر بها بروح الورود التي أنا
معتادة عليها..

قام المدرب الذي ارتدى ملابس رسمية لا تليق به بالوقوف أمامنا واختار من
ستؤدي الرقصة الأولى، وكانت الفتاة ذات الحكايات، تليها العرائس الآخريات ثم
إيفي، وأنا كنت الأخيرة.. اقترب مني وهمس بأذني بحذر خوفاً من نظرات ظافر

له:

- أنتِ الأفضل لذا تركتك للنهاية، كالحلوى!.

أمسك ظافر كتف مدربِي وهمس بأذنه بطريقة عدائِي، يملي عليه ما يشعر به تجاهه:

- أردت أن تكون مدربتها امرأة تجيد الرقص ببراعة، لكنها أنتِ ذا، فقط جميع توقعاتنا وأثبتت أنك مدرب بارع وخبير!.

ضحك الحرس وكتمت أنا ضحكتي، فاحمر وجه المدرب وأرجع شعره للخلف بخجل قائلًا:

- أشكرك.. كلماتك تلك أسعدتني حقًا.

وكاد أن يتفوه بال المزيد إلا أن ظافرًا زفر بسبة وانصرف، لينفجر الحرس ضاحكين بشدة، وابتعدت أنا أخلي مسؤوليتي عن ما قال، واحمر وجه المدرب، فصاحت جليندا بهمس:

- لا ثرثرة، لا ضحك، فقط تركيز!.

ابتسمت لإيفي ولوحت لها فابتسمت بحماس وهمست بـ:
- تبدين رائعة حقًا.

ابتسمت لمحاملتها ورأيت التأكيد بعين كاليب، فابتسمت له بامتنان، ونظرت لظافر، كم أردت مشاركته لحظتي المهمة تلك، لكنني لم أجده! بحثت عنه بعيني وسألت أحد الحرس فأجابني بأنه لا يعرف، وتعجب كاليب من فعلته وهمس لإيفي وسمعته أنا:

- لم يجب عليه الرحيل هكذا! حتىًّا ستشعر بالتوتر!.

ابتسمت بارتعاش وحاولت تجاهل ما قال، إلا أنتِ فجأة سمعت أصوات ألعاب نارية بالسماء، وأبواق عالية، وأحدhem ينادي بعزمته صوته:

- سموّ الأمير غيث.

وسمعت أصواتاً بالخارج، ووقع أقدام وصهيلاً لفرس، حاولت التلاصص، فتحرّكت لزاوية ما ونظرت من خلالها فوجدت جواداً داكن اللون بسرج أنيق للغاية، يرتدي ما يشبه عباءة ملكية فخمة، يمسك بلجامه فارسٌ مغوارٌ بينما جلس عليه بزهوٍ ليكون أعلى من الجميع؛ هو سموّ الأمير! رفعت رأسي لذلك التاج العظيم وابتسمت بترقب، وقبل أن أحاول لمح أي من ملامح أميري، جذبني صاحبة الحكايات بحذر وهمست بـ:

- ستوبخك جليندا إن رأتك تلاصصين هكذا! عودي لموقعك!.

عدت بسرعة خلفها ووقفت حيث كنت أقف منذ قليل، لأجد أن جليندا قد أتت لنا بمقاعد لنجلس عليها، فاسترحت وعيني تدور في كل مكان، أسمع موسيقى الاحتفال وصوت الحضور المتدخل، وأتساءل بغرابة.. أين ذهب ظافر؟!

نادت جليندا على فتاة الحكايات، فوقفت ممسكة بباقاة الورود تبتسم بحماس، فشجعتها بابتسامتي ولمعة عيني وشجّعها حارسها بعد أن ضبط لها هيئة شعرها وربّت على كتفها، فانطلقت من المشى الخلفي حتى ظهرت أمام الحضور، تخيلتها تمشي بخطواتٍ متمهلة على البساط الناعم حافية القدمين، ممسكة بباقاة الورود الكبيرة، وبينما تخفض بصرها للأسفل قدر المستطاع، تتقدّم نحو الأمير بحذر، وبدون أي كلمة تتحنى لتجلس على ركبتيها وترفع باقة الورود له ببطء، فيمسكها مبتسماً ابتسامة غامضة جدّاً.. ترى كيف يبدو الآن؟ كم أريد النظر له! لكن..

القواعد تمنعنا!

سمعت صوت الحضور يصمت شيئاً فشيئاً مع اندلاع الموسيقى المبهجة، وبالطبع قد بدأت فتاة الحكايات تؤدي رقصتها المليئة بالحركة كبداية جيدة للحفل..

- ستبدو قطعة الزينة هذه رائعة عليك! لم لا تجربينها؟.

أفقت من شرودي على صوت تلك العروس التي تُهدي أخرى قطعة من الحلي،
توضع على الرقبة ويتدلى منها العديد من الأطراف الصغيرة الرفيعة، فأخذتها
العروس بابتسمة واحتضنت الأخرى قائلة:

– حبيبتي أشكرك! كم هذا الطيفُ منكِ!.

ساعدتها على ارتدائها بعد أن رفعت شعرها، وتمتنّت لها حظاً جيّداً! وفجأة،
و قبل أن تهداً الموسيقى وقفت الفتاة لتسعد للذهاب للحضور من وزراء وضيوف
شرف من ممالك أخرى وعلى رأسهم الأمير.. وفجأة تأوهت بضعف واضعة يدها
على عنقها بغرابة! شهق حارسها بغيظ:

– مكيدة!.

خلع عنها الطوق بسرعة وقدفه بعيداً، لأنّه بينما يطير بالقرب مني، يقطر
منه قطرات من دمائها!

حضرت إلينا الفتاة ذات الحكايات وقبل أن تناجي على الفتاة الأخرى توقفت
أمام مظهرها المؤلم، لقد كانت جاثية أرضاً تزف من رقبتها على ملابسها بغزاره
ولا تستطيع التنفس بطبيعة، انحنى حارسها ليحملها، وصاحت جليندا بذعر:

– ماذا حدث لها! ما الذي كانت ترتديه!.

انسحب حارس الفتاة ذات الهدية الشميّة وجذب فتاته، ودفعها ببطء للخارج،
لتؤدي هي الرقصة وحدها، بدلاً من أن تكون الرقصة مزدوجة مع تلك الفتاة
المصابة!

نظر الحارس القلق للحارس الآخر المتظاهر بالبراءة وقال بغيظ:

– ماذا فعلتم بها!.

كنا نراقب بدهشة، إيفي تخفي عينيها من فظاعة المنظر، الفتاة ذات الحكايات
قد قطعت جزءاً من ردائها الخفيف لتصنع به ضمادة للمسكينة، الفتاة الثالثة

تجشو بجانبها أرضاً تمسح على شعرها، وأنا أراقب.. فقط أراقب تلك المؤامرة..
المؤامرة الثانية؟ والتي بالطبع ستُتّخذ جليندا ضدها إجراءً قوياً بعد الحفل!

حمل الحارس مسكينته للحكمة، وكادت أن تذهب معها صديقتها إلا أن
جليندا منعتها بحزم، وطلبت منها أن تؤدي رقصتها المنفردة أولاً ثم تذهب كما
تشاء، فامسكت الفتاة بعصاها ذات الشرائط وجلست على مقعدها بهدوءٍ غامضٍ!
أخذت تلك الرقصة وقتاً أكثر من ما ينبغي، وبينما أنا شاردة في صوت
الحضور المنبهرين خلف صوت الموسيقى الصاخبة، وجدنا خادمة تقترب منّا من
الباب الخلفي، تقدم لنا مشروباً منعشَا بينما تهمس:

- أوصت به الحكمة لزيادة مناعتك ضد أي ميكروب بالجُوّ.
ضحك حارس إيفي بسخرية قائلاً:

- ميكروب بالجُوّ أم بقطعة حُلي على رقبة واحدة منهنّ؟!
أخذنا الكؤوس بأيادٍ مرتعشة، وتهجدت بداخلي قائلة:
- ظافر.. أحتاجك بجانبي الآن، فأنا لا أشعر بالارتياح!.

انتهى أمر السوائل بالكؤوس مسكوناً على العشب أسفلنا؛ لم تتوافق أيّ منّا على
شرب أي شيء بعد ما حدث لتلك الفتاة، فمن السهل جداً أن يحتوي هذا المشروب
على شيء غير آمن.. سُمّ مثلاً! فال FAGA عادي تنتشر هنا بطريقة وفيرة بسبب كوننا في
غابة، من السهل أن يتم استخلاص سمّها لبدء مؤامرة رخيصة للغاية لا تكلّف غير
أرواح البعض!

كنت أشعر بالجوع الشديد، لكنّني تحاملت على نفسي، فمنعنا المدرب من
تناول الإفطار قبل الحفلة حتى لا نخمل أو تتعب معدتنا، فتحمّلت..

حضرت الفتاة الغادرة بعد أن انتهت رقصتها، فهوت عليها الفتاة ذات
الأشرطة بالصفعات الخادشة على وجهها فصرخت الأخرى بألم وباتت تسبّ في

الأخرى، وكأنها لم تكن صديقتها يوماً! جليندا متواترة للغاية، فطلب المدرب من إيفي أن تؤدي الرقصة قبل تلك الفتاة الثائرة حتى يتمكنوا من تخلص يدها من وجه الأخرى، لكن، لم يدركوا أنها بصفتها تلك تلقت عقاباً عسيراً من الحارس الخبيث ببعض الدبابيس والإبر المتوفرة بغرفة الخياطة! فقط نثرها بخفة تحت أقدامها الحافية بينما تتشاجر مع فتاته، وحُلّت المشكلة! ولن تستطع الوقوف على قدمها مرة أخرى إلا بعد علاجٍ مكثّفٍ!

ها هي فتاة أخرى قد رحلت، وهذا يعني أنه لم يتبقّ غيري.. ورغم اندلاع مؤامرة ثلاثة إضافية بخسّة، لم يظهر ظافر بعد!

تحرّكت للحضور بخطى متزنة، لم أرفع عيني للأعلى سوى حين أخذت أولى خطواتي فقط، وهالني ما رأيت!

العديد من الحضور بملابسهم الفخمة الغالية، نساء ورجال في أبهى صورهم، من البدلات الراقية، الفرو والساعات الغالية.. يظهر عليهم الوقار والغرور، يذكرونني بتلك اللوحات والصور على الجدار بالردهة، كما تظهر رائحة عطورهم الكثيفة بالجوّ..

وأخيراً لاحت الأمير! جالساً على عرشه الأحمر المرصّع بالذهب كلون تاجه العظيم، عرشه في مستوى أعلى من الحضور لكن لم يمنعه هذا من مبادلتهم حديثاً جانبياً ظهرت فيها ضحكته الساحرة لي.. كم أسرتني!

حاولت التركيز على الوقوف بهدوء، لكن مشهد عينيه وهما مبتسدين هكذا بظهور تجاعيد خفيفة حولهما أثار بقلبي تلك الرهبة مجدداً وارتعشت ساقياي بوهـنـ، شـرـدتـ بـشـعـرـهـ الدـاـكـنـ كـلـوـنـ جـوـادـهـ، وـفيـ بـشـرـتـهـ الـخـمـرـيـةـ الجـذـابـةـ الـمـلـيـئـةـ بالـحـيـاـةـ، وـالـتـيـ أـشـعـرـتـيـ بـكـوـنـيـ شـاحـبـةـ لـلـغـاـيـةـ مـقـارـنـةـ بـهـ.. لمـ أـسـتـطـعـ النـظـرـ بـعـيـنـيـهـ أـكـثـرـ كـيـ لـاـ تـقـابـلـاـ، وـتـنـهـدـتـ بـارـتـعـاشـ، وـقـلـتـ أـنـادـيـهـ بـدـاخـلـيـ معـ بـدـاـيـةـ الـلـحنـ الـهـادـئـ:

- سـمـوـ الـأـمـيـرـ.. هـاـ قـدـ بـدـأـتـ الـمـوـسـيـقـىـ، مـنـ فـضـلـكـ اـنـظـرـ إـلـيـهـ!

رفعت ذراعي تزامناً مع بدء أول آلة بالعزف، وفعلت المثل بذراعي الأخرى مع صوت الآلة الثانية، ومع دمجهما معاً قمت بتحريك يديّ مع جذعي قليلاً بتمايل ناعم، ونسيت أي شيء بهذا العالم أو بغيره، سوى ضحكة الأمير.. وباتت هي هيدي.. سأصل لك سيدتي.. وستكون لي وحدياليوم!

انتهت رقصتي بسلام، وحين خفت الموسيقى عادت قدماي ليشعرا بملمس الأرض بعد أن كنت عالياً بالسحاب، صفق لي الجميع فتجرأت لرفع عيني قليلاً وأدهشتني ما رأيت وجعل قلبي يخفق بقوّة! الأمير يقف يصفق بيضاء، حتى بعد أن صمتت أصوات التصفيق من حوله! ترى هل كنت بالمستوى المطلوب لإبهاره؟ وبدورها محترفة برقصتي؟

رؤيّة الإعجاب باديّا عليه أكدت شعوري وزادت ابتسامتي بينما التقط أنفاسي برقّة.. وفجأة سمعت صوت وقع أقدام خفيفة، وشهقات الحضور!

أخفضت رأسي بارتعاش وحاولت عيني جذب أي مشهد، إلا أنّي سمعت أنفاساً رجولية منتظمة فوق رأسي، فكتمت شهقتي وتساءلت بداخلني:
- هل.. هو سموّ الأمير؟

و قبل أن أخمن أكثر، شعرت بأنامله الدافئة تداعب ذقني الرقيقة، ترفع وجهي إليه، حتى تقابلت أعيننا!

كم هو وسيم! شعرت براحة غريبة بمجرد النظر إليه، وضعت في عينيه الزرقاوين بلون المحيط.. شعرت بتجمّع الدموع بعيني، تلك الدموع التي تعبّر عن ما عجزت عنه الكلمات.. فما هو أمامي الآن هو الأمير ذاته، يبتسم لي بشفتيه الناعمتين لظهور تلك التجاعيد التي تؤكّد صدق ابتسامته حول عينيه.. لم أستطع أن أفكر في أي شيء سوى أنه أجمل من رأي عيني بسن السادسة والعشرين! لا.. بل بأي عمر كان!

أزال غطاء وجهي الخفيف.. وتركه ينسدل على رقبتي كالعقد..

- أنتِ مميّزة.. وفريدة.

قالها الأمير فأسبلت جفوني عنه، خجلاً من عينيه اللتين أغرقاني بمياههما الجارية، وقبل أن أفكِر بما قال وجدته يخدرني بكلماته العذبة:

- لم أرَ حياتي شيئاً أكثر رقةً منكِ!.

أيراني أكثر رقةً من إيفي؟ كم هذا مؤثر بالنسبة لي! تذكّرت جليندا حين أخبرتنا بتقبيل يده بعد أي مجاملة يقول، انحنىت أمامه على ركبتيّ، أمسكت بيده، وقبل أن أتمهما سألني بعذوبة صوته الأخش:

- ما اسمك؟

فرددت أنا بينما أحاوِل منع صوتي من الاختناق بخجلي:

- إليونورا.. هو اسمي.

وبحدِر شديد أخذت أنحنى على كفه التي أمسكتها بين أنامل يدي برقة، وقبل أن أطبع بشفاهي قبلة صغيرة تحمل كل ما بي من مشاعر متخبطه، سمعت صوت البوّق ينفجر ليشق الصمت بفظاعة، فرفع الأمير رأسه للأعلى بتساؤل، لنجد الرجل ذا الصوت العظيم يقول بتحفظ:

- يؤسفني إخباركم بأن حريقاً شديداً قد شبّ بالمطبخ الكبير.. وأعتذر منكم، يجب الابتعاد عن القلعة قدر الإمكان!.

رفعت رأسي ببطء للقلعة، بينما ما زلت جاثية على ركبتيّ، لأجد الدخان يتطاير بكثرة من نوافذ القلعة وفتحاتها بأحد الطوابق لتعشى عيني عن القمر الذي شهد على أروع لحظاتي بهذا العالم، بدأت أسمع صوت صرخات بعيدة تعبّر عن الذعر والفزع.. هناك خادمات بالداخل! أيضاً ميلدا كبيرة الطهاة! ترى هل الجميع بخير؟

جذب الأمير يده من بين أنامله ببطء حين اقترب منه حارساه الشخصيّان
يقولان بتحفّظ:

- من أجل سلامتك سيدّي، ينبغي لك الذهاب قرب النهر.

وتتابع أحدهما وحده:

- القارب الملكي مجّهز لاستكمال الاحتفال واستقبال سيادتكم.

نظر لي الأمير بخيبة أمل، وقال بهمّس:

- يا للخسارة!.

وعدا بعيداً عنِّي.. برفقة حارسيه، فتطايرت عباءته من أثر الهواء المحمّل
بالدخان لتصفعني على وجهي الذي أخضته بأطرافها المرصّعة، حتى وجدت
نفسِي ساجدة على الأرض.. أبكي بخيبة أمل!

ما هذا الحظ؟ كنت قريبة للغاية وقاربت على الوصول له! ماذا يظنّني الآن يا
ترى؟ فأل سيئ؟ أم جالية للمصائب؟

انهمرت دموعي بغزارة وبات صوتي واضحًا بالبكاء، حتى إن أصوات الجميع
قد خفت عنِّي وهم يركضون من القلعة وإليها ينادون بعضهم بعضاً بذعر،
حقيقة مرّت قبل أن أسمع الحرس ينادون على الجميع.. سواي!

وبعد وقت لم أدركه قط، شعرت بشيء ناعم يوضع على فرفة رأسي بتساؤل..
وجدته ظافرًا؛ قد أحضر عباءتي ليضعها على ظهري، وفي يده تقّاحه حمراء شهية،
أخذ يدي فتحاملت عليه لأنهض ببطء وخذلان وهمست بغير تصديق:

- أين كنت؟

ضحك بتسلي وقدف التقّاحه عاليًا ثم التقطها بنفس اليدين قائلاً:

- كنت بالمطبخ حتى الدقيقة الأخيرة، أردت جلب شيء لكِ لتأكليه!.

واستطرد:

- بالتأكيد تشعرين بالجوع بعد كل هذا المجهود.. تقضي!.

وناولني التفاح، فأخذتها بين دهشتي، وقلت بغرابة وقلق:

- لكن هناك حريقاً بالمطبخ! كيف كنت هناك!.

ربت على يدي قائلاً:

- تركتهم يتولون أمره، فالحرائق تحدث بصورة عادية، لا داعي للقلق!.

ضعفت قبضتي حول التفاح وصحت به بغير تصديق:

- لقد تعرّضت فتاتان للكائد ومؤامرات، تأذيت نفسياً ورغم ذلك أبدعت برقضتي ونظر الأمير بعيني... .

صمتت ألتقط أنفاسي ثم استطردت بقهر:

- ثم تركني ورحل لأنأذى مرة أخرى.. ولم تكن هنا!.

صمت أفكّر ثم هطلت دموعي مرّة أخرى وتساءلت بشك:

- أين كنت حينما أذيت رقضتي ظافر؟.

ضحك ظافر ليستفزني فصرخت به:

- هل كنت أنت مسبب الحريق؟.

هزّ كتفيه وفرد ذراعيه بلا مبالاة وانصرف، فلحقت به بين المكان الذي خلا تماماً من الناس، لأسمعه يقول بهدوء:

- شاهدت الجزء الأول من رقضتك وأعجبت بها للغاية.. لكن كان على الانصراف لتحضير مؤامرتى الثانية!.

وضعت يدي على قلبي - قبل أن يهوي - بغير تصديق وأمسكت ذراعه أديره
إليّ، وصحت فيه بمرارة:

- بفعلتك تلك أضعت علىّ فرصتي مع الأمير! ألم تكفل مؤامرة إزالين!.
ثبتْ كتفيّ بيديه وانحنى ليهمس بالقرب من أذني بحرارة:

- لم أكتفِ بعد...

واستطرد لدهشتي:

- أنتِ مؤامرتِي التالية إليونورا!

اتسعت عيناي بصدمة وشعرت بقلبي يهوي بقدمي.. ماذا يعني بذلك؟ وبينما أنا أرفع عينيّ إليه: أحاوِل رؤية عينيه الغامضتين، رفع هو طرف عباءته الأيمن بطول ذراعه ليخفينا بها عن المارة، ثم انحنى إليّ، وفي حركة خاطفة كان قد أنزل قناع وجهه، واقتصر شفتيّ.. ليذيهما بقبلة خدّرت حواسّي..

وأسقطت التفّاحة من يدي!



{١٩}

الحكاية الأخيرة لها =

اتسعت عيناي بصدمة وشعرت بقلبي يهوي بقدمي.. ماذا يعني بذلك؟ وبينما أنا أرفع عيني إليه؛ أحاوِل رؤية عينيه الغامضتين، رفع هو طرف عباءته اليمنى بذراعه ليخفينا بها عن المارة، ثم انحنى إلي، وفي حركة خاطفة كان قد أنزل قناع وجهه، واقتصر شفتي.. ليذيهما بقبلة خدرت حواسِي..

وأسقطت التفاحة من يدي!

أفيقي! إنه يستغلّ مشاعرك تجاهه! يستخفّ بك.. يراك رخيصة بلا قلب!
ارتعد قلبي وهوت دمعة من عيني، جسدي يأبى الحراك، عقلي يصرخ في،
يؤثّبني بشدة وقلبي يرجوني بالبقاء.. لكن لا!

دفعت ظافرًا بكل ما بي من قوّة، قطعت ذلك الاتصال الروحي بيننا بقسوة،
ورفعت يدي أريد صفعه على وجهه الذي سرعان ما أخفاه بمهارة، لكنه فاجأني
بسرعة يدي بثبيت معصمي بين وجهينا.. لهشت أنا أنفاسي، أكتم شهقاتي المريبة،
وهو يلقطن أنفاسه ببرود يؤكّد ظنونِي.. ولم أجد لي قدرة على فعل أي شيء،
فصرخت به وجاء صوتي هزيلاً واهناً:

- إياك أن تستغلّ ضعفي.. أكرهك ظافر!.

تحرّكت ببطء للخلف وقد بدأت أشم الدخان الكريه، وزدت حركتي شيئاً
شيئاً، تركته خلفي وابتعدت مسرعة لداخل القلعة.. والغريب، أن شيئاً بداخلِي
شعر بالانكسار.. حين وقف ظافر مكانه، ولم يتبعني!

بغرفة الحكمة، على فراش إزالين تحديداً، نظرت إزالين حولها بقلق، بينما رأت نظرات الشرار تتنقل بين ثلاثة فتيات، يرفضن تناول الطعام أو الدواء رغم حالي الصحّيّة المتدحّرة.. واحدة منها رقتها مضمّدة، والثانية قدمها مضمّدة والثالثة تحمل وجهها العديد من الكدمات..

- طراد.. أشعر بالقلق من مظهرهنّ...

نظر طراد لإزالين المرتاحة على الفراش بوضع الجلوس، فنهض على الفور وأغلق ستار فراشها بالكامل، وقرب مقعده من فراشها وهمس:

- هل هذا أفضل؟.

ضحكـت بخفـوتـ ثم ابـسمـتـ.. قـابـتـسـمـ وـتـنـاـوـلـ بـيـدـهـ صـيـنـيـةـ إـفـطـارـهـاـ،ـ وـقـالـ:

- هيـاـ تـنـاـوـلـيـ الطـعـامـ لـتـنـعـلـيـ سـرـيـعاـ...

تحـوـلـتـ ابـسـامـهـاـ لـعـبـوـسـ شـارـدـ،ـ وـسـرـعـانـ ماـ قـالـتـ بـهـمـسـ:

- سـمعـتـ أـنـ وـاحـدـةـ مـنـ الـفـتـيـاتـ قـدـ وـضـعـتـ السـمـ لـإـحـدـاهـنـ..ـ لـنـ أـنـتـاـوـلـ

الـطـعـامـ..ـ لـأـرـيدـ أـنـ يـتـوـقـفـ قـلـبـيـ قـبـلـ أـنـ يـحـدـثـ مـاـ أـرـيدـ...

تـهـدـ طـرادـ وـأـخـرـجـ مـنـ جـيـبـ رـدـائـهـ شـيـئـاـ مـاـ،ـ قـتـيـنـةـ رـذـاذـ شـفـافـةـ اللـونـ،ـ تـظـهـرـ

الـسـائـلـ الشـفـافـ بـدـاخـلـهـ فـبـدـاـ كـلـمـاءـ يـقـيـنـهـ الـخـفـيـفـةـ،ـ رـشـ مـنـهـ الـقـلـيلـ عـلـىـ

الـطـعـامـ بـحـرـصـ وـتـرـكـيـزـ ثـمـ قـالـ بـصـدـقـ:

- لـمـ يـتـغـيـرـ لـونـ الطـعـامـ أـوـ شـكـلـهـ إـزالـينـ..ـ إـذـاـ هـوـ طـبـيـعـيـ وـلـيـسـ مـسـمـوـمـاـ!

وـأـضـافـ وـهـوـ يـشـيـحـ بـبـصـرـهـ بـعـيـدـاـ:

- لـنـ أـسـمـحـ أـنـ يـفـعـلـوـاـ بـكـ هـذـاـ أـبـدـاـ طـلـماـ أـنـتـفـسـ بـهـذـاـ عـالـمـ...

ابـسـمـتـ إـيـفـيـ بـأـلـمـ وـهـمـسـتـ بـيـنـمـاـ تـدـفـعـ الـطـعـامـ بـيـدـهـاـ:

- لـكـ..ـ أـنـاـ فـقـطـ لـأـرـيدـ...

عاود حارسها الجديد النظر إليها بقلق، وتساءل:

- ما بكِ؟.

أخفضت رأسها كي لا يرى عينيها النديّتين وقالت بقوّة، تخفي مشاعرها خلفها:

- اشتقت لصديقتى بالطابق ليس أكثر...

ابتسم ورفع ذقنتها بأنامله لتنظر إليه، واكتشف عينيها الدامعتين، فمسحهما بإبهاميه وهمس:

- لا تخفي ما تشعرين به إزالين.. أراه بعينيكِ!.

ارتعشت شفتي إزالين قبل أن تقدر السيطرة على دموعها، لتسقط وتلامس يد طراد التي تلامس ذقنتها بخفّة.. وهمست بصوتٍ غير مسموع، لكنه استطاع تميّزه بكل سهولة..

- اشتقت إليها.. اشتقت لأمي!.

- بما أنها الليلة الأخيرة لي هنا، سأخبركن بحكاية.. إحدى الحكايات المرتبطة بالحب.. والخذلان...

دقّ قلبي بعنفٍ لآخر كلمتين، ولا إرادياً تذكّرت قبلة ظافر، والذي لم يصعد خلفي بعد أن فررت من أمامه.. لمعت عيني وحاولت إخفاء تخبيط مشاعري فقلت مخاطبة الفتاة:

- قطعاً لن تكون الليلة الأخيرة.. فهناك فتاة عادت من طابق الأمير من قبل!.

قلتها لأصرف ذهني عن ما أفكّر به، وأخذتني خلایا لتلك الأميرة التي عادت.. لتبكي بحسرة ومرار، والتي عذّبني صوتها وأرقتني لليالٍ طويلة..

- وهل من عادت.. عادت بالفعل؟.

قالتها عروس الحكايات بابتسامة أليمة ذات مغزى.. فهو قلبي بقدمي وابتلعت غصّة في حلقي، وشدّت على يد إيفي أربّت عليها.. أتذكّر حينما قالت: - حتماً يختار الفتيات الأقل جمالاً فالأجمل.. ليترك أكثرنا جمالاً للنهاية!.

وعلّقت من ستكون التالية.. هل الأمر سيئ لهذه الدرجة؟!

- إذًا.. حكايتها الأخيرة بهذا الطابق.. عن فتاة جميلة.. ذلت عينها بسبب دموع الدهر والضعف يومًا حتى توقف قلبها...

اعتدلت في جلستها واحتضنت إحدى الوسادات الأرضية، وقالت بصوت دافئ، لم أعتده من نبرتها المازحة دومًا:

- يحكى أن كانت هناك امرأة.. لم ير الكون في رقتها وجمالها قط، فكان الموج بعينيها الزرقاء يذيب قلوب الرجال أجمع، لكنّها لم تختر إلا واحداً فقط، لتهب جمالها.. وقعت بغرامه وأدّابها عشقاً، كلاًّ عشقهما بالزواج، لتصبح زوجة أصغر وزير شاب بـمملكة الغرب...

وفي يوم من الأيام، حضر جميع الأباء من جميع أنحاء العالم الآخر لمناسبة مهمة تعقد بـمملكة الغرب، وتسمّر الوزراء، وزوجاتهنّ معاً بعد أن ناقشوا عدّة أمور تخصّ أمن المملكة وسلامتها.. وعلى رأس المدعّوين كان أمير مملكة الشمال، المعروفة بسلطتها ونفوذها بين المالك والملكية، يجلس بفخر، يتبع إحدى الجالسات بعينيه الزرقاء كعينيها.. يراقب الشقراء الجميلة، ويطلق العنان لخياله ل يجعلها بطلة أفكاره الهاوجاء وتمتّ وقرّ أن تكون له.. وقد كان!

تقدّم بخطوة لم يندم عليها إلاّ وزير، تمت إزالتها من الحكم ومن العالم أجمع في غمضة عين، بسبب رفض حبيبته الجميلة تركه من أجل أمير الشمال، وبعد أيام، رُفّقت الشقراء الحزينة - وقد انطفأت لمعة عينيها - للأمير، بصفتها الأميرة المنشودة للقلعة البيضاء.. ذات البرج الواحد العالى..

حاولت أن تديم إخلاصها لزوجها الوزير المقتول غدرًا، وعاش قلبها أرمل رغم وجودها تحت سقف القلعة البيضاء على فراش الأمير. جفت دموعها من كثرة البكاء، أصبحت بشرتها شاحبة كالثلج، شعرها انطفأ وهيجه الذهبي وغابت عن الوعي أكثر من مرّة وحدها.. ودون علم أحد، وحين شعر الأمير بهذا، استدعاي الحكيم فوراً..

لم يكن خفيّاً على سحر الطّب وغير الطّب أن يكتشفوا الخبر السعيد، خبر حمل الأميرة بوليّ العهد، لكن ما كان خفيّاً، هو ما أدركته الأم بمجرّد أن وضعت مولودها، طفلتها ذات السبعة أشهر.. لم تكن تلك طفلة الأمير.. بل هي ابنتها الوحيدة من الوزير!

كتمت الأم الخبر وأحبت ابنتها التي تشبهها كثيراً بلون شعرها الأصفر المنطفي، في طباعها وحركاتها ووهبتها حياتها بعد أن كانت زاهدة بها والفضل للمغورو!

أحب المغورو فتاته وطفلته ودلّها لعامين، ثم بدأ بتجاهلها وقتها لانشغاله بأمور المملكة، حتى جاء خبر سعيد آخر.. تمنى وقتها أن يكون المولود ذكرًا فتياً قوياً، ليتولّ منصبه الشاهق من بعده..

توالت الأيام، ووضعت الشقراء ما كان مخفياً عن العيان لتسعة أشهر، ولدين جميلين، بنفس لون عينيها، وشعر والدهما الداكن، والذي منذ ذلك اليوم أطلق على نفسه لقب الملك، لتكون المرأة الجميلة الشقراء ملكة، والصغريرة أميرة وأخت لأميرين!

مهلاً..

أميرين؟

كيف سيكون الوضع؟ من سيتولّ أمر الحكم؟ من ستكون القلعة البيضاء بمملكة الشمال بعد عمر طوبل؟ هذا ما ظلّ يسأله الملك لنفسه طوال خمسة أعوام، راقب فيهم أطفاله.

دوماً ما كان يرى صورة مصغرّة من زوجته الحزينة بابنته، والتي أسمّاها بأخر ثلاثة حروف من اسم الأم، كما رأى فارقاً كبيراً بشخصيّة ولديه، مما أتى له بفكرة.. فكرة استدعى من أجل العمل بها الحكيم ذا السحر العظيم، ليحضر ويتمثل أمامه..

حضر الساحر المعالج الحكيم، وسمع لأمر الملك وببيده، التي قد بدأت تظهر عليها بعض علامات العمر، كشف على قلب الأميرين، فاتضح أن أحدهما قاسي القلب، قوي وجريء، والأخر طيب، مسامِل ذو قلب حنون؛ تماماً مثل والدته و.. أخيه الأميرة.. فابتسم الملك ابتسامة خفية، وعزم على أن يعجل من قرار تدريب ولِي العهد، والذي تم اختباره سرّاً..

انعزل الملك عن أطفاله، إلاّ عن ولِي عهده الصغير المندفع، فكان يترك زوجته ويهجرها هي وطفليه الآخرين؛ الصغيرة وأخاها البريء، فكانا يلهوان بالغابة، مع صديقهما ابن الساحر الحكيم، والذي كان أكبر منهما بعدها أعوام فقط.

حرص على أن يقضي معظم وقته في تدريب ابنه على الصيد، ومراقبة دروسه للغات والعلوم، التحدّث معه وأيضاً أخذه معه لتنفيذ بعض الأحكام الخاصة.. كتعذيب حارس مذنب، أو إقصاء إحدى العرائس!

شبّ الطفل، سنتان كاملتان، ظهر فيهما لسانه الطليق، أصبح كلامه منمقًا أكثر من حديث أخيه، لا ترتجف يده بسذاجة الطفولة، بل كان بارعًا بإمساك القوس والسيف، السيوف والخناجر، وأيضاً استخدام السوط للجلد والتعذيب!

سأم الملك من تأنيب الملكة له، تتهمنه بعدم المساواة بين ولية، وإهماله لابنته حتى باتت منعزلة، لا تتكلّم إلا معها ومع ذلك الشاب ابن الساحر، فاضطرّ أن يصارحها بنوایاه.. والتي قد تطوّرت كثيراً، من تسلیم السلطة لواحد من أبنائه فقط.. بما يقتضي عليه إبقاء روح أحدهما فقط دون الآخرين

أراد الملك أن يتم إقصاء ولده طيب الأصل والضعف -من وجهه نظره- من العالم، بانتهاز فرصة سذاجته وصغر سنّة وعدم تعلّقه به..

بكت الملكة كثيراً يومها، حتى جاء موعد نوم الأطفال، وطلبت منها طفلتها أن تغنى لها أغنتها المفضلة، والتي كانت سرّاً بينهما، فابتسمت الأم وقبل أن تأخذها للنوم، لاحظت أخاها ينظر لها بحنانٍ وبيتسّم.. بينما يمسح دموع عينيها بكفيه الصغيرتين! فكتمت شهقتها ولوّعه بكتائها، وقررت أن تغنى لها ليناماً، وضعتهما كلّ في فراشه الصغير الملكي، وغنت بنبرة صوتٍ لم يسمعها منها من قبل، وقد كانت السبب بثبات كلمات أغنتها الرقيقة بعقليهما.. وقلبيهما أيضاً..

انتهت الأغنية وانسحبت الأم لغرفتها، وقررت أن تقف أمام الملك العيني وتعانده، ولم تدر أنها بمجرد خروجها من الغرفة، دخل أحد الحرس ليكمّم فم ولدتها الصغير، ليأخذه عنوة لتنفيذ الأمر الملكي!

- أرجوك! لا تفعل هذا به! مادا فعل قلبه المسكين ليحرم من دقاته؟.

قالتها بعد شجار دام طويلاً، انتهت فيه جالسة أرضاً بوهـن بعد أن تلقت صفعـة قوية على وجهها الشاحـب الحـزـين، ذـي العـينـين الزـرـقاـوـينـ التـائـرـتـينـ، كـالـحـيـطـ وـقـتـ الأـعـاصـيرـ، وـلـمـ يـكـنـ لـلـمـلـكـ إـلـاـ أـنـ يـزـجـرـهاـ بـالـقـوـةـ:

- قـرـارـاتـيـ الـمـلـكـيـةـ قـاـبـلـةـ لـلـتـفـيـذـ فـقـطـ لـاـ النـقـاشـ!

صرخت الأميرة بجزع حين سحر عينيها ليريها أين يأخذون ابنتها في تلك اللحظة، فقد كان واهـنـاـ فـاـقـدـاـ لـلـوـعـيـ، مـحـمـوـلاـ بـوـحـشـيـةـ وـإـهـمـاـ، يـضـعـونـهـ دـاـخـلـ إـحـدـيـ الـأـشـوـلـةـ قـاتـمـةـ الـلـوـنـ قـذـرـةـ الـرـائـحـةـ، لـيـرـمـوـهـ بـعـيـدـاـ!

تخيلت ما سيحدث ودموعها تنهمر بفـزـارـةـ وـيـدـهـاـ عـلـىـ قـلـبـهـاـ الـذـيـ بدـأـ يـدـقـ بـثـقـلـ وضعـفـ.. سـيـلـقـونـهـ بـالـنـهـرـ! سـيـظـلـ يـحـاـوـلـ أـخـذـ أـنـفـاسـهـ وـطـلـبـ النـجـدـ بـبـرـاءـ طـفـولـيـةـ لكنـ ذـلـكـ الـوـزـنـ الـذـيـ أـرـفـقـوـهـ بـالـشـوـالـ لـنـ يـجـعـلـهـ يـتـنـفـسـ الـهـوـاءـ أـبـداـ.. سـيـغـرـقـ.. وـيـغـوـصـ حـتـىـ قـاعـ النـهـرـ.. وـوـسـتـكـوـنـ آخـرـ أـنـفـاسـهـ هـنـاكـ بـالـأـسـفـلـ.. وـحـدـهـ حـيـثـ الـظـلـامـ وـالـبـرـودـةـ.. حـتـىـ يـتـوـقـفـ قـلـبـهـ الـبـرـيءـ عـنـ النـبـضـ!

هل هذا جزاؤك؟ ما بالهم ينفرون من القلب الطيب ويبغضونه حتى يتوقف عن النبض وحيداً! كيف يفعل والدك هذا بك من أجل أخي ليس له نصف حنانك؟ أفاقت من دموعها وحاولت تحريك جسدها المكبل أرضاً لتنظر لابنتها الصغيرة التي جاءت عند باب الطابق تتساءل بنعاس:

- أين أخذوا أخي؟.

رفعت الملكة رأسها بفزع وهتفت بها:

- اركضي بعيداً يا ابنتي.. اركضي!.

جاء صوتها مكتوماً وكأنها تصرخ من داخل ققاعة مائية، وذلك أثر ما فعله بها الملك القاسي، كبلّها أرضاً ومنع صوتها حين أرهقته بنواحها المرير..
- اذهبى لبيت الحكيم.. أخبريه بأنهم سيقتلون الأمير!.

وضعت الفتاة يدها على فمها بصدمة حين قرأت شفاه والدتها وتبّه قلبها المسكين بالخطر، وفعلت كما أمرتها على الفور حين رأت نظرة الغدر بعين والدتها الذي لم تشعر بحنانه يوماً.. خرجت راكضة، بينما تسمع أباها الملك يهدّر باسمها، فبدا صوته مخيفاً لقلبها الصغير كصوت الرعد في ليلة سوداء ممطرة، حاولت العبور بين الحرس لكنّهم منعوها بأمر ذي الشأن الوحيد بالقلعة، منعوا حركتها بأيديهم القذرة كما كمّموا صوتها، حتى حضر الملك و فعل هذا بنفسه، بسحره الأسود للعين، وظلّ يهمس بأذنها بين شهقاتها المكتومة، يحاول أن يعود ذلك الأب الطيب الذي نسي كيف يؤديه منذ فترة:

- اهدأي صغيرتي.. الأمر ليس بهذا السوء! فالامير غيث سيظلّ أخاك للأبد، هو أكثر قدرة على حمايتك!.

هطلت دموعها البريئة وطلّت تهمس وبعينيها رجاء، فبرغم حداثة سنّها لم تكن غافلة عن ما حدث.. فاللاتصال على الأبواب عادة لم تستطع أن تخلّص

منها رغم كونها أميرة، استرجعت ذكرياتها واحدة تلو الأخرى، وربطتها بأحداث مشؤومة تحدث حولها لدرك الحقيقة.. وليتها لم تفعل هذا قط!

عزّ عليه أن يرى دموعها تلك تتهمر أمامه، كما تهدر مياه الأمطار الصافية، لكن كان عليه أن يتبع ما كان يقول. فبالرغم من تخطّيها هذا الأمر -القديم- ظاهريًا، فإنها لم تتحدث معه به من قبل.. شعر بضرورة الحديث الآن، سيريحها هذا و يجعلها تتحطّى الأمر فعلياً.. مسح على يدها بينما بدأ بالنظر بعينيها لبيتها أفكاره بصوته:

- وقتها كان درس السحر الخاص بي، علّمني والدي كيف أقرأ الأفكار عن بعد.. وراقبني بينما أفعل هذا، ليرى النتيجة.. أنت أول من أتى بيالي روز، فأنت الأقرب لي منذ صغرى، تفاجأت بأفكارك المشوّشة ودقات قلبك المترجف، وشعرت بك خائفة وضائعة.. أعلم أنك كنت تخشين المكوث بالقصر إن انشغلت سمو الملكة أو الأمير ليث.. لكن كان هذا وقت الليل، من المفترض أن تكوني نائمة! نهضت مسرعاً للقلعة بعد أن سمع والدي ما تفكرين به وشعر بضرورة التدخل، ولم يقتصر الأمر على ما أسمعته إياه فقط.. بل على ما رأى هو.. رأى أمّا وذعراً.. وسمع دقات قلوب نقيّة تخفق ببطء، وكأنها تدق دقاتها الأخيرة! لم أنس حين رأيتك مقيدة ومكبلة على تلك الألواح الخشبية الدينية.. كنت مجرد طفلة بريئة.. زهرة يافعة ملقة بإهمال؛ عيناك لم تكونا بحالهما الطبيعية، لم تريني فلم تبسمي، وحين استغللت فرصة تحدث والدي مع سمو الملك ناديتك.. ولم تسمعني قط.. كما لم تسمع سمو الملكة أي شيء! وقتها فقط رأيت السوط الأسود بيده، بيده سمو الملك.. كما رأيت تلك العلامات الدينية والخطوط المتقاطعة على ما ظهر من جسدك الهش وملابسك بلونك المفضل الذي لوّته دماؤك.. ولم أنس أنه كان هناك... سمو الأمير غيث، يراقب، ويتعلم، كيف يظلم القلوب الرقيقة!.

شهقت إزالين بينما تظر بعينيه ل تستطيع توصيل ما تذكر به دون أن يشعر بها أحد من العرائس وحرّاسهنّ المنتشرين بالغرفة الكثيبة:

عَذَّبَنِي أَبِي.. وَاسْتَمْتَعْ بِهَذَا حَقًّا! لَمْ أَنْسَ قَطْ تَصْرِفَهُ السَّادِي مَعِي -
وَمَعَ أُمِّي الَّتِي تَوَقَّفُ قَلْبَهَا بِمَجْرِدِ أَنْ اَنْهَا لَتْ عَلَيْ بَعْضِ ضَرَبَاتِ السَّوْطِ
الْخَبِيثِ، لَمْ تَحْتَمِلْ أُمِّي لَكَنِّي تَحْمِلُّ... وَمَا جَعَلَنِي أَعْذَرَهُ هُوَ أَنَّهُ
عَرَفَ سَرْهَا.. عَلِمَ بِأَنِّي لَسْتُ ابْنَتَهُ! لَمْ أَسْأَلْهُ كَيْفَ عَرَفَ، لَأَنَّهَا كَانَتْ
مَفَاجِأَةً بِالنَّسْبَةِ لِي أَيْضًا.. أَرْدَتْ أَنْ أَسْأَلَهُ مَاذَا يَقْصِدُ بِأَنِّي لَسْتُ
ابْنَتَهُ؟ طَلَّنْتُ أَنَّهُ مُسْتَاءٌ مِنِّي لِكَوْنِي سَائِلَتِهِ عَنْ مَا سَيَعْلُوْنَهُ بِأَخْيِي
لَيْثَ، وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي أَنَّهُ يَنْتَقِمُ مِنِّي وَمِنْ وَالِدِي لِإِخْفَاءِ حَقِيقَةِ نَسْبِيِّ!
لَكِنْ فَكَرْ مَعِي طِرَاد.. مَاذَا لَوْ كَانَتْ أُمِّي أَخْبَرَتْهُ بِحَقِيقَتِي حِينَ وَلَدْتُ؟ لَمْ
يَكُنْ لِيَخْتَلِفُ مَصِيرِي حِينَهَا.. بَلْ كَانَ سَيَفْعُلُ بِي مَا فَعَلَهُ بِلَيْثَ، لَأَتَذَوْقَ
مَرَارِ التَّجْرِيَّةِ قَبْلِهِ، وَكَانَ لِقَلْبِ أُمِّي أَنْ يَنْفَطِرُ، كَمَا حَدَّثَ...
مَرَارِ التَّجْرِيَّةِ قَبْلِهِ، وَكَانَ لِقَلْبِ أُمِّي أَنْ يَنْفَطِرُ، كَمَا حَدَّثَ...

لم يتحمل طراد أن يرى دموعها أكثر من ذلك، مسحها يابها ميه وضمّها
لصدره بحنان لتشهد هي أنفاسها بقطع مع اهتزازات جسدها الرقيق، و قال
بهدوء محاولاً إخراجها من نوبة حزنها التي كان يشعر بها كل ليلة:

روز.. أتعلمين.. حين كنت تتظررين للقمر وتشكين له، وكنت أنا أسمع ما تشكين به كل ليلة، كم أردت فعل هذا؛ أن أضمك لتهدأي...

تَهَدَّى وَقَالَ مَتَّاْهُ لِضَعْفِهَا:

– آسف صغيرتي.. لم تستحقى الخذلان يوماً!.

دفت المسكينة وجهها الباكي بصدره وهمهمت من بين بكائها:

أختار القدر أن تكون بالأربعين من عمرك لتبقى معي بنفس العالم كما اختارني أن أكون بطابق عرائس الأمير الذي لا يجوز لي.. لكن.. قلبك ما زال شاباً طرداً.. قلبك لم يتغير قط؛ ما زلت ذلك الفتى الشجاع الذي طلماً أحببت اللعب معه والبقاء قريبه وقت حزني.

ابتسم طِراد وأغمض عينيه متنهّداً وشدّد من ضمّها وهمس بعقلها:
- ولِي الشرف يا سمو الأميرة...

وبينما كنت أنا غارقة بدموعي الصامتة المذهولة، دخلت جليندا بعد أن عبرت منتصف المسافة بهدوء، وأشارت بيدها البيضاء المكتنزة لفتاة الحكايات، وقالت بتهدیب:

- آنستي...

انتشر صوتها الرفيع المزعج كما انتشرت رائحة القرنفل بالطابق، فتأففت وحاولت ترکيز أفکاري على تلك القصّة.. إلا أنها استطردت:
- لقد انتهت المشاطلة من تحضير مستحضرات التجميل الخاصة بك... لذا
لقد حان الوقت...

قاطعتها فتاة الحكايات بهزة رأس، ونهضت بهدوء وهي تنظر إلينا بدفعه تودّعنا، وحين تقابلت عينها بعينها إيفي صرخت إيفي باعتراض:
- لا أريدك أن تذهب لا لا.

ضحكـت الفتـاة وـقالـت مشـاكـسة:
- لا تـريـدينـي أـنـ أـذهب لـأـنـكـ تحـبـينـ الجـلوـسـ مـعـيـ أـمـ تـريـدينـ فقطـ سـمـاعـ
بـقـيـةـ الـحـكاـيـةـ؟ـ.

ابـتـسـمـتـ إـيفـيـ بـأـلـمـ وـقـالـتـ بـيـنـماـ تـشـيرـ بـإـصـبـعـيـهاـ أـمـامـ وـجـهـهاـ:
- الـاثـنـانـ مـعـاـ.. سـأـفـقـدـكـ حـقـاـلاـ.

قالـتـهاـ وـقـفـزـتـ تـحـضـنـ تـلـكـ الـطـيـبـةـ الـتـيـ أـثـارـتـ قـصـّـتهاـ الـقـشـعـرـيـةـ
بـجـسـديـ وـحـفـّـزـتـ خـلـاـيـاـ عـقـلـيـ الـذـيـ بدـأـ بـالـطـنـينـ،ـ فـابـتـسـمـتـ بـأـلـمـ وـنـهـضـتـ بـيـطـءـ
أـحـضـنـهـ أـيـضـاـ بـتـأـثـرـ،ـ وـسـمـعـتـ إـيفـيـ تـقـوـلـ بـيـنـ بـكـاـهـاـ:

- سأذهب لأساعدك بينما تستعدّين، حتى أحظى بالزائد من الوقت معكِ..
لاأشعر بأنني أريد تركك الآن!.

ثم التفت إلى قائلة:

- وأنت أيضًا إلىنورا، لنكمث معها هذا الوقت، ونأخذ الحمام سوياً ثم نعود للطابق!.

ارتجفت شفتيّ ولم أستطع كيف أرد.. لن أستطيع الذهاب معهما، فعلّي البحث عن ظافر، أريده أن يعرف بما سمعت!

- لا داعي؛ فقط تعالى أنت إيفي، فإليونورا عليها أن تستريح من دخان الحرير، لقد مكثت بالخارج كثيرًا لا بد أنها استشقت الكثير منه!.

رفعت رأسي لها بذهول، بعد أن غمزت لي بعينها، هل قصدت أن تعطيني فرصة للبقاء وحدي حقًا؟

خرجت إيفي من العناق واتجهت لفراشها بسرعة قائلة:

- سأحضر ملابسي لحظة واحدة!.

ابتسمت جليندا وقالت بصوتها الرفيع بخفوت:

- سأكون بالخارج آنساتي... .

وحين خرجت اقتربت الفتاة على أذني وسألتني بغموض:

- هل تعلمين وجه الشبه بين الأسمين: روز، وإزالين؟.

قطّبت حاجبي ودقّ قلبي بسرعة، لماذا يوجد ربط بين الأسمين أصلًا؟!

- الشعر الأشقر، العينين الزرقاءين بصفاء.. ونَسَب مُنْصَل بالملكة جينروز...

اتسعت عيني ونظرت لها بدهشة، وتدّكّرت قولها بالحكاية:

- أسمهاها بآخر ثلاثة حروف من اسم الأم...

أمسكت كفيها بيديّي المترعشتين بتردد لتقول هي مبتسمة ابتسامة ذات مغزى، بينما تربّت على يديّ:

- تحرّي الحقيقة إليونورا...

بمجرد أن قالت هي هذا، بدأت حديثي هامسة بارتباك:

- أي حقيقة؟ أتقصد़ين الحكاية؟ لكن.. كيف لي أن أعرف ما تبقى منها؟ وهل هي حقيقة؟.

واستطردت بنبرة أكثر همساً، تشبه الاستجدة:

- هي قصّة الملكة جينروز؟ أليس كذلك؟.

ابتسمت لي بينما ربيت على وجنتي بهدوء:

- أنت تعرفي من سيكمل لِكِ الحكاية...؟

عبسَت بتركيز، ورددت بعقلِي اسم ظافر.. أريده الآن بجانبي؟ أريد أن أسأله ماذا سمعت للتو؟ نهضت بسرعة أبحث عنه بعيني، فقلَّت هي وكأنها تجيب على تسلّفي:

- هو الآن ببيت الساحر.. زوجي العزيز!.

رفعت عيني لها بغير تصديق، وتساءلت بينما يكاد عقلي ينفجر:

- الساحر كبير الحرس.. ي.. يكون زوجك؟ لكن كيف؟ كيف ذلك ونحن بنفس العمر، وهو كهلٌ عجوز!.

ابتسمت وهي تهض وقبل اقتراب إيفي همسَت بـ:

- تحرّي الحقيقة!.

هزّت رأسِي والفضول يكاد يقتلني.. فكل هذه المعلومات تمثل خطراً كبيراً..
كيف قابلت تلك الشخصيات ولم أتعرّف إليهم أو أشك بأمرهم حتى؟

خرجت الفتاة برفقة إيفي التي كانت تمسك بملابسها بحرص، ابسمت إيفي
وتنمّت لي أن أحصل على الراحة التي أحتاج.. فهمست أنا بشرود:

- نعم يا صغيرتي.. أحتاج لذلك حقاً.

وبمجرد خروجهما، تحرّكت ببطء لضوء القمر.. أدين له باعتذار، فهذا
المغورو كان يوصل رسائل أميرة لحبيبها البعيد.. كان الرسول الذي ينقل أخبارها
له، وكان مرساله إليها دوماً وأبداً.. ابسمت بألم وناديت بينما أمسح على وجهي
الذي قد جفّت دموعه للمرة الأولى اليوم:

- ظافر.. أين أنت؟.

طرقت الباب الداخلي لغرفة الحكيمه، حيث فراش إزالين وسط فرش ثلاث
عرائس متعرّدات مذنبات وحرّاسهنّ، تحرّكت بهدوء وأزالت الستار غير الشفاف،
لأرى شيئاً أذاب قلبي حقاً.. تلك الفتاة الشقراء، تبسم بحزن، بينما تمسك يد
مساعد كبير الحرس طراد بالقرب من وجنتها، ترثاح على يده لتنام، وهو يراقب
تعييرات وجهها بحزن..

تحنّحت فالتفت لي، ابسم وأشار لي على المهد القريب، فأغلقت الستار
لخصوصيّتها وجلست..رأيته يقترب منها، طبع قبلة رقيقة على جبينها وسحب
يده بهدوء والتفت لي، وحدّثني ليصّب كلماته بداخل عقلي صباً:

- هل انتهت والدتي من سرد الحكاية الأخيرة؟.

دق قلبي بعنف لأثر ما سمعت.. وقبل أن أتساءل ابتسם بينما يجيبني بكلماته
الخفية:

- أجل.. هي والدتي، اضطر والدي أن يفترق عنها بإرسالها لإحدى الزنازين
بعد أن غير ملامحها وسنّها، لتكون مناسبة لذوق الأمير.. محا قدرتها
على الخدمة لتصعد لطابق الأميرات بسرعة.. وبالرغم من أنا هنا لا
نشيخ، فإنه شاخ حزناً على فراقها...

ضيقّت المسافة بين حاجبي وأشرت له بغرابة وتساءلت:

- وأنت؟ أنت لست شاباً! اعتقدت أنك تكبر الأميرة ببعض سنوات فقط؟!

ردّ عليّ بشرود:

- من أراد البقاء دفع المقابل، دفعت أنا سنوات عمري فجعلني والدي أكبر
سنّاً وكأنني شخص آخر غريب عنه.. ليسني الملك أنتي كنت أعرف
الأميرة...

تنهد ثم استطرد:

- وليتأكد من أن وجودي بهذا المنصب هو بسبب كوني أحد الحرّاس المتميّزين
بالخبرة فقط ليس إلا...

اعتصرت جبيني بيدي وتساءلت بشك:

- وهل توقف قلب الملكة والأميرة كما سمعت؟

هز رأسه إيجاباً.. فتظرت لإزالين النائمة.. فابتسם هو ورثت على يدها التي
باتت تتقبض وتتبسط بغير راحة، حتى سكت.. وقال بحنان تجاهها:

- هي أيضاً دفعت الثمن.. تخلّت عن دمائها الملكية وعاشت مع العرائس
منتظرة ظهور الحقيقة...

ابتسمت لها بألم، فتابع هو الحديث:

- حين ماتت الملكة والأميرة واحتفى الأمير ليث، اتهم الملك إحدى العرائس بفعل هذا لحباً له، اتهمها بدسّ السم لهما فدفعـتـ الثمنـ هيـ وحارسـهاـ.. أشرفـ الأمـيرـ غـيـثـ عـلـىـ تعـذـيـبـهـماـ بـرـغـمـ حـدـاثـةـ سنـهـ..ـ وـلـمـ يـعـلـمـ أحدـ غـيـرـهـماـ أـنـ الـمـلـكـةـ كـانـتـ أـوـلـىـ عـرـائـسـ الـبـرـجـ الـعـالـيـ المـتـوـقـفـ قـلـبـهـنـ..ـ تـلـيـهـاـ عـزـيزـتـيـ رـوـزـ أوـ إـرـالـيـنـ كـمـاـ أـسـمـيـتـهـاـ..ـ سـمـوـ الـأـمـيرـةـ الرـقـيقـةـ...

هـزـ رـأـسـهـ بـأـسـيـ وـاسـطـرـدـ:

- مرـتـ السـنـوـاتـ وـمـاتـ الـمـلـكـ،ـ بـلـ قـتـلـ..ـ وـكـانـ جـزـاؤـهـ مـنـ جـنـسـ الـعـمـلـ..ـ تعـذـيـبـ بالـسـوـطـ بـعـدـ تـكـيـلـهـ أـرـضـاـ بـالـسـحـرـ الـأـسـوـدـ،ـ وـكـانـ الـفـاعـلـ هوـ الـأـمـيرـ..ـ

وـالـسـبـبـ غـيـرـ وـاضـحـ...

عـبـسـ وـفـكـرـ مـعـيـ:

- لاـ أـعـتـقـدـ أـنـهـ كـانـ هـنـاكـ سـبـبـ مـنـطـقـيـ،ـ غـيـرـ وـصـولـ الـأـمـيرـ لـلـسـنـ الـقـانـوـنـيـ للـحـكـمـ..ـ أـوـ أـنـ مـيـوـلـهـ الـدـفـيـنـةـ الـمـكـتـسـبـةـ قـدـ بدـأـتـ بـالـتـحـكـمـ بـهـ.

تسـاءـلـتـ أـنـاـ بـغـيـرـ فـهـمـ:

- مـاـذـاـ تـقـصـدـ بـمـيـوـلـهـ..ـ الـدـفـيـنـةـ؟ـ!

أـجـابـنـيـ طـرـادـ بـأـسـفـ:

- السـادـيـةـ..ـ يـحـبـ التـحـكـمـ وـرـؤـيـةـ الـأـلـمـ بـمـنـ يـتـحـكـمـ بـهـمـ...

وـأـضـافـ لـتـكـونـ هـذـهـ الـقـشـةـ الـتـيـ قـصـمـتـ ظـهـرـ الـبـعـيرـ:

- هوـ يـفـعـلـ هـذـاـ مـعـ الـعـرـائـسـ الـتـيـ تـخـفـيـ مـنـ طـابـقـكـنـ..ـ يـكـبـلـهـنـ أـرـضـاـ أوـ بـأـلـواـحـ خـشـبـيـةـ بـالـغـرـفـةـ السـرـيـةـ بـطـابـقـهـ،ـ وـيـفـعـلـ هـذـاـ بـمـنـتـهـيـ الـوـحـشـيـةـ،ـ لـاـ يـفـعـلـ إـلـاـ هـذـاـ حـتـىـ يـتـوـقـفـ قـلـبـهـنـ..ـ وـلـاـ يـسـمـعـ أـحـدـ صـوـتـ صـرـخـاتـهـنـ!ـ وـلـوـ سـمـعـهـاـ أـحـدـهـمـ لـأـتـهـ الـكـوـاـيـسـ كـلـ لـيـلـةـ!ـ.

حين انتهتى من كلماته تلك تذكّرت كوايسى، صرخات آخر أميرة، نهنتها بالبكاء المريض وتوسلّها من يسيطر عليها بأن يتركها، تداخلت تلك الأصوات مع صراغي محاولة تبّيه جلاديس لعدم الذهاب للأمير، خوفي من انتهاءك عرض أختي والتي صرخت بمثل ما صرخت به العرائس.. وأيضاً كلمات عروس الحكايات:

- وهل من عادت.. عادت بالفعل؟.

وضعت يدي على رأسي بألم وشعرت بالقسوة تعتصر قلبي بشدّة.. كم هذا قاسٍ! كم هذا العالم أسود مريراً!

وضع طراد يده على كتفيّ وسألني:

- ألم تتحدّثي معه بعد؟.

رفعت رأسي له بغير فهم، فهمس لي مبتسماً بطيبة:

- ظافر.. أقصد ليث..

وأضاف لتسّع عيناي:

- سموّ الأمير!.

سقطت دمعة من عيني حين تأكّدت من ما حاولت تجاهله.. ووضعت يدي على قلبي وتذكّرت قبّلته لي.. ابتسمت بارتعاش ونهضت.. للبحث عنه!



٦٣- ماقبل النهاية

حاربت هواجسي وانطلقت لطابق العرائس، نويت أن أجلب عباءتي الثقيلة
والنزول للغابة، سأبحث عن بيت الساحر والذي سأجد به ظافراً.. بل سأجد سمو
الأمير ليث! قلبي يخفق بقوّة، شيء ما يحثّني على الإسراع لطابق العرائس، أعتقد
أن ثمة أمراً مهماً.. أشعر بذلك!

رفعت ردائى وأسرعت أصعد الدرج الصخري والمضاء حائطاً بشعلات خافتة،
وحين اقتربت من باب الطابق دفعته وعبرت من خلاله، وبخطوات خفيفة كنت
بالجزء الخاص بجلسة العرائس.. ورأيته.. يقف بالقرب من الشرفة، وكأنه يحاور
القمر!

القت بمجرد اقترابي، فهويت أنا على ركبتي، أخفضت رأسي أرضاً بينما
لسانني يهمس برهبة محببة: - سمو الأمير ليث...

شعرت بخطواته، فأغمضت عيني وأنا أنتظر مصيري.. فمنذ ساعات فقط
كنت أقف أمام الأمير الآخر غيث بمنتهى الرضوخ، أما الآن، وأمامي الأمير ليث،
والذي نجا من الموت ليأخذ بالثار، قلبي متوجّس.. وفي نفس الوقت مطمئن! لأنّي
أعُرف أنّ من أنحني أمامه هو ظافر.. الذي أثق به بشدّة..

شعرت به ينحني أمامي، كما شعرت بملمس أنامله على ذقني، يرفع وجهي إليه، أعتقد أن هذا المشهد مألف للغاية.. ابتلعت غصة بحلقي وابتسمت بارتباك، بينما همس هو بعقلي:

- فقط ظافر.. للآن...

هزّت رأسِي بخفاء، واستجابت ليدِه التي أخذت بيدي ليوقنني بالقرب منه.. وقبل أن أنظر له وجدته يتجه مِرْأة أخرى للقمر.. فسرت خلفه بهدوء.. وعلى ملامحي ظهر الارتباك جلياً.. ظننت أنه سيكون بلا قناع وجهه القماشي حين أراه.. لا أتصوّره يشبه الأمير غيث أبداً! ربما بسبب عينيه.. إنهم مختلفان بشكلٍ غريب..

جلست معه أسفل الشرفة على بعض الوسائل الأرضية، ونظرت لعينيه بيته، لكن سرعان ما ارتبكت، وأدركت أن من أمامي هو الأمير.. لا يصح أن أنظر له هكذا! لكن، قلبي يأبى الانصياع لهذه الفكرة.. فيدق ويدق، كالجنون.. وعيني تلمع بتحفّز.. وعقلِي لا يسأل إلا سؤالاً واحداً.. «كيف نجوت سمو الأمير؟»

تنهَّد ظافر بهدوء ونظر إلى قائلًا:

- عشت أكثر من حياة.. أمير صغير.. طفل ضائع، شاب حذر، وحارس..
لكنني لم أنس طعم الموت يوماً...

ابتلعت غصة بحلقي لسماع نبرته الشاردة البسيطة، برغم ما يقوله من مرار.. وأردته أن يحكِّي لي.. وقد كان، بدا صوته مرتاحاً بينما يلقي بالحمل من على صدره، وارتاحت أنا لكوني أسمع له، أردت التخفيف عنه ولو بشيء بسيط..

- ليلة غرقي، كانت آخر ليلة ليوم أشرقت به الشمس.. وكان العالم حزن حزناً دفينًا على الظلم الذي قد حدث.. أنقذني الساحر قبل أن أشهق أنفاسي الأخيرة.. فلَّ وثاقٍ وأخفاني بعبأته حتى منزله، وطِراد؛ ابنه ينير الطريق أمامنا بمصباح يدوٍ بسيط.. كنت أعايني من الحمّي وقتها،

في الحقيقة عانيت منها لدّة أيام، وسهر الطبيب وابنه يحضران لي الأعشاب وقراءة التعاويد لشفائي، وزوجة الطبيب، تعرفينها، كانت كأنها أجبت ابناً ثانياً لها، عاملتني برقى واعتنت بي حتى صرت بخير.. وفي يوم من الأيام؛ وقف ثلاثة أمامي وأخبراني بما حدث.. ثبت الساحر تلك الذكرى بعقولي كي تكون راسخة للأبد، واختار لي اسم.. ظافر.. لأكون ظافراً بحقيّي دوماً وأبداً، وأكّد لي ضرورة الانتقام.. وإنهاء الظلم..

عشت بينهم، كصبيّهم الثاني، أخفاني الساحر عن الأعين لفترة، حتى استطاع إلقاء تعويذة علىّ تجعل كل من يراني مسحوراً، فينخدع بحجمي، شكري، وهيئتي.. أراهم أنتي ولده الثاني، ذو التشوه الكبير بوجهه، والذي يداوم على ارتداء الأقنعة.. سلب لون عيني، ودوماً ما كان يقول لي:

- كلّما اقتربت الحقيقة، ظهر لون عينيك.. فحارب من أجل ذلك، حارب من أجل لون العين الأزرق الصافي والذي يماثل لون عيني الملكة جينروز؛ والدتك...

علّمني السحر كما علّم طرادةً، حتى أصبح مستوىي أقرب لمستواه.. خرجنا معاً لنشرف على إصابات الحرس الجنود وقت الحروب، وساعدنا بعلاج كبير الحرس الأسبق، وفي نفس اليوم، أتى خبر تعيين الساحر ك كبير الحرس؛ لحكمته ولمعرفته أصول الكثير من الأشياء..

كان عليه التنقل من العالم الآخر للحياة، فاصطحبني وطراً معه، لنرى عالماً جديداً غير الذي نعيش به.. عالم لا تغيب به الشمس إلا وتشرق باليوم التالي، عالم به الجميع متشبّثون بالحياة، ولا يدركون بوجود حياة أخيرة لهم..

وكان أول شيء جعلنا نراه بهذه الحياة بعد الشمس، لحظة ميلاد روح بريئة بالحياة.. روح أخي روز الشقراء الرقيقة.. باسم إزالين..

أخبرني الساحر بأنه أعاد روحها لتولد وسط أسرة سعيدة مرموقه الشأن، تعويضاً لها عن طفولتها الصائعة، وربّت على كتفي، فأدركت أن لا طفولة لي، وابتسمت أملأ، يكفي أن تسعد هي بالحظاتها بالحياة.. ويكتفي تلك النظرة بعيني طراد، ليجعلني أؤمن بأنها ستكون سعيدة بحياتها الأخرى معه.. كما آمنت دوماً رغم صغر سنّي..

بتنا نتردّد على الحياة بصورة غير منتظمة، حتى رأيت فتاتي.. تلك التي شعرت بقربها منها بمجرد النظر بعينيها الدافترين.. ومن يومها طلبت من الساحر أن يجعلني أزور الحياة وأزور حياتها يومياً.. علمّني كيف أنتقل بين العالمين لكن بحدّر، كي لا تجفّ دمائي الملكيّة... .

ابتسمت بغيره.. بينما قلبي يدقّ بعنف.. لم ينس أن يخبرني عنها هذه المرّة أيضاً.. كم هي محظوظة به!

استمعت له يستطرد بشرود:

- كانت هي الوحيدة التي تجعل الانتظار هيئّا.. فمتابعة يومها بعيني عديمت اللون- لطالما أشعرتني بالدفء.. لم أشعر بوجودها أني ملفوظ من عالمي، بل شعرت بأنّي إنسان مرحّب به بكلّ العالمين.. تابعتها تكبر أمامي، يوماً بعد يوم، حتى أصبحت شابةً جميلة، يكاد قلبي يتمزّق حين يطيل أحد النظر إليها، شعرت بأنّها ملكي، تخصّني وحدي.. كما كانت هي؛ تشعر بأنّها لشخصٍ ما دون غيره، تستظره بإخلاص ولا تعلم من هو.. لكنّها تشعر به.. بقلبه وبروحها النقيّة.. حتى فقدت حياتها للمرة الأولى.. والثانية.. تعرّفين باقي القصّة..

هزّت رأسي بألم، والدموع متحجّرة بعيني.. لأسمعه يتّبع بينما ينظر للقمر: - بمجرد أن فقدتها، عملت على أن أسترّها، كما عملت على أن أكون قوياً للانتقام.. تدرّبت أكثر، تعلّمت أكثر وقرأت العديد من الكتب، دخلت

القلعة أكثر من مرّة مع الساحر ومن دونه، حفظت مداخلها وأبوابها السرية التي لا يعلمها أحد، حتى البرج العالي.. وصلت له، وبّت أتردّد عليه لأرى من افتقدها، أهمس لها بأن تراقب مرور الزمن واقتراب ظهور الحقيقة، وأمسح دموعها كما فعلت قبل أن أفقدها.. وتفقدني.. كنت أقوى الحرّاس، أتجنب باقي الحرّس، وأظفر بثقة مدربّي، أحصل على ترقيات حتى قدت جيّشاً خارج المملكة، بينما كان أخي محمّراً وبجانبه أكثر من فتاة.. يسهر ليته بغير حساب...

توقف عن الحديث للحظة.. فلاحظت أنه يغمض عينيه بقوّة، وحين فتحهما سأله بترقب:

- وماذا عن حبيبتك؟ ألم تظهر بعد؟ أم أنك سئمت الانتظار فاخترت حراسي؟.

ضحك بسخرية، فاعتذرّت منه لكوني غير رسمية معه بالحديث.. ودقّ قلبي وعلقلي بيت بداخله فكرة واحدة غريبة، لكنّها محبّة إلى.. وهي أنتي من كان ينتظّرها ظافر.. أنتي حبيبته! أشحت بنظري بعيداً كي لا يستطيع قراءة أفكارِي، وهمسّت بداخلِي بـ:

- لم اخترتني؟ لم؟.

أجاب على سؤالي غير الرسمي مبتسمًا:

- كنت أكثر من مناسبة كاختيار.. أنت مضحية: قُتلت في سبيل إنقاذ عرض شقيقتك من الانتهاك.. ولم تكوني ساخطة قط لهذا...

ابتلعت غصّة بحلقي بينما همسّت له:

- إذاً هذا هو السبب؟ كوني مضحية؟.

هزّ رأسه ببطء، فابتسمت بمرار.. ونفيت فكري، وقلت محدثة نفسِي بوضوح:

- لست أكثر من أداة إلينورا.. لم تكوني يوماً حبيبته.. ولن تكوني!.

تحنحت قائلة، بينما أخفى مشاعري الحقيقة بينما أتذكر قبليه:

- مساعدة سموك شرف كبير لي، كان عليك فقط أمري بهذا.. دون التحكم

بمشاعري...

قلتها إشارة إلى أفكاره التي كان يبئها بداخله، كوني أميرة على اعتبار ما سيكون، كون قلبي للأمير، وأخيراً.. قبليه..

ضحك بهدوء ورّبت على شعري قائلاً:

- توكّدين صحة اختياري في كلّ مرة إلينورا!.

ابتسمت لمحاملته.. وشردت.. في كون قلبي وحيداً، إلا من وهم حبّ الأمير.. أو حبّ حارسي.. فحارسي، أو الأمير، مغرم بفتاة واحدة لا يقبل بغيرها، ينتظراها بصبر ليبيّها مشاعره.. إذاً.. أنا وحدي الآن.. ولا أعتقد أنتي سوف أقع بالحب مّرة أخرى..

- لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلا لنفسي...

تذكّرت صوت إزالين بغناء تلك الكلمات من أغانيتها المتوارثة والخاصة، ثم تذكّرت وجه الأمير الوسيم، والذي لم أرّ مثله قط.. أحمر وجهي خجلاً.. واقتربت قليلاً من ظافر هامسة:

- ربما أعرف من تكون.. لكن.. فضولي يقتلني...

لمست قناع وجهه بيدي، فرأيت عينيه تبسمان، وجاء صوته الهادئ ليشعل

رغبي أكثر:

- فضولي يقتلني أيضًا...

وفي نفس اللحظة سمعت صوت فتح الباب، فتجددت مكاني، حتى اقتربت من دخلت للتو، لتراني بالقرب من ظافر، أميل إليه بينما أقف على ركبتي مستندة على يد واحدة والأخرى كانت ممدودة لوجهه للتو.. فتحنحت بإحراب وعدت للخلف وضمت كلتا يدي بعضهما إلى بعض توّرًا.. فابتسمت هي بغرابة، وسرعان ما أتت سيدة لتقف بالقرب منها، وقالت بصوتٍ وقوفٍ:

– لقد أخبرتني المشرفة بأنك هنا آنسة إيلونورا...

رفعت رأسي إليها بغرابة، وهمست بـ:

– ميلدا.

ابتسمت السيدة ورفعت قبّتها البيضاء التي تخص الطهاة لي كتحية، وقالت: أسرّني أنك تتدّركيني...

باعدت بين شفتي بغرابة حين أدركت الفتاة التي تقف بجانب كبيرة الطهاة الآن، رأيتها بالمطبخ وتسبّبت بخلع ردائها يوماً وإلقاء اللوم عليها.. فتاة الجزر.

قلتها بغرابة بينما وقفت على قدمي أمامها ببطء، فابتسمت هي بارتباك قائلة: في الحقيقة كنت معروفة بفتاة البازلاء.. لكن لم يعد أحداً يدعوني بهذا الآن!

حقاً؟ هل تسبّبت فعلتي القديمة بإبقاء هذا اللقب بها؟

– هذه الفتاة ممتازة، قد تسليني مكانني يوماً بسبب مجدها وطموحها!

قالتها ميلدا مشيرة إلى تلك الفتاة بفخر، ووقتها فقط لاحظت أنها ترتدى قبعة مماثلة لقبعة ميلدا البيضاء.. إذاً هي مساعدة كبيرة الطهاة!

همست الفتاة لي بأدب:

- جئت لأسألك آنستي.. ماذا تحبين لطعم الطعام الغداء؟.

ضيقـت المسافة بين حاجبي بغرابة وهمستـ بـ:

- منذ متى ويأتي أحد ليـسأل هذا السـؤال؟.

ارتـبت الفتـاة قـائلـة:

- ربـما لأنـه عـيد مـولد الأمـير؟.

وأضافـت لـدهشتـي:

- لقد سـأـلـنا الآـنسـة إـيفـي وأـخـبـرـتـي بـما تـرـيدـ، بـالـإـضـافـة لـمـضـاعـفـة الـكمـيـة الـتـي سـتـأـكـلـهاـ.

همـسـتـ أنا بـشـرـودـ:

- أـخـيرـا سـتـسـتـجـبـن لـطـلـبـهـاـ!.

وـبـيـنـما قـلـتـ هـذـا لـاحـظـتـ أـنـ ظـافـرـا يـعـطـيـ شـيـئـا مـا مـلـيدـاـ، وـحـينـ التـفـتـ بـجـسـدـيـ وـجـدـتـهاـ تـنـحـنـيـ لـهـ بـطـاعـةـ، وـكـأـنـهاـ تـعـلـمـ بـهـوـيـتـهـ! فـقـلـتـ بـغـرـابـةـ:

- ما الذـي يـحـدـثـ؟.

جـذـبـتـ الفتـاةـ يـدـيـ وـأـعـطـتـنـيـ قـلـمـاـ وـنـوـتـةـ صـغـيـرـةـ وـقـالـتـ:

- هلـ لـكـ أـنـ تـخـتـارـيـ مـنـ قـائـمـةـ الـحـلـوـيـ؟ لـقـدـ تـمـ صـنـعـ الـكـثـيرـ مـنـهـاـ الـيـوـمـ!.

لـاحـظـتـ أـنـهاـ تـرـبـكـ تـرـكـيـزـيـ لـتـشـغـلـنـيـ عـنـ مـا رـأـيـتـ، فـوـضـعـتـ أـنـاـ خـطاـ تـحـتـ أـحـدـ الـأـصـنـافـ الـعـشـوـائـيـةـ بـيـنـماـ عـيـنـيـ مـا زـالـتـ مـثـبـتـةـ عـلـىـ مـيـلـدـاـ الـتـيـ تـصـنـعـتـ عـدـمـ حدـوـثـ أـيـ شـيـءـ.. وـحـينـ اـنـتـهـتـ اـبـتـسـمـتـ الفتـاةـ وـقـالـتـ مـيـلـدـاـ:

- أـعـتـقـدـ أـنـ الـوقـتـ لـلـبـدـءـ بـتـجـهـيزـ الـفـدـاءـ...ـ

الـتـفـتـ مـيـلـدـاـ إـلـيـهـاـ وـأـخـذـتـ النـوـتـةـ مـنـ يـدـهـاـ وـرـحـلـتـاـ عـلـىـ الـفـورـ، فـالـتـفـتـ أـنـاـ لـظـافـرـ بـغـرـابـةـ، فـسـائـنـيـ:

- تريدين معرفة ما الذي أعطيته لها أليس كذلك؟.

اقربت أنا منه وجلست فأجاني وهو يرى الفضول بعيني:

- سُم.. بطيء المفعول، يشل حركات السحر ويبطل المقاومة...

وضعت يدي على فمي فقال هو ليطمئنني:

- لا تقلقي.. سأكون مطمئناً عليك أكثر هكذا...

لم أفهم ما قال، فمسّر لي:

- ستضعه ميلدا لغيث بطعمه، لن يسبب الأذى وقتها...

وضعت يدي على قلبي براحة.. وهمست بـ:

- هل ستكون زوجة الساحر بخير؟ وايفي؟.

تمهّلت قليلاً حين همست مستطردة:

- وأنا؟.

هزّ رأسه بتأكيد فتهّدت.. ثم لاحت بعيني من النافذة شيئاً ما.. أراه بوضوح:

البرج العالى!

وتذكّرت الكابوس القريب، فانتقض جسدي وطلبت من ظافر بعد أن ناديت اسمه همساً:

- أيمكنني الذهاب للبرج العالى؟.

نهض من جلسته ونهضت أنا أيضاً، وفي لمح البصر كان قد لوح بعبأته ليخفيني بها، لأفتح عيني، وأجدني بمكان آخر..

تحرّكت لأقرب نافذة لأنظر منها، وشهقت لما رأيت! أنا بأعلى نقطة بالقلعة! أكاد أمس القمر بيدي، وبالأسف أرى كل شيء صغيراً للغاية، كما رأيت ترس طابق عظيم.. أعتقد أنه يخصّ الأمير!

— يمكنهم سمعك والإحساس بك...

التفت لظافر، لأرى أن خلفي مجموعة كبيرة من العرائس، يقفن بثبات، يرتدن الأبيض، الجميلات بالصفوف الأمامية والدミニمات بالخلف.. وجوههن ثابتة، عيونهن شاردة، مبسمات، تختلف ابتساماتهن.. بينهن من تبسم بارتباك، وبينهن من تبسم بصفاء وراحة.. أعتقد بأن تلك الابتسامات هي التي تميّزهن عن بعضهن البعض..

ارتجم قلبي واقتربت من إداهن.. حين شعرت بأنها مألوفة.. وبالفعل، كانت هي، التي ظهرت لي أثناء نومي.. جلاديس!

همست باسمها، وقبل أن أرافق تعبيرات وجهها، وجدت أخرى، تلك التي أرتفقى صوت صراخها طويلاً، ورأيتها تطلب الرحمة من شخص ما.. فهمت الآن..

—آسفه لكوني لم أفهم ما أردت.. لم يكن بيدي منع أي شيء...

نزلت دموعة من عيني وهمست بأسماء فتيات كثيرات أعرفهن.. وفجأة تذكّرت صوتي بالكاربوس.. حين كنت أسأل:

— يا عرائس البرج العالى.. أيمكننى الزيارة يوماً؟.

وَصَوْتُ اِجَابَاتِهِنَّ، وَبِأَصْوَاتٍ تَبَدُّو مَأْلُوفَةً:

— تستطِيعُنَّ هذَا دُومًا!

خيل لي أنتي أرى شفاههن تتحرّك بما قلته، بينما ينظرون بعيونهن الشاردة
بعيني.. فعدت ببعض خطوات للخلف بخوف.. لأصطدم بظافر، والذي أمسك بيدي
من ^{رُبَّا} عليها، وهمس بـ:

- تعالى معى ...

هزّت رأسي بتوجّس، وسرت خلفه بينما لم أترك يده للحظة، عبرنا من ستارٍ أسود، لنصبح بغرفة صغيرة، بها عروس واحدة فقط.. ترتدى أكثر الفساتين البيضاء جمالاً وصفاء، وجهها مغطى بقطّعٍ من الدانتيل الأبيض، رأيتها بوضوح بعد أن أضاء ظافر المكان بتميّته الغريبة..

راقبته يرفع الغطاء من على رأسها بحذر، فابتلاع غصّة في حلقى بترّق.. حينها دقّ قلبى بحنان وتأثر، سالت دموعي الساخنة على وجنتي الناعمتين، تنزلق بسهولة لتحل محلها دموع أكثر حرارة.. كم هي جميلة من أراها الآن!

حرّكت بصري بين شعرها المرفع لأعلى، مائة بصري بلونه الأشقر الدافئ، الالامع كلون أشعة الشمس اللامعة حين تشرق بحياة.. عيناهما الزرقاوان كلون السماء الصافية، بأهداب كثيفة تزيّدتها جمالاً.. وجهها الصافية أبيض اللون إلا من حمرة وجنتيها وشفتيها الرقيقتين.. لا إرادياً وجدت نفسي أجلس على ركبتي، وأنحني برأسى.. فمن أمامي هي الملكة جينروز، التي أحفظها معظم كتب التاريخ عن الجميع!

همس ظافر بدفء:

- كيف حال جلالتك؟ هذه إليونورا.. التي حكّيت لك عنّها من قبل...

رفعت رأسي بحذر، مسحت دموع عيني لأرى عينيه تلمعان بحنين، فأحضرت رأسي ببطء وهمست بـ:

- سعدت بلقائك سيدتي.. كم أنتِ جميلة!

شعرت بظافر ين啼ّد بحرارة ثم يقول:

- اقتربنا من الوصول أمي.. سيصبح كل شيء على ما يرام، فلا تقلقي!.

هزّت رأسي بتأكيد، وقلت بأدب:

- أنا أثق بسموّ الأمير ليث.. كما وثّقت بحارسي ظافر...

مسحت دموعي وابتسمت بدباء.. كم يشعرني الوجود بقربها بالراحة! بالتأكيد كانت من أطهر الأرواح بهذا العالم.. وكم تشبهها إزاليـن!

- تقول أـنـك جميلـة.. وأنـها تـشـقـكـ بـكـ.. كـمـ أـرـادـتـ رـؤـيـتكـ!

ابتسمـتـ بـيـنـمـاـ أـرـفـعـ وجـهـيـ أـنـظـرـ لـهـ بـتـيـهـ.. هـلـ فـعـلـاـ قـالـ آـخـرـ جـمـلـةـ عـنـيـ؟ـ أـمـ أـنـتـيـ
أـتـوـهـمـ،ـ كـمـ تـوـهـمـتـ أـنـ الـمـلـكـةـ الـجـمـيـلـةـ تـسـعـ اـبـتـسـامـتـهـ؟ـ

شعرـتـ بـقـلـبـيـ يـخـفـقـ بـعـنـفـ.. فـانـسـحـبـتـ لـلـخـارـجـ قـبـلـ أـنـ أـفـقـدـ وـعـيـ،ـ أـعـصـابـيـ
لـمـ تـعـدـ تـحـتـمـلـ،ـ وـعـيـ لـاـ تـكـفـ عـنـ ذـرـفـ الدـمـوعـ..ـ وـتـرـكـتـ بـالـدـاخـلـ..ـ يـنـظـرـ بـعـيـنـيـهاـ
طـوـبـيـلاـ..ـ بـطـوـلـ الـحـوارـ الخـفـيـ بـيـنـهـمـاـ..ـ

مـرـ الـوقـتـ،ـ حـاـوـلـتـ قـدـرـ الإـمـكـانـ أـنـ أـكـوـنـ طـبـيـعـيـةـ بـتـعـاـمـلـيـ معـ ظـاـفـرـ أـمـامـ إـيـفـيـ
وـكـالـيـبـ،ـ كـمـ حـاـوـلـتـ أـنـ تـكـوـنـ مـعـاـمـلـتـيـ لـهـ طـبـيـعـيـةـ..ـ أـشـعـرـ بـأـنـتـيـ أـفـتـقـدـهـاـ مـنـ الـآنـ..ـ
أـخـشـيـ عـلـيـهـاـ مـنـ هـذـاـ الـأـمـيـرـ السـادـيـ،ـ كـمـ أـخـشـيـ مـنـ الـمـسـتـقـبـلـ الـقـرـيبـ..ـ

قـبـلـ أـنـ نـتـامـ لـيـلـاـ،ـ دـخـلـتـ جـلـينـدـاـ بـيـطـءـ وـبـيـنـمـاـ هـيـ تـمـسـكـ بـفـقـرـاتـ ظـهـرـهـاـ الـمـتـأـلـةـ
مـنـ صـعـودـ الـدـرـجـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ هـذـاـ الـيـوـمـ قـالـتـ بـأـدـبـ:

- الـأـمـيـرـ يـوـدـ الـعـرـوـسـ الـتـيـ أـعـجـبـ بـرـقـصـهـاـ بـالـحـفـلـ...

هـوـيـ قـلـبـيـ بـقـدـمـيـ وـنـظـرـتـ لـظـافـرـ،ـ إـيـفـيـ..ـ مـاـذـاـ يـعـنـيـ هـذـاـ؟ـ كـمـ هـتـاـةـ أـعـجـبـ
بـرـقـصـتـهـاـ؟ـ تـذـكـرـتـ اـبـهـارـهـ بـرـقـصـتـيـ،ـ فـابـلـعـتـ الغـصـةـ الـمـسـتـنـنـةـ -ـ الـتـيـ تـكـوـنـتـ
بـحـلـقـيـ -ـ بـصـعـوبـةـ وـهـمـسـتـ لـجـلـينـدـاـ:

- أـيـ رـقـصـةـ تـقـصـدـيـنـ؟ـ

ابـتـسـمـتـ جـلـينـدـاـ وـأـشـارـتـ لـإـيـفـيـ قـائـلـةـ:

- يـرـيدـ الـعـرـوـسـ إـيـفـيـ..ـ هـوـ يـعـلـمـ اـسـمـكـ آـنـسـتـيـ،ـ وـقـالـ لـيـ أـنـهـ سـيـكـونـ مـتـفـرـغاـ
لـكـ بـالـغـدـ،ـ مـنـذـ بـدـاـيـةـ الـيـوـمـ!ـ

هل من المفترض أن أطمئن بعد أن قالت هذا؟

هويت على إيفي أحضنها وأدفن رأسي بعنقها الصغيرة بينما أشهق أنفاسي بتأثر.. ستركتي تلك الصغيرة وتذهب لذلك المتوجّش.. والذي لا يكتفي أبداً من إيداء العرائس!

- لقد قلت لكِ إليونورا! إنه يعلم بأنكِ الأجمل، لذا ادخرك للنهاية!

- لا تقولي نهاية!

قلتها بشفتين مرتعشتين بينما توقفت عن احتضانها ونظرت بعينيها البنيتين، فضحك كاليب قائلاً:

- لا أحب لحظات الوداع تلك!

تحنّحت جليندا فتهضي إيفي على الفور قائلة:

- حسناً أنا قادمة!

قبّلته على وجنتي وقالت بمرح:

- بالتأكيد عروس الحكايات تنتظرني!

ضحكـت بسـداقة ثم صـحـحت ما قـالت:

- أقصد أميرة الحكايات! سأذهب للأمير وأراها، وستنـتـظرـكـ إليـونـورـاـ كـوـنيـ بأـفـضـلـ حـالـ!

هزـزـتـ رـأـسـيـ وـقـدـ بـدـأـتـ أـشـعـرـ بالـدـوـارـ،ـ فـاقـتـرـبـ ظـافـرـ وـهـمـسـ بـعـقـلـيـ:

- سـنـكـونـ بـخـيـرـ لـتـقـلـقـيـ.

نهض كاليب ليحتضن إيفي ببراءة وتركها تذهب بعد أن احتضنتني، ثم صافح ظافراً وقال أنه سيكون بمقر الساحر حتى يعطي له مهمّة أخرى.. وقبل أن يقترب مني ليصافحني تراجعت للخلف بيته.. وتمددت أرضاً، فنظر لي بغرابة قائلاً:

- أشعيرين بالدوار٥.

هزّت رأسِي بشرود، فقال كاليب بقلق:

- حسناً سأستدعي الحكيمَة بينما أنا بطريقِي للأسفل!.

رفعني ظافر لأجلس وأعطاني القليل من الماء، فشربت ثم همسَت لِكاليب:

- لا تهتم بذلك.. سأذهب أنا للحكيمَة...

التفت لظافر قائلة:

- لن أتحمل أن أجلس بهذا الطابق الكبير وحدي.

هزّ ظافر رأسه وساعدني على النهوض، وخرج ثلاثنا من الطابق..



جلست بجانب فراشِ إزالين، أنظر إليها باحترام وأتحدى معها برسمية، بينما هي تبسم لي وتجيبني براحة: تعاملني وكأنها إزالين، لا روز الأميرة!

كم كان الأمر مريحاً بأن خرجت الثلاث مذنبات مع حُراسهن لغرفة الحكيمَة العامة، ليتركا لنا مساحة الحديث.. لم يصبحن عرائس بعد الآن، لأنَّا أصبحنا العروس الأخيرة المتاحة للأمير...

تمنّى طراد لنا الحظّ، وأخبر ظافراً بأن الجميع الآن بات يعلم بالسرّ، لقد أخبرهم الساحر بطريقته، وجميعهم منتظرون إظهار الحقيقة.. شعرت بالمسؤولية وزاد الطين بعقلِي..

عدت للطابق، للنوم، لأجد أن الخادمات قد انتشرن يزلن كل شيء من الطابق،
الستائر، الوسائل الأرضية، وأيضاً أدوات العرائس والصناديق الخاصة بملابس،
فصحت فيهن:

- ماذا يحدث؟ لماذا تزلن كل شيء؟.

انحنت لي واحدة منها منهنْ قائلة:

- هذه أوامر.. أمرنا الأمير بإغلاق الطابق.. ظننا منه أنك ستبين مع
صديقتك بغرفة الحكمة...
- أنا؟.

قلتها بغرابة وغيظ، وهمست بـ:

- لا أصدق! كيف أطرد من مكان نومي بهذه السهولة.. تبقيت لي ليلة أباتها
قبل أن أذهب إليه، لم يعاملني هكذا!.

غضبت شفتي قهراً، وسمعت إحدى الخادمات تهمس بـ:
- هل حقاً هي آخر العرائس؟.

لترد أخرى:

- لم تستيقظ أي واحدة بعد.. إذا هي الأخيرة!.

وضع ظافر يده على كتفي وقال بعقلٍ بشرودٍ غاضب:

- أسلوبه واحد في كل الحالات.. المفاجأة.. يفاجئ الفتيات بمنتصف
طعامهنْ، وقت التدريب، أو بمنتصف الليل.. لا يريده أن تكوني مرتاحه
قبل اللقاء أبداً...
وأضاف:

- سيسهل عليه استعبادك وأنت ضعيفة وخائفة...

ارتجف بدني وهمست بـ:

- وماذا سأفعل؟.

ربّت على كتفي وطمأنني:

- ستامين بغرفة الحكمة، لكن تحت تأثير تعويذتي.. سأحرص على أن تكوني مرتاحاً بأخر ليلة، حتى يكون اللقاء قوياً..

هزّت رأسي بتوجّس.. وتحرّكنا لطابق الحكمة مرّة أخرى..

وضعت رأسي على الوسادة المريحة، وقبل أن يغمض ظاظر عيني ليلاقي على تعويذته، أمسكت يده ورجوته أن ينتظر.. أردت أن أصفي لتلك الأغنية التي تغنىها إزالين.. «استثنيني..»

كانت هذه إذاً أغنية الملكة الأخيرة لهما.. تستثنى نفسها من القواعد.. ترى نفسها وحيدة.. غريبة.. وتطلب من رفيقها أن لا ينتظر لقلبها أن يستجيب، فقبلها سيظل ملكها، وملك من اختارته هي.. ستدع الماضي الذي ضعفت فيه ورضخت له، وتستثنى نفسها من المستقبل، التي هي من أحداثه بريئة!

~~~~~

«استثنيني.. من قواعد العالم..

استثنيني من مظاهر الكون..

أنا لست مثلك، ولا مثلهم سأكون..

أنا شخصٌ غريب.. شخصٌ وحيد..

لنداء الحب.. لا أستجيب..

أنا شخصٌ فريد.. فلا تنتظري مني في يوم.. أن أستجيب..

لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلا لنفسي..

لن يأسري الحب يوماً.. لن أكون إلا لنفسي..

فاستثنيني من ماضٍ كنت فيه أنا ضعيف..

واستثنيني من مستقبل أنا من أحداته بريء..

استثنيني.. استثنيني.. دوماً وأبداً استثنيني..»

~~~~~

كم كان صوت إزالين عذباً.. ولدهشتني، انضمّ ظافر معها بالغناء بصوت عذب
أجش.. يرددان الكلمات مرة بعد مرة.. تغير صوت إزالين مختنقًا بالبكاء، لكنّها
تابعت، وتتابع ظافر الغناء.. وهمست أنا بـ:

- تملك صوتاً عذباً سمو الأمير...

وأغمضت عيني، مبتسمة بألم.. أتخيل الملكة تبكي بينما تفني آخر كلماتها
والتي ثبّتت بعقل صغيريها.. حتى الآن..

- اتركني! دعني أرجوك!.

استيقظت ليلاً بفزع على صوت تلك الصرخة، التي أطلقتها إيفي باستجداً..
لأجد أنتي ما زلت بغرفة الحكمة.. صوت إيفي كان بكابوس.. كم بدا صوتها
 حقيقياً!

بحثت عن سمو الأمير بعيني.. وناديت بضعف:

- ظافر...

استعدت وجه إيفي المذعور، فانتشر الذعر على وجهي ونهضت من فراشي
لأجد أمامي فراش إزالين، تمام بينما تحضن يد طراد الذي يبسم بشرود بينما
ينظر إليها.. تنهدت وناديت مرة أخرى، ظهر ظافر وجلس على المهد بجانب
فراشي وقال ليهديني:

- أي كابوس ترينـه الليلة ليس حقيقـاً... بل مجرد وهم وهو اجـس لا أكثر...

شهـقت شـهـقات مـتـقطـعة هـادـئـة بـينـما أـنـفـسـهـ بـهـدوـءـ.. وأـغـمـضـتـ عـيـنـيـ مـسـتـسـلـمـةـ
لـكـلـمـاتـهـ الغـرـيـبـةـ التـيـ سـحـرـتـيـ..

استـيقـظـتـ بـالـيـوـمـ التـالـيـ بـذـعـرـ، كـمـ رـأـيـتـ مـنـ كـوـاـيـسـ.. كـمـ شـعـرـتـ بـمـلـمـسـ
الـسـوـطـ الـمـلـكـيـ الـذـيـ تـخـيـلـتـ عـلـىـ جـسـدـيـ وـاـرـتـعـدـتـ.. بـحـثـتـ حـولـيـ عـنـ أيـ أـحـدـ،
فـوـجـدـتـ أـنـتـيـ أـنـاـمـ بـطـابـقـ العـرـائـسـ! تـعـجـبـتـ وـنـهـضـتـ، لـأـجـدـ ظـافـرـاـ يـجـلـسـ بـالـقـرـبـ
مـنـ شـرـفـةـ الـقـمـرـ، فـاقـرـبـتـ مـنـهـ وـهـمـسـتـ:

- ظـافـرـ.. أـنـاـ مـرـتـابـةـ.. هـلـ يـمـكـنـهـ تـأـجـيلـ دـخـولـيـ طـابـقـهـ؟.

هـزـ ظـافـرـ رـأـسـهـ نـفـيـاـ وـقـالـ بـأـسـفـ:

- لـنـ يـتـرـكـكـ...

شهـقتـ دـمـوعـيـ وـتـسـاءـلـتـ:

- الـأـمـيـرـ لـاـ يـقـبـلـ بـعـرـوـسـ مـذـنـبـةـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟.

أـوـمـأـ ظـافـرـ يـهـزـ رـأـسـهـ بـغـرـابـةـ، فـانـطـلـقـتـ أـقـيـ نـفـسـيـ بـيـنـ أـحـضـانـهـ.. أـلـسـ جـسـدـيـ
بـجـسـدـهـ، بـيـنـمـاـ خـلـعـتـ عـنـهـ قـنـاعـهـ وـاقـتـصـتـ شـفـتـيـهـ بـيـنـمـاـ أـهـمـسـ:

- لـنـ يـقـبـلـ بـيـ.. بـيـنـمـاـ أـحـبـكـ أـنـتـ ظـافـرـ...

أـمـسـكـنـيـ ظـافـرـ مـنـ خـصـرـيـ بـكـلـتـاـ يـدـيـهـ وـتـجـاـوبـ مـعـ قـبـلـاتـيـ الـحـارـةـ، وـهـمـسـ بـيـ:

- حـبـبـتـيـ...

تـأـوـهـتـ وـأـغـمـضـتـ عـيـنـيـ.. لـمـ أـظـنـهـ سـيـنـطـقـهـاـ قـطـاـ!



نهاية مذكرة تي =

– حببتي.. استيقظي!

أنت كلمة حبيبي مقتنة بالكلمة الأخرى.. ليست بصوت ظافر.. بل بصوت حليندا!

فتح عيني بصدمة وأقيت بجسدي للأمام بذعر، لأرى أنني ما زلت على
فرش المرضى بغرفة الحكيم، وبجانبي جليندا، تطلب مني أن أستيقظ!
تنهّدت ومسحت على وجهي.. إذاً ما رأيته كان حلمًا.. للأسف!

كم بدا كل شيء حقيقياً.. شعرت بأنفاسه تلفح وجهي بحرارة.. حرارة المشاعر
يُبَيِّنُنَا! كما شعرت بحرارة تلك القلادة الغربية التي يرتديها، تكوي عنقي وصدره
بِدِمْعَاهَا الحارقة.. ربما لأنَّه يخون حبيبه معنِّي؟ لا.. لقد قال أنتي حبيبة!

ربما رأيت هذا الحلم بسبب تفكيري المستمر بالأمر.. تفكيري بكوني هي!
نظرت على يميني فوجدت طرadaً يساعد إزالين على تناول الإفطار، وترفض
هي بشدة.. لأنّها يهمس لها بداخل عقلها:

رأيت وجهها تظهر حمرته المحببة على وجنتيها وأنفها الرقيق بينما تنظر له بخجل، فيبادرها هو ابتسامة واثقة مطمئنة، لتناول من يده الطعام! وكأنهما في عالمهما الخاص، لا يشعران بي، ولا يجليندا الواقفة بالقرب من فراشي!

نهضت بيضاء، وينتهي التوجُّس بحث عن ظافر.. شيء ما بداخلني يخبرني بأنه رأى حلمي فذهب بعيداً، كما أن هناك شيئاً أملاً بداخلني يخبرني بأنه لا يراني إلا العروس التي ستساعده على الأخذ بالثار وإعادة الملك له!

همست بغير وعي متسائلة:

- أين ظافر؟.

ضحكـت جلينـدا وقـالت بيـنـما تـجـذـبـني مـنـ يـديـ بـحـذـرـ:

- لا يـصـحـ أنـ تـسـاءـلـيـ عـنـ حـارـسـكـ فيـ يـوـمـ مـثـلـ هـذـاـ أـيـتـهـاـ الـأـمـيرـةـ!ـ أـنـتـ مـنـ اـخـتـارـهـ الـأـمـيرـ لـتـشـارـكـهـ وـقـتـهـ الـثـمـينـ..ـ لـذـاـ فـقـطـ اـهـتـمـيـ بـأـمـرـكـ!ـ

ارتـبـكـتـ وـنـادـيـتـهـ بـعـقـلـيـ:

- أـينـ أـنـتـ؟ـ أـنـ أـرـاكـ مـجـدـاـ!ـ

انـقـبـضـ قـلـبـيـ حـيـنـ تـخـيـلـتـ أـنـتـيـ لـنـ أـرـاهـ إـلـاـ بـالـثـوـبـ الـمـلـكـيـ،ـ وـالـتـاجـ الـمـرـضـعـ..ـ

نـظـفـتـ جـسـديـ بـالـنـهـرـ الـجـارـيـ وـسـاعـدـتـيـ المـاـشـطـةـ عـلـىـ التـزـيـنـ كـمـ رـفـعـتـ شـعـرـيـ بـطـرـيـقـةـ مـغـرـيـةـ تـبـرـزـ نـعـومـتـهـ كـخـيـوطـ الـحـرـيرـ الـأـسـوـدـ،ـ أـتـ مـعـلـمـةـ الـحـيـاـكـةـ بـأـكـثـرـ مـنـ تـصـمـيمـ لـلـمـلـابـسـ لـيـ،ـ بـيـنـمـاـ تـهـمـسـ بـتـشـجـيـعـ:

- فـتـاتـيـ الـمـوـهـوـيـةـ اـبـهـجـيـ!ـ سـتـكـوـنـيـ الـأـمـيرـةـ عـزـيزـتـيـ!ـ

ابـسـمـتـ بـوـهـنـ،ـ بـيـنـمـاـ المـاـشـطـةـ تـضـيـفـ بـعـضـاـ مـنـ الـلـوـنـ الـأـحـمـرـ إـلـىـ وـجـنـتـيـ..ـ

همـسـتـ بـدـاـخـلـيـ بـيـنـمـاـ أـشـاهـدـ انـعـكـاسـيـ بـالـمـرـآـةـ:

- كـمـ مـضـىـ مـنـ الـوقـتـ..ـ عـلـىـ رـؤـيـةـ انـعـكـاسـيـ الدـمـيـمـ؟ـ كـمـ مـضـىـ عـلـىـ مـعـاـلـمـتـهـ لـيـ كـخـرـفـةـ بـالـيـةـ؟ـ

تـنـهـدـتـ وـاسـطـرـدـتـ بـطـعـمـ صـدـئـ بـحـلـقـيـ:

- كم مضى على اكتشافِ تلك الكذبة؟ كوني جميلة.. يتم تجهيزها لتكون عروسَ الأمير، لا بل أميرة تشاركه وقته! قلبها ينبض له، بحبه، بعشقه! بينما لم ترِ إلا ظلّه!.

ضحكَت بسخرية من نفسي وأضفت:

- أما الآن وقد علمت من يكون، بمرضه وميوله الشاذة، كما علمت أن حارسي بدماء ملكيّة.. اكتشفت كوني قد خدعت.. نعم خدعت! قلبي لا ينتمي لأي من الأميرين، ليث، أو غيث.. الطبيبُ أم المريض.. بل ينتمي لحارس اسمه ظافر.. لكن، بما أنه قد تحول - بينما أُسْبِلَ أهدا بي مرتّة - لأمير وسِيم طيبِ القلب، سأهبه قلبي الدامي، سأضحي بما تبقى من نبض قلبي وقطرات دمائي ودموع عيني من أجله.. كما أراد مني دوماً، لا أكثر، ولا أقل!.

سقطت عبرة ثقيلة ساخنة من عيني فالقططتها الماشطة بمنديل قماشٍ أنيق قبل أن تفسد زينة وجهي الرقيقة، ربما كانت تتبع لمعانها بعيني منذ مدةٍ وبالرغم من ذلك تجاهلتها قائلة وبلهجة مازحة:

- لا تنسينا يا سموّ الأميرة!.

هزّت رأسِي بشرود، لا أعتقد أنتي سمعت أصلاً ما قالته، أو فهمت ما ت يريد مني أن أفهمه.. فقط همست بداخلِي، أوثق العهد غير المكتوب بيني وبين حارسي.. والإنسان الوحيد الذي دقّ له قلبي:

- ظافر.. أو ليث.. أيّا كان اسمك.. أميراً كنت أم حارساً.. ما أقدم عليه الآن هو بسبب حبي لك.. وإن توقف قلبي لهذا، سأكون أكثر من سعيدة لكون قلبك سينعم ببعض دقاتِ الرضا والراحة.. حتى إن كانت دقات قلبك الثمينة تنتهي لغيري منذ البداية!.

تنهّدت تزامناً مع انتهاء الماشطة من زينتي، ونظرت للفساتين في يد الخادمات، ولفت نظري فستان واسع باللون الأبيض.. اخترته فوراً.. حينما ذكرني بما كانت

ترتديه عرائس البرج العالى.. والملكة جينروز الجميلة.. كم كانت صافية به ونقيّة كما كانت بحياتها.. اخترت أن أرتدي هذا الفستان لتكون روحي نقية، حتى يأخذونى للبرج العالى دون الحاجة للانتظار.. في حالة لم يتحمل قلبي العاء.. وتوقف..

خرجت من غرفة الماشطة بهدوء ظاهري، مبتسمة تحيةً من ينادونى ويتمنون لي التوفيق، خادمات ساعدنى من قبل، خادمات الماشطة، مساعدات كبيرة الطهاة، الفتىّات بالمطبخ.. الحكيمه ومساعدها.. حتى إنّي رأيت طراداً يقف خارج غرفة الماشطة، إزالين مستندة لجذعه القوي بيديها وتلوّح لي مبتسمة، وهزّ هو رأسه لي بتأكيد.. كم بدوا واثقين من كونى سأصبح الأميرة! وكم بدت واثقة بأنّ هذا سيكون آخر يوم لي بهذا العالم!

من الواضح أنّ الساحر لم يخبرهم بأي شيء! كيف ينظرون لي بهذا الفخر، ويعيونهم اللامعة بكوني سأصبح أميرة غيّث؟ كيف ذلك!

رفت رأسي لأصعد لطابق الأمير، بينما أتمنى أن التقي بظافر أمام باب طابق الأمير.. فابتسمت عيناي وقلت بتلقائية، أجرّب صوتي حينما أراه:
- كنت متأكّدة من كونى سأراك فور وصولي!.

تخيلت أنه يمدّ يده إلى ساعته الرملية الغريبة قائلاً:

- تلك الساعة، غالىة جدّاً على قلبي...

تابعت التخيّل، لأنّه يصمت للحظة ثم يستطرد:

- لطالما قضيت أمامها وقتى، أنتظر وأنظر.. لكن بوجودك الآن جاهزة لمقابلة الأمير، ليس على الانتظار أبداً...

أعطاهما لي، فتخيلت أنّي أخذتها بتردد وأمس أصابع يده الدافئة بيدي، بينما أقول وقلبي ينづف ألمًا:

- يبقى عليك انتظار حبيبتك.. لمشاركة حياتك الجديدة!.

شعرت بأنني أرى ابتسامة عينيه، فابتسمت لسعادته وكتب دموعي.. وتحركت نحو الطابق، الذي لم يكن على بابه إلا حارسين.. ولم يكن ظافر واحداً منهم!

انسحب الحارسان، ولم ينسيا أن ينحنيا لي بأدب.. فبقيت وحيدة أمام هذا الباب المهيب.. داكن اللون، تتبعث منه رائحة غريبة، زكية لكن تزال غريبة، ترسل لقلبي دقات غير مطمئنة، وانقباضات ملائعة بمعدي..

طرقت أنا الباب، وكان مفتوحاً.. ترددت بالدخول، إلا أن فضولي جعلني أدفع الباب وأخطو أولى خطواتي للداخل.. لأجد نفسي بممر مظلم، لا أعلم إن كان عريضاً أم لا، تفاصيله كلها قد ابتلتها السواد بمهارة، لكنني اكتفيت بأن سرت بخطوات هادئة مستقيمة، بينما أمد ذراعي أمامي، الور بكتي أمام وجهي ككيفية باسأة.. شعرت برجفة ما تسرى بجسدي، جعلتني أفتح عيني على اتساعهما.. لأشعر ضوءاً خافتًا على شمالي، فاتجهت إليه، وحين أصبحت قريبة، ابتعد الضوء قليلاً.. فتوقفت بحذر لابتعاده عنى كالسراب، وتنهدت قائلة بصوت ناعم:

- لقد أتيت سمو الأمير...

لقد أتى صوتي مرتجاً قليلاً، به نبرة مختلفة عن كل مرّة مضت، من ما جعله غريباً علي.. واعتقدت أنه لا يمثّل إغراء بصلة!

- جعلتني أنتظر كثيراً.. يا جميلتي...

ارتجم بدني واهتزّ بوضوح حين سمعت عبارته بصوته العميق، ورغمًا عنى استشعرت بالخباثة بين ذبذباته الهاوئة.. على عكس صوت ظافر المريح، الذي يبيث الهدوء لقلبي..

شعرت بالطعم الصدئ يظهر جلياً بحلقي، فابتلعت تلك الفحصة المريرة الخفية وجلست مكانى كما أخبرتني جليندا.. وانحنىت برأسى للأسفل قائلة بغرابة:

- أعتذر منك سموّ الأمير...

غرابة ما تقوّه به لأنّي لم أتأخر قط، لقد انتهيت بالوقت المناسب و كنت أقف
على بابه!

وقتها شعرت بحركاتٍ خفيفة، حتى انتهت بلمسةٍ شعرية.. فأغمضت عيني
مرتعدة حين تخيلته يجذبني من شعرِي الناعم فجأة.. لكن لدهشتني، وجدته فقط
يمسّدَه ويمسح عليه بيطء.. فتنهّدت بخفاء، وقلبي يخفق بعنف.. ربما لن يبدأ
بالقصيدة.. يمكنه التلاعُب بي كما يشاء، فهو الأمير الذي يأمر وينهي!

ووجدت صوته يسألني:

- أتعلمين لم الظلام حالك هكذا؟.

زاد صوت تنفسِي وأجبته نفياً:

- لا سموّك.. لست أدرِي!.

سمعت صوت ضحكته الهادائة التي جعلت القشعريرة تسرى بجسدي.. ومن
بعدها نبرته الغريبة:

- لاذّكْر بـأول مرّة رأيتني بها.. كان فقط ضوء القمر يضيئ تاجي اللامع..
وبافي جسدي دامس اللون.. أسود كالظل...

تذكّرت ذلك اليوم الذي رأيته به، فرفعت وجهي له بتساؤل، لأجدَه قد قرّب
الشمعة من وجهي فرأيته كما قال، كالظلّ، يهمس بجانب أذني:

- أعلم بأنك يومها تطلعت للنظر إلىّ، إلى ملامحي.. وسماع صوتي؛ شعرت
بذلك! لذا، أردت أن أجرب هذا الشعور! وها أنت أمامي كما تخيلت
بالضبط!.

هزرت رأسي بفهم ولم يخف اهتزاز جسدي عنه قط. عقلي يخمن الخطوة التالية، إلا أنني شعرت بشيء ساخن على ذراعي الموضوعة بانصياع على فخدي، أّسعت عيني وكمت تأوهي، وبيدي الأخرى لمست موضع الألم، وتقاجأت حين لمست يدي شيئاً دافئاً متجرّداً، رفعته إلى عيني، وعلى ضوء شمعته الواهنة.. أدركت ما هو، فكتمت صرختي المتقاجئة لأجده يهمس باستكار:

- لا تكوني صامدة هكذا.. عّبّري عن ما بداخلك.. كما فعلت!.

زاد صوت أنفاسي وظهر الذعر بصوتي حين همست بـ:

- سموّ الأمير.. الشمع.. لقد سال منه علىّ.

كنت أعتقد أنه لا يقصد هذا، حتى سمعت صوت ضحكته المكتومة، والتي سرعان ما تحولت إلى ضحكات عالية أُجفلتني.. أغمضت عيني وهمست برجاء بداخلي بينما أتحسّس موضع الألم أخفّه:

- أتمنى أن ينتهي هذا سريعاً.

نفخ الشمعة بأنفاسه الهدئة الباردة ليطفئها، وأمسك بيدي بالظلام، ليجعلني أستقيم واقفة.. وجذبني بهدوء لأسير خلفه، لمكان آخر بالطريق..

شعرت بأنّنا نعبر ستاراً خفيّاً، كان له على وجهي ملمس الأشباح، فاقشعرّ بدني مرّة أخرى، وشهقت أنفاساً مرتعبة..

دخلنا لغرفةٍ ما، فأبعد الأمير يده الباردة من فوق معمصي، ليذهب ويُوقد الضوء.. فجأة وجدت أن الغرفة مضاءة بثريا كبيرة بالأعلى، ثريا عظيمة بها عدد كبير من الشموع.. وبِمُجَرَّدِ أنْ هويت بنظري من عليها وجدت سريراً خشبياً موضوعاً أسلها، وقتها فقط، أدركت أن هناك حبلاً يتسلّى من الثريا!

لاحظ الأمير ارتباكي فقال:

- خمسون شمعة.. يسقط ما ذاب منها على جسد من أريد...

شهقت بذعر وأمسكت بالجزء المحترق من ذراعي، فضحك هو ضحكة متلذذة
فائلاً:

- لعبة جديدة.. لكنها لم تعجبني قط، تهـي دقات قلب الفتاة في أقل من
عشر دقائق، لم تحتمل أيّ منهن أكثر من هذا.. لأحرم أنا من صوتهن
العذب بالتوسل والاستجاء!

وضعت يدي على قلبي بذعر بينما أتفقد باقي محتويات الغرفة المريمية.. وجدت
أكثر من سوط معلق على الحائط، أدوات بدائية للتعذيب وأيضاً ألواح خشبية بها
مقابض للايدي والأقدام.. تلك التي انتهت بها حياة الملكة وابنتها!

نظر لي الأمير متلذذًا بنظرـة الذعر بعيـني، وكم كرهـت هذا! أخفـيت مشاعـري
تلك حول قناع رخيـص ووقفـت مـمشوقة الجـسد بـثـقة مـصـطـنـعـة، أـنتـظرـ نـهاـيـةـ هـذـاـ
الـأـمـرـ.. كـمـ تـخـيـلـتـ ماـ فـعـلـهـ بـالـعـرـائـسـ.. وـكـمـ تـمـنـيـتـ أـنـ يـكـونـ جـزـأـهـ منـ جـنـسـ عـمـلـهـ،
ليـعـتـبـرـ كـلـ قـلـبـ قـاـسـ بـهـذـاـ عـالـمـ!

شعرـتـ بـهـ يـقـرـبـ، حـتـىـ تـوـقـفـ أـمـامـيـ مـبـاـشـرـةـ، لـمـ أـنـعـنـ بـرـأـسـيـ هـذـهـ مـرـّـةـ أـيـضاـ،
كـفـيـ اـنـحـنـائـيـ لـهـ عـنـ الـبـابـ..

- تلك النـظـرةـ بـعـيـنـيـكـ عـزـيزـتـيـ.. تـشـعـرـنـيـ بـالـشـوـرـةـ!..

قال آخر كلمة متأوهـاً بـحـمـاسـ فـظـرـتـ لـهـ بـغـيـرـ فـهـمـ، وـتـرـكـنـيـ هـكـذـاـ، أـخـمـنـ
المـقـصـودـ مـنـ مـاـ قـالـ، وـأـسـاءـلـ عـنـ أـيـ نـظـرةـ يـقـصـدـ!

دارـ حـولـيـ بـيـطـاءـ مـدـرـوـسـ، يـنـهـشـ بـعـيـنـهـ كـلـ ذـرـةـ بـيـ، بـيـنـمـاـ عـبـاءـتـهـ الـمـلـكـيـةـ الـحـمـرـاءـ
الـنـاعـمـةـ تـخـدـشـ ذـرـاعـيـ النـاعـمـيـنـ إـلـاـ مـنـ الـبـقـعـةـ الـحـمـرـاءـ الـمـجـعـدـةـ مـنـ نـقـطـةـ الشـمـعـ
الـخـبـيـثـ..

- أـحـبـ نـظـرةـ الـخـوـفـ، الذـعـرـ، مـعـ بـعـضـ دـمـوعـ الـأـلـمـ.. لـكـ حـينـ رـأـيـتـكـ.. رـأـيـتـ
تـلـكـ النـظـرةـ بـعـقـمـ عـيـنـيـكـ الـجـذـابـيـنـ، تـشـعـرـنـيـ بـأـنـتـيـ قـدـ أـتـخـلـىـ عـنـ هـذـهـ
الـهـوـاـيـةـ فـدـاءـ لـهـمـاـ!

عُبَسَتْ بِتَوْجُّسٍ لَمْ أَسْتَطِعْ إِخْفَاءِهِ.. وَفِجَاءَ وَجْدَتِهِ يَجْذِبُ ذَرَاعِيَّ خَلْفَ ظَهْرِيِّ،
أَظْنَهُ يَحْاولُ تَكْبِيلِيِّ! وَتَذَكَّرَتْ كَلْمَاتُ ظَافِرٍ، بِأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِعْ فَعْلُ هَذَا، فَأَخْفَضَتْ
رَأْسِيَّ أَمْثَلَ اِنْصِيَاعِيَّ لِلْأَمْرِ وَانْتَظَرَتِ النَّتِيْجَةِ، إِلَّا أَنْتِي قَبْلَ أَنْ أَغْمُضَ عَيْنِيَّ لَمْحَتْ
شَيْئًا يَلْمَعُ بِالْقَرْبِ مِنِ الْسَّتَارِ الْأَحْمَرِ الْقَانِيِّ.. وَيَقِنَّ أَقْلَ منْ ثَانِيَةٍ اسْتَدَرَتْ بِرَأْسِيِّ
قَلِيلًاً وَعَيْنِيَّ مِثْبَتَانِ عَلَى تِلْكَ النَّقْطَةِ الْلَّامِعَةِ بِالْسَّتَارِ.. هُلْ هُوَ الْقَمَرُ مِنْ خَلْفِ
الْسَّتَارِ؟ أَمْ إِحْدَى نَجْوَمِهِ الْمُفَقُودَةِ؟ ظَهَرَتْ بِجَانِبِ الْمَغْرُورِ لِتَشَهَّدَ اِنْتِهَاكَ هَذَا
السَّادِيِّ لِحَرْمَةِ كِرَامَتِيِّ؟

بَدَا الضَّبَابُ الرَّمَادِيُّ يَتَكَوَّنُ حَوْلَ تِلْكَ النَّقْطَةِ الْلَّامِعَةِ الْمُتَوَهَّجَةِ، وَالَّتِي لَمْ
يُلْحَظُهَا الْأَمِيرُ الْوَاقِفُ خَلْفِيِّ حَتَّىَ الْآنِ. بَدَأَتْ أَرْيَ الضَّبَابِ يَكُونُ صُورَةً مَا، لَمْ
أَسْتَطِعْ التَّرْكِيزُ عَلَيْهَا لِكَوْنِ الْأَمِيرِ اِفْتَرَبَ مِنِي جَدًّا.. نَظَرَتْ لِقَسْمَاتِ وَجْهِ الْأَمِيرِ
غَيْثَ، لَأَرَى أَنْ عَيْنِيَّ تَضَعَّفَانِ بِالْخَبْثِ وَالْدَّنَاءَةِ، تَنْتَظَرَانِ لِشَفَتِيِّ بِشَهَوَةِ ذَئْبِ
جَائِعٍ.. فَضَمَّتْ شَفَتِيِّ بِقُوَّةِ مَرْتَعِشَةٍ.. وَفِجَاءَ اِكْتَمَلَتِ الصُّورَةُ عَلَى السَّتَارِ.. لَأَجْدَ
أَنَّهُ شَخْصٌ يَقْفَ مُتَرَبِّصًا.. لَا.. لِيْسَ شَخْصًا.. بِلْ إِنَّهُ قَابِضُ أَرْوَاحِ!



- ظَافِرِ!

شَهَقَتْ رَغْمًا عَنِي حِينَ وَجَدَتِهِ يَنْقَضُ عَلَى جَسَدِ غَيْثَ، وَبِخَطْوَةِ وَاحِدَةٍ حَائِمَةٍ
فِي الْهَوَاءِ كَانَ قَدْ ثَبَّتَهُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْأَلْوَاحِ الْخَشِيبَيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَابْتَدَأَ لِيَطَّايرُ
الضَّبَابُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّىَ اِخْتَفَى، بَعْدَ أَنْ كَوَنَ صُورَةً وَاضْحَىَّ، لِشَخْصٍ يَتَشَحَّدُ السَّوَادَ
حَتَّىَ عَلَى وَجْهِهِ.. فَمَنْ يَقْفَ بَيْنِي وَبَيْنِ الْأَمِيرِ غَيْثَ الْآنِ.. هُوَ حَارِسِيِّ.. ظَافِرِ..
وَلِيْسَ سَمَّوْ الْأَمِيرُ لِيَثُ كَمَا تَوَقَّعْتُ!

شَعَرَتْ بِدَقَّاتِ قَلْبِيِّ الْخَائِنَةِ تَدَقُّ بِحَبْهِ مِنْ جَدِيدٍ، تَكَادْ تَقْتَلُ صَدْرِيِّ سَعَادَةً
وَشَوْقًا لِرَؤْيَتِهِ، لَقَدْ أَنْقَذَنِي لِلْتَّوْمَنِ قَبْلَةَ خَبِيَّةَ مِنْ شَقِيقَهِ.. وَعَدُوَّهُ يَنْفُسُ الْوَقْتِ..

- أيها الحقير! كيف تجراً على الدخول متسللاً من النافذة!.

قالها الأمير غيث بغضبٍ مكتوم، ليتحرّك ظافر ليقف أمام وجهه بالضبط، ويهمس بشيءٍ جعل القشعريرة تسرى بجسدي:

- وكيف تجرأت أنت على ملاً العالم بخطاياك؟.

للتتو.. لاحظت أن صوتهما كان متقارباً، لكن شتان بين النبرتين! نبرة دافئة عميقه.. ونبرة خبيثة خادشة!

حاولت النهوض، لكن هواجي بداخلي ثبّتني أرضاً، وجعلتني أرافق كل شيء من موقعي.. هواجي التي تحصر في الخوف والتوجّس من رؤية وجه حارسي الذي وقعت بعهده.. ومن رؤية وجه مولاي الأمير، الذي ساعدته بقلبي..

وحدث ما خشيت رؤيته.. خلع ظافر قناعه.. ورأيت أنا انعكاسه الدميم بوجه أخيه، الذي استحال لون وجهه للأحمر القاني الغاضب، ونفرت عروقه الزرقاء المقتحمة لجبهه وعنقه.. وابتسمت أنا بتأثير أحمق.. أهكر في حظي الذي دوماً ما يخفي عني وجهه.. إلى متى سأظل أقارنه بوجه غيث؟ ولم أر ليثا مرّة؟

- كيف! كيف هذا! ما هذا الهراء!.

قالها الأمير غيث المكبل من معصميه وساقيه بدهشة جعلت كلماته تخرج غير متزنة بالبداية.. إلا أن صوته بعدها أصبح كصوت حورية لعينة، تهمس من عمق البحر لآذان الواقفين على الشاطئ..

- كيف حالك يا.. شقيق؟.

سمعت ليثا يقولها باستنكار، خصوصاً الكلمة الأخيرة، وقد جعل هذا قلبي يدق ويهوي..

وفجأة لاحت عيني ضوءاً شديداً، فوجدت ظافراً قد رسم بيديه في الهواء شيئاً ما.. يعرضه على غيث الذي جحظت عيناه بصدمة.. وكان ما يعرضه عليه هو

ذكرى اليوم الذي تخيلته أنا مراراً وتكراراً.. ذكرى يوم توقف قلب ملكة وأميرة،
بفعل ضربات سوطٍ هوجاء.. من طفلٍ مظلمٍ للقلب!
- أتذكّر هذا اليوم أخي؟ أشك في هذا!.

اتّجه لغيبٍ وجذبه من شعره الداكن المماثل لشعره وصرخ به بقوّةٍ ليث هادر:

- ارفع وجهك واسهّد على ميلاد ذلك الكائن الدّنيء بداخلك!.

ترك وجهه بقوّةٍ، واتّجه لسوطٍ أسودٍ قويٍّ، معلقٍ بالجدار، أمسكه بيده واقترب منه ببطءٍ، فلمح جانب وجهه، وكانت عيناه لامعتين.. لكنهما قويتان في نفس الوقت.. وقف أمام شقيقه والصورة القديمة تلوح فوقهما كالغيوم الملبدة..

ساد الصمت للحظة، قبل أن يمزّقه صوت السوط الذي ضرب الجسد المكبّل
أمام عينيٍّ، فشهقت بصدمة قائلة:

- ظافر لا تفعل!.

قتلتها رغمّاً عنّي.. بلا مراعاة أنتي أخاطب الأمير، فقط قلتها خشية عليه.. لا أريد للانتقام أن يعمّيه.. لا أريده أن يُصاب بتلك الميول الدينية كما أصيّب شقيقه
قدِيمًا!

فعلها أكثر من مرّة بمنتهى السهولة، وكأنه قد تدرّب على هذا كثيراً، وهدر في
مرّة:

- عِش المعاناة.. أحّبّها كما أحبّت أن تذيقها لغيرك!.

وسمعت صرخات غيث القادمة من بعيد تعلو، وتنير الرجفة بقلبي، رفعت عينيٍّ
ب بينما أنظر للصورتين أمامي.. صورة شابّين.. وصورة طفلٍ أمام وردين يافعتين..
فسقطت دمعة من عيني.. وحين بلّلت عبرتي الأرض توقف ليث!

ولدهشتني، وجدته ينظر للأعلى، وما هي إلا ثوانٍ حتى جذب تلك الصورة
المؤللة المتحركة فوقهما، ليحيل بينها وبين شقيقه.. لأرى أن الملكة جينروز وأميرتها

الصغيرة قد اختفيتا من الصورة، ومن تبقى مكبلاً بالألواح هو فقط الأمير غيث!
وأن من يضرب بالسوط هو نفسه... غيث.. الطفل السادس!

شهقت بذعرٍ وقلبي يتمزق، وباتت مطالبي للهواء أمراً ضروريّاً، لصعوبة
دخول الهواء لرئتي!

أغمضت عيني الدامعة بألم.. وهمست بينما أشهمق أنفاسي بصعوبة المشهد
أمامي:

- ق.. قلبي.. ي.. يتوقف...

ومع تزامن خفوت دقات قلبي، همست بداخلني بـ:

- ظافر.. لا تنخدع بخفوتو دقات قلبي.. سيظل دوماً ينبض باسمك.

فجأة التفت إلى ظافر.. لا.. بل الأمير ليث، وقد رأيته يرتدى الزيّ الملكي..
حتى التاج على رأسه.. كيف حدث هذا! هل أتخيل؟ كم يبدو أنيقاً متناسقاً مع
جسده القوي.. وكم بدا وجهه وسيماً! يذيب القلب كما تخيلته!

لم أكن لأؤمن أكثر من هذا بلحظاتي الأخيرة.. من أحببت، يقترب مني بلهفة،
يحاصر ملامح وجهي بلون المحيط، بينما شفاته تهمسان باسمي..

بصعوبة رسمت على شفتي ابتسامة هادئة جميلة.. لم أرد أن أرى نظرة القلق
تلك بعينيه قط..

- لقد فعلت هذا من أجل أن أراك مرتاحاً راضياً.. فلن كذلك أرجوك!

هو جسدي ببطء، تجذبني الأرض تريد احتضاني.. إلا أني سقطت بين
ذراعين قويتين، أعرف دفنهما حقّ المعرفة.. أسمع دقات قلب حارسي ومولاي
بالقرب من قلبي الذي اخفت دقاته، حروف اسمي تخرج دافئة لأذني ببطء من
بين شفتيه.. وفجأة خفت كلّ شيء.. صمت كل شيء.. واسود كل شيء.. كسواد

أول ليلة مظلمة رأيتها بهذا العالم، لأدرك أن الظلام قابع بداخلي أنا.. لقد سكنت
دقّات قلبي تماماً، وانتهيت!

جحظت عيناً الأمير ليث بينما يراقب شحوب تلك الجميلة بين أحضانه..
لا حول لها ولا قوّة، مسح على شعرها الناعم بيديين مرتعشتين، يهمس بعبارات
الأسف بالقرب من أذنها بينما يشدّد من احتضانها..

- إليونورا.. لا أريدك أن تسامحيني.. كم كنت أنانّياً، نعم كنت كذلك حين
رفضت التصريح بما أشعر به أمامك ولو لمرة!.

رفع يدها الناعمة، والتي بدأ الدفء يرحل عنّهما شيئاً فشيئاً، إلى صدره..
على موضع قلبه بالذات.. وهمس بأذنها مغمض العينين:

- هذا القلب شعر بكل ما شعرت به.. ولم يطمئنك بذلك يوماً!

صوت صرخ أخيه المكتوم يأتي من خلفه متزامناً مع صوت كل ضربة سوط
أحدثها الطفل الصغير أمامه، صوت الفتاة التي يرثا جسدها الساكن على صدره
يلوح بعقله بين الحين والآخر.. تهمس باسمه.. تحدّثه.. صوت ضحكاتها.. مروراً
بصوت حديثها لنفسها.. حتى صوت شهقتها الأخيرة!

تركها من بين يديه بألم، ليرتاح جسدها الرقيق على الأرض الباردة.. أسبل
أهدابها بعد أن ودع عينيها بقبة من عينيه.. واللتقت ببطء لأخيه الذي ينال قسطاً
من العذاب لا رحمة به، وهدر بكل ما به من مشاعر غضب ناجمة عن فراقها:

- أفقدتني أسرتي.. أمي وأختي.. وحبيبي!.

أخذ نفساً مرتعشاً إلى رئيشه ثم هدر بصوته الذي زلزل القلعة كلّها:

- سأنهي قلبك الخبيث بيديّ!.

اقترب منه وأزال صورة ذلك الطفل الممسك بالسوط بقسوة، دافعاً إياها
بمقبرة الزمن بعقله الباطن، وأحاط يديه حول أخيه المعدّب وتمتم ببعض الكلمات

الخافطة وبين شفتـيـه بغضـبـ مـاردـ خـرـجـ لـلـتـوـ منـ قـمـقـمـهـ، ليـختـقـيـ جـسـدـ الـأـمـيـرـ غـيـثـ
بـشـوـالـ بـاهـتـ اللـوـنـ، تـزـامـنـاـ معـ ظـهـورـ تـلـكـ الفـقـاعـةـ الـكـبـيرـةـ حـوـلـهـ.. وـالـتـيـ بدـأـتـ تـمـتـلـئـ
بـالـمـاءـ بـكـلـمـاتـ الـأـمـيـرـ الـحـقـيقـيـ.. رـغـبـةـ مـنـهـ بـجـعـلـهـ يـتـذـوقـ مـاـ ذـاقـهـ هوـ مـنـ عـذـابـ..
انتـقـاماـ لـكـلـ مـنـ تـوـقـفـ قـلـبـهـ بـسـبـبـهـ..

ظلـ يـرـاقـبـ ذـلـكـ الـذـيـ يـتـمـلـلـ دـاـخـلـ الشـوـالـ بـالـمـاءـ، يـحـاـوـلـ تـخـلـيـصـ نـفـسـهـ مـنـهـ
لـيـنـجـوـ، وـتـذـكـرـ هـوـنـفـسـهـ ذـلـكـ الـمـوـقـفـ، حـيـنـ كـانـ يـعـاـفـرـ بـالـتـقـاطـ أـيـ أـنـفـاسـ مـنـ الـهـوـاءـ
لـرـئـيـهـ الصـغـيرـتـيـنـ، إـلـاـ أـنـ الـمـاءـ كـانـ يـيـدـلـهـ يـقـيـقـةـ كـلـ مـرـةـ.. حـتـىـ كـادـ أـنـ يـخـتـقـ..

رـفـعـ يـدـهـ يـمـرـرـهـ بـيـنـ خـصـلـاتـ شـعـرـهـ بـغـضـبـ حـتـىـ إـنـهـ كـادـ أـنـ يـقـتـلـهـ.. وـظـلـ
يـهـمـسـ بـدـهـشـةـ وـغـيـرـ تـصـدـيقـ يـيـنـمـاـ يـنـظـرـ لـتـلـكـ الـتـيـ فـقـدـهـ:
- لـقـدـ اـخـفـتـ مـنـ عـالـيـ الـأـخـرـ كـمـ اـخـفـتـ سـابـقـاـ! لـمـ تـعـدـ مـوـجـودـاـ!.

ضـرـبـ فـقـاعـةـ الـمـاءـ الـقـوـيـةـ بـيـدـيـهـ بـغـضـبـ وـهـدـرـ بـنـفـسـهـ لـائـمـاـ:
- اـنـصـرـفـ عـنـهـ بـالـاـنـقـاطـ.. وـهـاـ هـوـ الـقـدـرـ يـنـتـقـمـ مـنـهـ بـدـلـاـ مـنـ ذـلـكـ الـحـقـيرـ!ـ.
أـسـبـلـ أـهـدـاـبـ وـاضـعـاـ يـدـهـ عـلـىـ قـلـبـهـ.. مـتـذـكـرـاـ أـخـرـ مـاـ قـالـتـهـ هـيـ لـهـ:

- لـقـدـ فـعـلـتـ هـذـاـ مـنـ أـجـلـ أـنـ أـرـاـكـ مـرـتـاحـاـ رـاضـيـاـ.. فـكـنـ كـذـلـكـ أـرـجـوـكـ!ـ.
ضـرـبـ قـلـبـهـ بـيـدـهـ بـقـوـةـ وـهـوـ يـهـمـسـ مـتـسـائـلـاـ وـكـأـنـهـ يـحـدـثـهـ:
- كـيـفـ؟ كـيـفـ؟

شـعـرـ بـخـطـوـاتـ خـافـتـةـ مـنـ خـلـفـهـ، فـاـسـتـدـارـ بـسـرـعـةـ، مـتـمـنـيـاـ أـنـ تـكـونـ هـيـ.. لـكـ
كـيـفـ؟

اـتـسـعـتـ عـيـنـاهـ حـيـنـ وـجـدـ أـنـهـ السـاحـرـ!
- لـاـ تـحـزـنـ بـنـيـ.. اـنـتـهـتـ أـيـامـ الشـرـ وـانـقـضـتـ.

نظر الأمير ليث بعمق عيني الساحر، فتذكّر تلك الأيام التي قضتها تحت سقف بيته البسيط، والذي لم يكن ليخرج منه إلا للتدريب، أو للتنقل والذهاب للحياة.. لرؤيتها!

التفت الساحر لفتاة الناعمة الغائبة روحها أرضاً، وهمس بـ:

- احترت بوصف هذه الفتاة...

انطلق ليث قائلاً بوجوم:

- مضحية...

تنهد ثم استطرد:

- ضحّت بحياتها، وبعالها الآخر من أجل من تحب...

ابتسم الساحر مربّتاً على كتف الأمير.. ثم تحرّك لحمل جثمان الأمير..
غيث.. الذي توقف قلبه..

قال الساحر بهدوء:

- سيلتحق الأمير بوالده.. لقد جهزت قبره بنفسي...

أزال تلك الفقاعة الكبيرة بمياها، وأخرج الأمير من ما هو موضوعٌ به، وقال بثقة:

- أن تسامح شخصاً هي الحكمة.. لكن أن لا تسامحه في حالة عدم تغييره فيما بعد، هي الأكثر حكمة...

هزّ ليث رأسه بشرود.. بينما لسان حاله يقول:

- لم يكن ليتغّير.. لقد تأكّدت من قلبه القاسي...

عدا الساحر يخرج حاملاً جسد الأمير ليقوم بدفعه، بالمقابر التي لا تقام إلا للملوك والأمراء.. وقبل أن يعبر من باب الطابق، قال:

- ما هي إلا دقائق وسيكون الجميع بالغابة.. ينتظرون كلمتك سمو الأمير...

انقبض فك ليث، وأغمض عينيه متنهدا حتى انغلق الباب.. فرفع يديه وبحركة واحدة من إصبعه تغيرت ملامح الطابق.. وغرفة الأمير، لغرفة أكثر هدوءاً وجمالاً..

اتجه إلى فتاته الجاثية أرضاً.. حملها بين ذراعيه بأسى، ووضعها على فراشه.. وجلس بجانبها، ممسكاً بيدها.. عز عليه داعها.. كما عز عليه رؤيتها تتذبذب في كل مرّة أخفى عنها حقيقته..

شعر بحرارة غريبة تأتي من قلبه.. فمد يده بجib ملابسه وأخرج تلك القلادة السوداء أسطوانية الشكل، والتي استحال لونها الخارجيّ للون الشفاف وظهر ما بداخلها.. فابتسم بحزن وشروع.. وما هي إلا لحظة وتذكّر شيئاً ما.. عبارة قديمة قالها الساحر الذي تبناه بفترة ابتعاده عن القصر:

- تلك القلادة بُنيَ.. هي تميمة.. تحفظ.. تمنع.. وتعيد ما عجز الزمن عن إعادته.. وبما أن بها قلب من تحب، ودموع حزنك عليها.. ستجد الطريق إليها دوماً...

وتذكّر تركه لها بعد رقصة الوداع، والتي بكى لفراقها وذرف دموع الألم، كما تذكّر لحظة شقّ صدرها والوصول لقلبها.. قلبها البريء الصافي.. تذكّر أخذها قطعة من قلبها بأظافرها كقارب أرواح، ووضعه في تلك التميمة، تذكّر ريه لقطعة قلبها بدموعه.. وكتابته على صدرها سبب موتها، نقشاً بأظافرها فوق قلبها، والذي شعر بخدشه بجسده لا بجسدها:

- ماتت في سبيل من تحب...

لم يرد أن يعلم أحد أي شيء عنها.. فمحى ما كتبه، ونقش بإيجاز:

- مقتولة...

ثم طبع قبلة على شفتيها ليبيل وجهها بدموعه، وحين شعر بالحارس يأتي ليأخذها للزنزانة، نظر إليها ملياً، وحول دموع عينه على وجهها لآثار بغية، بقع وتشوهات.. وهمس بتأثر:

- آسف حبيبي.. لكن لن أسمح أن تكوني لغيري!.

ودعها بينما هي محمولة على جواد الحارس المبعوث من القصر وهمس بلمعة عينيه بعينيها المغلقتين:

- سأنتظرك دوماً.. يا أميرتي الاستثنائية...

أفاق من شروده ليلا حظ تلاحق أنفاسه.. ولع أمامه الحل!

مزق طرف فستانها الأبيض لتنكشف رقبتها المرمرية أمامه، وبعض
الستيمرات الأخرى من جسدها الأبيض الذي استحال للشحوب.. أغمض عينيه
وتحين فتحهما معاً واحدة فقط.. اليسرى.. وظهرت بيده اليسرى مخالب طويلة
فاسية، وبقلب دام، شق صدرها فوق قلبها بحدٍر.. حتى انكشف قلبها أمامه، بلونه
المائل للبياض، وقد بدأت الدماء به ومن حوله تجف وتتبخر.. تنهَّد بأمل وبيده
الأخرى أخرج قلادته.. تميّتها.. فتح غطاءها وسكب ما بها فوق صدرها..
دمويَّه.. وقطعة من قلبيها!

رَاقِبٌ تَشَرِّبُ قَبْلَهَا هَذَا السَّائِلُ الشَّفَّافُ الْلَامُ، وَهَمْسٌ يَأْمُلُ:

- استيقظي أميرتي.. لن أحتمل فراقك!.

مسح على موضع قلبها ليعود كما كان، ومسح بيديه البشرىتين على جسدها بحركات خفيفة دون لمسه، متمتماً ببعض الهمسات الخافتة المسحورة؛ ليتحول ما ترتدية لأجمل التحف الفنية جمالاً.. قماش بلون آخر غير الأبيض، مضيقاً إليه لمسات من اللون الذهبى بنعومة، أصلاح التجعد البسيط بذراعها بلمسة واحدة من أنماطه شاتماً من كان السبب، ذلك التجعد المحمر الذى تركه أسود القلب عليها

بسمعته الذائبة.. لمس شعرها متخللاً إِيّاه بأصابع يده حتى أعاد حيوّته إِلَيْه،
ورسم فوق رأسها تاجاً.. ليظهر أَمَام عينيه كما تخيله بالضبط.. تاج أميرته..
تاج حبيبته..

- إِليونوراً.

ناداها بلهفة حين شعر بعينيها ترتجفان.. وفجأة ظهر لونهما الذهبي أَمَام
عينيه!

سمعت قلبي ينبض من جديد، كما أشعر بدفع غريب يجتاحني.. التقطت أولى
أنفاسي منذ فترة، وفتحت عيني.. لأنّقط بيصري تاجاً مرصعاً.. تاج الأمير.. كم
يبدو مختلفاً.. زواياه غير حادة كملمس التاج على غلاف آخر كتاب نويت قراءته..
مهلاً.. هل ما زلت حيّة؟!

شهقت بدھشة حين رأيتها، ينظر لي بكل الشوق الموجود بالعالم.. تلمع عيناه
الزرقاوں لتغرقاني حبّاً بموجاته الناعمة.. تبتسم شفتها لي.. لأجد أنتي أنظر
لأكثر الرجال وسامة على وجه الأرض!

تأوهت بغير تصديق، ناطقة باسمه:

- ظافر!

وللحظة تذكّرت مكانتي، فأخفضت رأسي قائلة بخشوّع:
- سموّ الأمير...

لم أشعر إلا بجذبه لي، لأرتاح على صدره.. يعانقني طويلاً.. طويلاً.. حتى
دمعت عيناي!

آخر جني من صدره القوي وحملني، فتعلّقت برقبته بذراعي بينما أنظر له
عيني الدامعين بغير تصديق.. دار بي حول الغرفة بسعادة بينما تراقص حولي
فستاني الجديد، وعباته الملكيّة، عيناه تبتسمان لعيني بينما يقول بتأثر:

- أنت هنا! أنت معِي!.

هزّت رأسِي أمام عينيه وقد بدأت عيني بذرْف الدموع بينما شفتاي ترتجفان،
فتوقف عن الدوران بي وأنزلني بالقرب من الشرفة لأقف على قدميّ بغير اتّزان،
أحاط ذراعه اليسرى حول خصري وجذبني إليه ليلتصق جسدانا، وبيده الآخرى
مسح دموعي الحارّة اللامعة من فوق وجنتي الناعمتين، وبات يهمس بالقرب من
وجهِي، يلْفُحني بأنفاسه الدافئة المحببة لي:

- لا بأس حبيبي.. أنا هنا.. ودوماً سأكون!.

لمع عيناي بروية ابتسامة عينيه المتأثرتين، فهمست متأنِّه:

- حبيبيك؟ أنا هي؟.

أومأ بيطء دون أن يشيخ ببصره عنِي، فخرّجت مني شهقة ناعمة متأثرة،
أجمتها شفاته اللتان اقتتصتا شفتي بقبلة جامحة مليئة بالشغف، تقاعلت أنا معها
بكل جنون.. وباتت تخفت بنعومة، حتى أصبحت بنعومة الورد.. وشعرت بأننا كيانٌ
واحد.. وتأكدت بأنَّ هذا سيكون شعوري دوماً وأبداً!

نظر لي، يرافق تأثير قبّلته علىّ، ووجهِي أحمر بخجل.. نظراتي خجولة..
تظهر وجنتي كوردتين من الجوري.. ولم أنطق إلّا بكلمة واحدة، كسرت بها
الصمت الناعم..

- كيف؟.

لم يخضن تشديده على خصري قط، ولم أنزل أنا يدي الموضوّعة على صدره
براحة، تتحسّس مضخّة قلبه.. بل وصل بيده الحرّة ليدي، يشبك أصابع بيديه،
وكان يدي صنعت لترتاح بين قبضته القويّة والدافئة في آنٍ واحد! وهمس لعيني:

- كانت أنتِ طوال هذا الوقت.. كما ستظلّين أنتِ للأبد!.

هزّت رأسِي بغير فهم، ونطقت شفتاي بـ:

- أنا هي حبيبتك؟! لكن.. القلادة.. منعها لي بتلك الحرارة الغامضة، معاملتك لي وقت اعترافي بحبك و.. وكوني مؤامرتك الأخيرة!.

ضغط على كفي بيده بيضاء، بينما يقول:

- القلادة؛ كانت تميمتك.. بقطعة من قلبك ودموعي.. هي من منعنا من الخطير.. وحين غامرت بفقدك.. أعادتك إلّي!.

سالت دموعي مرّة أخرى.. فاقترب مني، يروي ظلماً بها، يمسحها من على وجهي بشفتيه بنعومة.. بينما يهمس:

- دموعي جزء منك الآن.. لذا احتقني بدموعك بالداخل، لتونس وحدة دموعي!.

تأوهت لكلمته ورفعت ذراعي أحيط عنقه بها بينما أدفع وجهي بدفعه فاحتضنني هو بحرارة.. فهمست بـ:

- كنت أنت قابض روحي.. لقد حلمت بهذا! رقصت معي الرقصة الأخيرة.. كما حلمت بتقبيلك لي.. وحبّك!.

- كم انتظرت هذا اليوم...

قالها لي فارتسمت ابتسامة مرتعشة متأثرة على شفتي بينما أغمض عيني، فقال هو متسائلاً:

- لا تشعرين بالسوء من أنا نيني؟ من كوني اخترتني أنت من بين كل الفتيات بالحياة الأولى، وأيضاً اخترتني لتكوني ملكي بالعالم الآخر؟.

هزّت رأسي نفياً وقلت بدفعه:

- كل ما أشعر به الآن أنساني جميع ما شعرت به يوماً...

آخر جني من صدره ونظر لعيني، وسألني بترقب:

- هل هذا معناه أنك متقبلة امتلاكي لك؟.

هزّت رأسِي مبتسمة بخجل.. فاقترب بوجهه مني.. طابعًا قبلة عميقَة دافئة على وجنتي.. بينما يهمس:

- أنتِ أميرتي إليونورا...

أبعد وجهه عنِي وهمس لعيني فقط:

- أحبّك...

رفعت يده ألمس بها وجهه، وقلت بتأثر وقلبي يرقص فرحاً:

- أحبك ظافر، وأحب كوني ملكك.. يا أميري ليث!.

رفع أنامله يتحسّس وجهي كما أفعل أنا.. وفجأة لمحنا شيئاً ما، يظهر على يميننا عبر الشرفة.. السماء.. كانت تصيء بلونِ دافئ!

- هل هذه.. الشمس؟.

قلتها أنا بذهول وقلبي يخفق بسرعة برجاء أن يكون ما قلته صحيحاً.. اقتربنا أنا وأميري للشرفة، واستندت عليها بيد واحدة، بينما الأخرى ترتاح على صدره.. ولدهشتني، ولدهشتته.. راقبنا مظهر الشروق.. لأول مرّة.. وكم كنت شاردة بمظهر السماء التي تصيء باللون الأصفر المحبب، الدافئ.. كدفء قلبينا والشاعر ييننا!

رفعت عيني لظافر بذهول، فوجدته يرفع حاجبيه غير مصدق لما يحدث، قائلاً:

- لقد عادت الشمس!.

كنت أنا أنظر للعشب بالغابة التي بدأت تظهر ملامحها القاسية أمامي، وأشار إلى حالها بأصابع مرتجفة، بينما تتبدل من اللون الباهت للون الأخضر النضر،

تزهر الأشجار زهوراً بمختلف الألوان، كما تبت الفروع المظللة بمنتهى السحر.. ظهرت العصافير تتنقل بين فروع الأشجار والنخيل بمرح، كما ظهر ضوء الشمس جلياً واضحاً أمام عيني.. حتى إنني رفعت يدي من على الشرفة لأخفى الضوء قليلاً من على وجهي بتأثير..

أدarni ظافر إليه فنظرت له وعيناي متسعتان لتلك النظرة عينيه.. كانت نظرة عاشقة بكل ما تحمل الكلمة العشق من معانٍ، يراقب لون عيني الدافئ بعد أن أناره ضوء النهار العذب.. وراقبت شفتيه بينما يهتزّان بكلماته المؤثرة: - إليونورا.. دفء الضوء.. ضوء الشمس! هذا معنى اسمك!.

وضعت يدي على قلبي الخافق، بينما أهمس بيته: - أنا.. من فعلت هذا!.

نظر لي وأومأ مؤكداً وقال بينما يقرص وجنتي بآنامله برفق: - دفء مشاعرك.. أعاد الشمس.. أعاد الدفء لهذا العالم!.

ضحكـت بخفـوتـ بـغـيرـ تـصـدـيقـ، وراقبـتـ اـبـتسـامـتـهـ تـسـعـ حـتـىـ انـفـلـتـ مـنـهـ ضـحـكـهـ هـادـئـةـ قـصـيـرـةـ أـذـابـتـ قـلـبيـ عـشـقاـ..

أخرجـتـناـ بـعـضـ الـأـصـوـاتـ الـفـرـيـةـ مـنـ شـرـوـدـنـاـ.. قـادـمـةـ مـنـ الـأـسـفـلـ؛ـ أـصـوـاتـ تـهـلـيلـ وـفـرـحةـ، ظـهـرـتـ بـوـضـوحـ، تـأـتـيـ مـنـ الغـابـةـ.. وـبعـضـ الـهـتـافـاتـ.. - يعيش الأمير ليث!.

- تحـيـاـ الأمـيرـةـ إـلـيـونـورـاـ!.

ما زـالـ أـمـيـريـ مـحـيـطـاـ بـيـ بـتـمـلـكـ، نـظـرـنـاـ لـلـأـسـفـلـ بـدـهـشـةـ لـنـرـىـ أـنـ الجـمـيـعـ يـقـفـ مـهـلـلاـ لـنـاـ، وـحـينـ وـجـدـنـاـ نـظـهـرـ لـهـمـ.. اـنـحـنـاـ بـطـاعـةـ، بـيـنـمـاـ يـرـدـدـونـ عـبـارـاتـهـ..ـ التـيـ جـعـلـتـ قـلـبيـ يـخـفـقـ بـشـدـةـ، فـهـأـنـيـ حـبـبـيـ بـالـمـسـحـ عـلـىـ ظـهـرـيـ بـنـوـمـةـ..

أفتنا من شرودنا على صوت طرق على الباب، فالتقينا، ونادي الأمير ليث
بصوته الذي أُعشقه:

- تفضلّ.

فتح الباب بهدوء ظاهري، ليظهر أمامنا طراد.. انحنى برأسه ونظراته لبرهة
فائلًا:

- الأمير ليث.. الأميرة إلينورا...

نظرت له أنا وليث بتساؤل، وقد وجدت صعوبة بالتأكد من كونه هو طراداً الذي
أعرفه أم لا.. لقد بدا أصغر عمراً، وكأنه بأواخر العشرين، وقد اختفت الشعرات
الفضية من شعره الأشقر. شعرت بدقّات قلبه متجمّسة تحت لستي، واتسعت
عيناي بدهشة حين سمعت طراداً يقول بعد أن رفع وجهه لنا مبتسماً بإشراق للخبر
السار الذي يحمله:

- لقد استيقظت عرائس البرج العالى!.

امتلأت عيناي بالدموع ونظرت لليث الذي تساءل وملامح الدهشة قد رسمت
خطوطها على ملامحه:

- جميعهنّ؟.

ثبت طراد نظره علينا، وقال بتأكيد:

- جميعهنّ مولاي.. جميعهنّ!.

نظرت لظافر بحماس وتأثر، وهمست له:

- سموّ الملكة!.

هزّ رأسه لي بخفوت وأمسك بيديّ، فضفغت أنا عليهما بينما أصابعنا
متشابكة، نستمدّ القوّة من بعضنا البعض.. وما هي إلا ثوانٍ وكنا نهروه للبرج،
نلحق بطراد الذي يخبرنا بأن كل شيء بات أفضل.. عاد لشبابه كما عاد الساحر
والده رجلاً بأواخر الأربعين وعادت زوجة الساحر، والدته، أربعينية جميلة
الملامح.. وأن إزالين قد استعادت كامل عافيتها!

عبرنا الطابق، حتى رأينا جميع العرائس ينظرن لبعضهن البعض بغرابة
وسعادة، العفيفات منهن فقط استيقظن، أما الباقيات.. اختفين!

تأوهت بدهشة ورفعت يدي لفمي بتأثر حين رأيت إيفي الصغيرة، جميلة يافعة
كما كانت دوماً، وأكثر! تتجه إلى منحنية.. فربّت على شعرها بسعادة ورفعت
وجهها الدامع إلى.. كما كان وجه جلاديس، وباقى العرائس!

تبعدت أميري لتلك الغرفة المنفصلة، وحين دلفنا إليها دقّ قلبي بعنف المشاعر
التي أرى.. فما أرى أمامي، هي الملكة جينروز.. تحضن ابنتها الشابة الجميلة
المتعافية.. الأميرة روز.. أو كما أعرفها أنا.. باسم إزالين!

جذبني أميري بعناق، وسرعان ما شاركتها الملكة والأميرة بعناقٍ كبير، أغمضت
له عيني الدامعة تأثراً، لكن سرعان ما كبت دموعي لتبقى بجوار دموع حبيبي
بداخلي.. كما قال لي..

ابتسمت الملكة لي وربّت على جبيني، وشدّدت إزالين من الإمساك بيدي..
وهمست بداخلني:

– لطالما علمت أنكِ حبيبة أخي وأميرته!

ضحكـتـ بـتأثرـ وـابتـسمـ لـيـ أمـيريـ ليـثـ.. وـظلـ طـرادـ يـراـقـبـناـ بـتأـثـرـ وـاحـراجـ، وـقـبـلـ
أنـ يـنـصـرـفـ.. نـادـتـهـ الـمـلـكـةـ، بـابـتـسـامـتـهاـ وـيـديـهاـ الـمـدـوـدـتـينـ أـمـامـهـ، قـائـلـةـ:

- أهلاً بك في أسرتنا يا بُنِيِّ!

لم يصدق نفسه، فانحنى برأسه وفي نفس الوقت انطلق إلينا يشارك في ذلك العناق الكبير، فضحكتنا معاً، ولم يغفل أحد منا عن النظرات المتبادلة بعيني وعين الأمير.. أو بين الأميرة روز وحبيبها طراد.. أو نظرة الملكة جينروز التي شملتنا جميعاً!



عصير الكتب للنشر والتوزيع

عصير الكتب للنشر والتوزيع

كم أصبح كل شيء رائعًا!

مملكة الشمال كانت السبب بإعادة ضوء الشمس لجميع ممالك العالم الآخر،
مما جعلها المملكة الحاكمة.. أصبحت الخادمات أكثر إقبالاً على العمل بضوء
النهار، بداخل القلعة وخارجها، وكافأ الأمير الحرّاس والخدم بالزواج وجعل لهم
قرية خاصة للعيش بها، بجانب العمل.. عادت الفتيات يستيقظن بالزنارين، لكن
زنارين مختلفتين.. وسط الزهور والورود عطرة الرائحة، ناعمة الملمس!

انتشرت الزراعة وازدهرت المحاصولات الصيفية الجميلة، وانتشرت الورود
تبثّ عبيرها في أرجاء المملكة.. أحببت الشتاء جداً لأن الصيف يحضر بعده، كما
يحضر الخريف والربيع.. أحببت كل شيء.. أحببت نفسي بين أسرتي الجديدة،
كما أحببت تاجي، منصبي.. وذبت عشقًا بأميري! الذي أنا ديه بكل اسميه.. ظافر
وليث!

جلاديس وإيفي أصبحتا وصيفتي، أعملهما كأختي.. تحسن سمع جladies
كثيراً لسبب مجهول، ووافقت إيفي على الزواج من كاليبلا كم بدوا متربطين..
شعرت بأول مرة بأنهما لبعضهما البعض بلا شك! فقد بدوا يشبهان بعضهما
البعض بطريقة غريبة!

لقد عادت فتاة أو أميرة الحكايات لزوجها العزيز، الساحر! لكن كسيّدة
جميلة، زوجة محبّة! كم بدوا رائعين معاً! أدين لهما بعمرى كله كما تدين لهما
أسرتي بأكملها، فكانا هما الاثنان بمثابة الأب والأم الروحيين للأمير ليث.. حبي
الأول والأخير!

تزوجت روز من طراد كما أصبحت أنا زوجة وأميرة فلية لأميري الوسيم،
لنصبح أنا وروز أميرتين من أجمل ما يكون.. وعشنا في سعادة وهناء مع زوجينا،
تحت ظلّ وحبّ الملكة الأم.. جينروز الجميلة..

آه كدت أنسى! أنا أحمل ولِي العهد الآن! ومتأكدة من كونه صبياً.. سيكون
وسيماً كوالده، بعيني الدافتين أو عينيه.. لا فارق، المهم أن يحظى بحبينا الذي
لن ينتهي!



عصير الكتب للنشر والتوزيع

الخاتمة =

لم أكن أعلم أن بمجرد استيقاظي بهذا العالم.. أني سأغيره.. لقد أثرت في كل نفس قابلتها.. لقد أحدثت فارقاً.. أعدت شمس العالم الآخر، كما تركت ذكرى جميلة بحياتي الأولى..

ولأجل هذا، قررت كتابة مذكراتي بالعالم الآخر، والتي استعنت بكل نفس قابلتها للتعبير عن ما حدت، وخصوصاً أميري العزيز ليث.. حارسي الظافر بي.. والذي عَبَرَ لي.. وبقوّة.. عن ما بداخله! تعويضاً عن كل يوم قضاه دون أن يعبر لي عن حبه، واستغللت أنا هذا أفضّل استغلال!

سأظلّ دوماً حبيبته، مدلّلته، وسيظلّ هو دوماً حارسي وأميري..



عصير الكتب للنشر والتوزيع

النحوية

تهّدت بعد أن انتهيت من خط آخر كلمة في مذكّراتي، والتي لست أعني حقاً
كلمة «النهاية» بها، فلا نهاية للحب! وابتسمت لتسّلّ يدي أميري إلى خصري
الرّفيع... والذّي لن يظلّ على حاله كثيّراً بسبب الحمل، التفت له مبسمة بعشقٍ
لأجده يطبع قبلة رقيقة على شفتي.. فغضضت على شفتي السفلي بخجل وحب..
وهمست لعيّني:

— أميرى ليث.. لم قالوا يوماً أنك تظفر بكل شيء!؟.

ابسمت عيناه لي، ولامس وجنتي بأنامله، ملامساً زاوية شفتي بنظرة ذات
مغزى.. وقال قبل أن نغوص بعالم آخر.. من المشاعر..

- ظفرت بأشياء كثيرة فكانوا يغارون.. لكن ما أشعر أنا بالغيرة من نفسى بسببه، هو أنتي ظفرت بك أميرتى...

تُتَهَّدُ بِحرارةِ قائلاً:

- أَحِبُّكِ إِلَيْنَا...

نهضت ورمیت نفسی یا حضانه یعنی اهمیت بین شفته:*

- وأحك.. أنها الظاهر ليث!.

.. تَعْتَبُ بِحَمْدِ اللَّهِ ..

عصير الكتب للنشر والتوزيع